دعوة الحق

الفكر الإسلامي والواقع المغربي

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
(مديرية الشؤون الإسلامية)
بالمملكة المغربية





المغرب الحديث

الاختيار الديبلوماسي المغربي

موقف الإسلام من التنمية الاقتصادية

الدعوة إلى عقيدتنا

ضرورة ملحة وواجب مقدس

الإسلام طوق النجاة من طوفان الانحراف المعاصر

ملامح من تطور المغرب العربي

في بدايات العصور الحديثة

العدد السادس - السنة 18 - رجب 1397 - يوليوز 1977 - ثمن العدد: 3 دراهم

العدد السادس
السنة الثامنة عشرة
رجب 1397
يوليوز 1977
ثمن العدد 3 دراهم

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف
والشؤون الاسلامية
(مديرية الشؤون الاسلامية)
بالمملكة المغربية
الرباط

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالى :

مجلة « دعوة الحق » — مديرية الشؤون الاسلامية
ص ب : 375 — الرباط — المغرب
الهاتف : 235،85 — 338،30

الاشتراك العادى عن سنة 30 درهما ، والشرفى 100 درهم فأكثر .

السنة عشرة أعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك فى حساب :

مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدى 55 · 485 الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485-55 à Rabat

أو تبعث رأسا فى حوالة بالعنوان اعلاه :

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادى والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التى لم تنشر

فهرس

العدد السادس السنة الثامنة عشرة

اللهم الهمني التوفيق والسداد، واسلك بي مسالك الهدى والرشاد، وكن لي معينا ونصيرا ومؤيداً وظهيراً وشد أزري، واشرح لي صدري، ويسر لي أمري لا ذكرك كثيراً، وأشكرك كثيراً، إنك كنت بي بصيراً، وأدم عليّ وعلى شعبي نعمة ما بيني وبينه من تماسك وانسجام وتعاطف ووئام وولاء ووفاء وإخلاص وصفاء ..

اللهم كما أعطيتني في الماضي، وكما أعطيتني جنوداً أشاوس، وأبطالا ورجالاً ونساء، اللهم اعط لهذا البلد الى أن ترث الأرض ومن عليها من يقوم مقامنا جميعاً للنضال عنها، والدفاع عن حوزتها، والأخذ بمصالحها والرعاية لأمانتها،

اللهم انك زرعت في قلوبنا حب الوطن فازرعه في أبنائنا وابناء ابنائنا وأحفادنا ..

انك سميع مجيب وللدعاء قريب .

الحسن الثاني



أبتاه

إنك لم تكن ملكاً كالملوك، إنك لم تكن تحمي العرش بالشعب وتستغل المواطنين والوطن من أجل الولاية والسلطان. بل كنت تفدي الشعب بعرشك وتناضل عن الوطن بنفسك وكنت لا تسأل الراحة والمتعة لشخصك ولا تسعى في المصالح الرخيصة لأفلاذ كبدك والمقربين من أسرتك وإنما كان شعارك الدائم هو شعار جدك يوم الموقف الأعظم: "اللهم إني لا أسألك نفسي ولا فاطمة ابنتي وإنما أسألك أمتي أمتي أمتي!"

جلالة الحسن الثاني

تهنئة

بمناسبة عيد الشباب الذي يخلد ذكرى ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، تتشرف وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، وأسرة تحرير مجلة " دعوة الحق " بأن تتقدم بأحر التهاني وأجمل الأماني إلى سيد البلاد أمير المومنين وحامي حمى الوطن والدين الملك الحسن الثاني رمز عزتنا وضامن وحدتنا ورائد نهضتنا، وإلى ولي عهده المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد، وكافة أفراد الأسرة المالكة الشريفة، سائلة الله جلت قدرته أن يحفظ مولانا الإمام ويسدد خطاه، ويعينه على تحقيق آمال شعبه الوفي المومن في التقدم والازدهار والرخاء .

« اننا لنحمد الله ونهنىء انفسنا على هذه الرابطة المتينة التي تجمع العرش والشعب فى بلادنا والتى هى سر نجاحنا فى اعمالنا وعيشنا فى بحبوحة الحرية والديمقراطية ، فاننا اذا نظرنا حوالينا ورأينا المشاكل التى تتخبط فيها دول كانت فى حال مثل حالنا ، علمنا اي فضل يرجع الى نظامنا الملكى المسند بقوة الشعب وتأييده والذى يستمد مقوماته من اقدس معتقداتنا واعرق تقاليدنا واخص صفاتنا وطباعنا والذى هو وحده الكفيل بانجاح مشاريعنا ومخططاتنا وتحقيق جميع ما نصبو اليه من تقدم ورقي ·

جلالة الملك الحسن الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :

الفكر الإسلامي والواقع المغربي

● ليس من الانصاف فى شيء التنكر للتجربة المتميزة التي يمر بها المغرب منذ حصوله على استقلاله سنة 1955 . فجميع الدول التي استقلت حديثا فى افريقيا مالت فى اختياراتها الايديولوجية والسياسية والاقتصادية ذات اليمين أو ذات اليسار ، وانحازت فى فترة من الفترات ، الى احدى القوتين العظميين اللتين تسعيان للسيطرة على شعوب العالم الثالث . ولا يهمنا ان بعض هذه الدول تراجعت أخيرا واعتدلت فى سياساتها وانقلبت احيانا ضد من كانوا بالامس يتحكمون فى كل كبيرة وصغيرة من شؤونها ، ولكن الامر الذي يعنينا ان المغرب وحده من بين الدول الافريقية حافظ على توازنه الفكري وموقعه الحضاري المتميز دون ان يميل لحظة واحدة نحو اتجاه مناهض لارادته ومعاكس لتيار الوعي الوطني المؤمن . وقد كلف المغرب هذا الصمود الشاق العنيف تجارب مريرة عرف كيف يتجاوزها ويستفيد منها ويخرج من اتونها اصلب عودا وأقوى ارادة وأرسخ قاعدة .

كان امام المغرب غداة الاستقلال اختياران اثنان باعتباره عضوا فى مجموعة العالم الثالث :

اولا : الاختيار الراسمالي

ثانيا : الاختيار الاشتراكي .

وكان الاختيار الاول يمثل امتدادا عضويا للاستعمار الذي رحل بلا عودة وطمع فى أن يخلف وراءه ركائزه . وقد رأينا كيف أن الدول التي استقلت فى الخمسينات والستينات وظلت مرتبطة فكريا ووجدانيا

بالاستعمار قد جنت على نفسها ودخلت في سلسلة متلاحقة من الانتكاسات والانهزامات وتجارب الفشل والاحباط والضياع السياسي المشين .

وكان الاختيار الثاني يخدع المتحمسين — الذين يلفون عقولهم ويفكرون بحناجرهم — ببريقه الكاذب ولمعانه المزيف . ولم يكن في واقع الامر الا دورة جديدة من الاحتلال الاجنبي . ورفض المغرب ان يخرج من عهد استعماري ليدخل عهدا استعماريا جديدا بمحض ارادته . وقد رأينا أيضا دولا افريقية — ومنها دول عربية اسلامية شقيقة — اقحمت نفسها في هذا المعترك الرهيب وعاشت سنوات طويلة تحت رحمة الارهاب والقمع والقهر والاستبداد . الى ان تداركتها أخيرا رحمة الله فآبت الى رشدها واصلحت من امر نفسها وصححت مسيرتها . ولكن بعد ان استنزفها التيه وحطمتها التبعية الذليلة .

كان في امكان المغرب أن يركب موجة العصر ويخرج الى الساحة هاتفا بالشعارات ومتشدقا بالنظريات وملوحا باللافتات ، ويكسب بذلك ود وصداقة مصدري المذاهب ، ومستعبدي الشعوب ، ولكنه كان يدرك أن الكلام لا يبني سدودا والصياح لا يشيد مدارس ، والتهريج الرخيص لا يطعم خبزا . وأثبتت الايام صحة ادراكه وسلامة حدسه بل صدق يقينه بعد ان تهاوت عروش الظلم والطاغوت وتساقطت انظمة الذل والجبروت ، وانفضحت المؤامرات الاجرامية ضد الانسان العربي المسلم في افريقيا والعالم العربي الاسلامي من محيطه الى محيطه .

● لقد تميز ربع القرن الماضي بظاهرة تاريخية لا يغفل عنها الا الذين طمس الله على قلوبهم . فاذا كان علماء الجيولوجيا يقولون بعوامل التعرية الطبيعية ويصفون عصرنا بعصر التغيرات العظمى في طبقات الارض بحيث من المحتمل أن تنقلب المناطق الصحراوية القاحلة الى اراض خصبة ، والعكس صحيح ، — وقد بدا هذا الانقلاب فعلا في بعض الجهات — فانه يمكن القول عن الدورة الحضارية الراهنة انها تتميز بما نسميه « بالتعرية الفكرية » بما يعني ذلك من تساقط الاقنعة وانكشاف الاسرار وانفضاح النوايا وتبيان الحقائق كما هي في بساطتها ونصاعتها ومنطقيتها . فاذا كانت كثير من الدول قد اغترت وانخدعت بالايديولوجيات المعادية للانسان منذ ربع قرن تقريبا ، ونالها من هذا الانخداع الشيء الكثير من التخبط والتعثر والفوضى وعدم الاستقرار ، فان المغرب بقي على صموده وتوازنه واعتداله و « وسطيته » لم يمل ، ولم يزغ ، ولم ينحرف ، ولم يشتط به الحماس اللاواعي ولم يذهب ضحية الفهم القاصر والادراك العاجز .

ان الدول التي عرفت بتحمسها المفرط للاشتراكية أو ما كانت تسميه « بالاشتراكية العلمية » تتراجع تراجعا بعيد المدى الى الحد الذي يقطع كل صلة بالاختيار السابق . والدول التي اخذت بالاختيار الرأسمالي تبحث في أصالتها وتقاليدها الوطنية عن بديل تستغني به عن الفكر الراسمالي الغربي .. وبعضها قد وصل الى نقطة الاقتناع وبعضها

الآخر لا يزال يواصل البحث عن الهوية السياسية الجديدة بينما المغرب لم يتغير ولم يعدل عن فكرة او ايديولوجية او اتجاه آخذ به ابان استقلاله وأيقن بعد التجربة من فشله وقصوره .. لانه لم يضعف أمام الاختيارين اللذين بدا للاشقاء والاصدقاء كحقيقتين حتميتين لا مناص من الاقتناع باحداهما ..

ان الخط الذي سار عليه المغرب سنة 1955 لا يزال الى يومنا هذا الخط الفكري والحضاري الذي يسلكه :

رفض المغرب الراسمالية ولم يعاد الانظمة التي تاخذ بها ، بل مد اليها يده فى اعتزاز وانتفع بتجاربها فيما يصح ويجب ـ شرعا ـ الانتفاع به .

ورفض المغرب الاشتراكية ولم يدر ظهره للمعسكر الاشتراكي ، لان هذا يتعارض مع رسالته فى الانفتاح والتفتح ومد قنوات التفاهم والتعايش والتعاون مع الشعوب ، واقتبس من الاشتراكية ما وجده صالحا به ، ومنسجما مع طبيعته الخاصة ، واقام علاقات نشيطة مع الدول الاشتراكية مراعيا المصلحة العليا للوطن والمواطنين ..

وفى كلتا الحالتين تحرر المغرب نهائيا مما يمكن ان نسميه ب « عقدة العداء » لهذا المذهب أو ذاك .. لان الموقف المعادي المتعصب مدخل الى التقوقع والانعزال . وما كان المغرب قط دولة منعزلة عن تيار الحياة المتدفق ... وانما هو موقف أخذ باتزان واعتزاز وعطاء بتعقل . الامر الذي جعله دائما فى منأى عن الصراعات المدمرة وأدى الى فشل كل المغامرات الخائنة ، مما دعم قواعد الاستقرار وضمن الاستمرار ، وحفظ للبلاد هيبتها وسمعتها ومكانتها الرفيعة .

فما هو الاختيار المغربي اذن ؟ .

لقد اختار المغرب اصالته وانحاز بكليته الى الشعب يستلهم منه النظرية والمنهج واسلوب العمل ويقتبس منه الاتجاه والفكرة والراي . وليس لدى الشعب الا الاسلام . فمن باب تحصيل الحاصل ان يكون اختيار المغرب اختيارا اسلاميا محضا ، وانحيازا بالكامل الى عقيدة الشعب وقيمه ومقوماته ومقدساته .

وحتى حينما رفع المغرب شعار الاشتراكية حرص على اضفاء الصبغة الاسلامية على هذا الاختيار . فهي اذن اشتراكية نابعة من بيئتنا وليست مستوردة فى الحقائب او مما يلقن لتلامذتنا وطلبتنا على مقاعد الكليات . ثم ان لفظ « الاشتراكية » هنا ليس الا مصطلحا شكليا اما المحتوى والمضمون فهو اقرب الى روح الشريعة الاسلامية منه الى مضامين الفكر الوافد .

وليس من الحزم وحسن التدبير فى شيء أن يأخذ المغرب بالاشتراكية الماركسية اللينينية ، أو الاشتراكية الماوية ، فان هذا الاخذ بمثابة استلاب فكري وايديولوجي يجردنا من كل خصائصنا وسماتنا ومميزاتنا . كما انه ليس من العقل فى شيء نقل التجارب الرأسمالية بروحها ومحتواها الوجداني والفكري الى البيئة المغربية ، اننا قد ننقل معملا او الخبرة التكنولوجية العالية لبناء سد أو مستشفى أو تجهيز التربة أو صناعة الادوية ، ولكننا غير مستعدين اطلاقا لنقتبس من الغرب أو الشرق أي تصور للحياة والكون والانسان ، أو ننقل عنهما نمطا من أنماط العلاقات الاجتماعية والانسانية وأسلوبا من أساليب التربية والتعليم ومنهجا من مناهج الاعلام والتوعية . فى هذه الحالة نفقد ذاتيتنا . أي اننا سنعود القهقرى خمسا وعشرين سنة دفعة واحدة ونلغي من سجلنا تلك الملاحم البطولية الخالدة التي صنعها العرش والشعب من أجل الحرية والكرامة والاستقلال .

اختار المغرب اصالته . أي انه اختار اسلامه وعروبته وحضارته . ولو انه انحاز الى هذا المعسكر أو ذاك لما استطاع أن يستكمل التحرير ويمضي فى الخط التحريري المستقل .

وهناك قضية أساسية تلح الحاحا على سياق الحديث . ذلك اننا لو كنا دولة راسمالية او اشتراكية ماركسية لما تمكنا من استرجاع الصحراء. لانه لا يعقل أن نحارب اسبانيا الراسمالية ونحن على مذهبها ، ولا يصح ان نحبط المخطط الماركسي ونحن مؤمنون به ، ولكننا حررنا الصحراء وأعدناها الى حظيرة العروبة والاسلام لاننا احرار فى اختياراتنا وتفكيرنا وسياستنا ومبادراتنا .

● اخترنا الاسلام لانه على طرفي نقيض مع الراسمالية والاشتراكية ، ولاننا أبينا الذوبان فى شخصية أجنبية ، ورفضنا الانسلاخ عن مقوماتنا ، وتمسكنا بالحرية والكرامة .

« دعوة الحق »

البدء والاستمرار

للأستاذ محمد العربي الخطابي

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (العلق / 1 ـ 5)

تتضمن هذه الآيات الخمس جملة من الحقائق المتصلة بالكون والحياة والعقيدة مثل : الله والخلق والوحي والانسان والعلم . والآيات توضح ، كما سنرى فيما بعد ، الاتصال بين الله والانسان وبين الانسان والارض التي جعله الله خليفة فيها .

ان فعل الامر « اقرأ » ينطوي على حقيقتين مضمرتين فى صلبه : الحقيقة الاولى هي « محمد » الذي اختاره الله للرسالة وامره بتبليغها ؛ والحقيقة الثانية هي «الوحي الالهي» ، ذلك أن ما امر الرسول بتبليغه هو كلام ربه ، فاللفظ « اقرأ » يتجاوز المعنى المراد بالقراءة ، لغويا ، وهو يرتبط مبنى ومعنى بالقرآن أى بالكتاب المنزل على نبيه محمد صلوات الله عليه ، ومصدر اللفظين معا هو « القراءة » التي يراد بها ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض فى الترتيل ، ومعنى قرأ فى الاصل جمع .

ان الدعوة الاسلامية قد ارتبطت بالقراءة التي تشمل تلاوة كتاب الله وتدوينه وحفظه وتدبره كما تتضمن القراءة التي تمد الانسان بالقدرة على حفظ العلم وتنميته واشاعته .

ونلاحظ فى الآيتين الثالثة والرابعة من سورة العلق « اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم » ربطا بين القراءة والتعليم والقلم باعتبارها وسائل وادوات تصل الانسان بالمطلق وتجعل له فى هذه الحياة غاية ورسالة ، وتعطي لوجوده معنى وقيمة .

« علم الانسان ما لم يعلم » انها ارادة الله المطلقة القاضية بتعليم الانسان ما لم يعلم ، وارادة الله هذه ، كما تعبر عنها الآية الكريمة ، غير محدودة بزمان أو بنوع معين من أنواع العلوم . فالفعل المضاعف « علم » يفيد البدء والاستمرار ولا يقف عند الماضي أو الحاضر . فالله بدأ تعليم الانسان حينما اقتضت ارادته تعالى أن يهبط آدم الى الارض « وعلم الاسماء كلها » (البقرة / 31) واستمر هذا التعليم لا ينقطع ، وهو يتم على وجهين :

اولا : بما يوحيه الله سبحانه وتعالى لانبيائه وما يبلغه هؤلاء للناس من وحي ربهم . جاء فى القرآن الكريم فى معرض الكلام عن داود : « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » (البقرة / 251) وفى الحديث عن بني اسرائيل يقول الله تعالى : « قل من

انزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم ؟ قل الله » (الانعام / 91) ويقول الله تعالى في كتابه العزيز متحدثا عن خاتم رسله : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (الجمعة / 2) .

ثانيا : بما يودعه الله في الناس من عقل وبصيرة وما يلهمهم اياه من مواظبة على التأمل والتدبر في آياته ومبدعاته والسعي لاستكشاف اسرار الكون والخلائق بالبحث والنظر والتجريب والاختبار « وفي الارض آيات للموقنين ، وفي انفسكم افلا تبصرون » (الذاريات / 20 — 21) :

والعلم في حقيقته المعنوية ومظهره الكوني وسيلة تمكن الانسان من تأكيد ذاته وتحديد مكانته في كون الله الشاسع اللامتناهي ، كما انه — اي العلم — اداة عاقلة فعالة لاحكام الاتصال بين الانسان وربه عن طريق التدبر والذكر والعبادة . وعلى هذا فان العلم هو الطريق الى حسن التمييز وسلامة الاختيار وصحة الاعتقاد ، وهو يعين على ادراك الحق والعمل بمقتضاه : « ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق » (سبأ / 6) .

والقصد الدنيوي من العلم هو الانتفاع والنفع — اي الاخذ والعطاء — بما يصلح حال الفرد والجماعة ويحقق التعاون بين الناس ويمهد لهم جميعا سبيل التقدم في شعاب الحياة دون استعلاء في الارض ولا فساد .

ان للانسان ان يسخر العلم لتحسين احوال الصحة والتعليم والزراعة والتجارة والصناعة والمواصلات وغيرها مما ينفع الناس مع مراعاة القصد والتوسط في كل شيء .

والله سبحانه يذكر في كتابه العزيز العلم بصفة شاملة مطلقة « علم الانسان ما لم يعلم » (العلق / 5) وهو بذلك يترك للناس مهمة التصنيف والتفريع والتخصيص والتعميم حسب انظمة ومناهج تتفق عليها مصالحهم . الا ان في كتاب الله وسنة رسوله حدودا واوامر ونواهي تقيم اصول الشريعة على اسس الهية حكيمة ثابتة لا تقبل الزيادة أو النقصان الا ما كان من المسائل التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب أو السنة فهي متروكة لاجتهاد العلماء واجماع اهل الراي من الامة .

ولا مكان لمقولة « الصدفة والحاجة » (*) في موقف الاسلام من العلم والتطور ، بل ان كل شيء يجري وفق قانون الهي محكم مضبوط « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » (الفرقان / 2) « انا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر / 49) « ما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى » (الاحقاف / 3) وانه ضمن هذا القانون الالهي يتطور العلم وينمو ، وفي نطاقه يتحدد التقدم الانساني كله.

= * =

قلنا في أول هذا الحديث بان الآيات الاولى من سورة (العلق) توضح حقيقة الاتصال بين الله والانسان وبين الانسان والارض التي جعله الله خليفة فيها .

وبيان ذلك ان الله هو الرب الخالق ، والانسان مخلوق على غير مثال سابق « خلقه من تراب ثم قال له كن ، فيكون » (آل / 59) ، واذا كان الله سبحانه قد خلق النوع البشري من طين فان الانسان الفرد يتأصل من علقة اصلها نطفة « الذي احسن كل شيء خلقه وبدا خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » (السجدة / 8) . والطين والعلقة والنطفة كلها اشياء تافهة الا انها تثبت العلة وتؤكد السبب ، ولا شيء في الحقيقة غير قدرة الله التي تتمثل في قوانين ثابتة تتحكم في الكون والحياة.

والله ، من حيث كونه خالقا ، هو وحده الموجود بلا بداية ولا نهاية ، لا يحده التاريخ لانه خالق التاريخ ، المسيطر على مصائره ، المتصرف في وقائعه ، المقدر لبدايته ونهايته « وهو الذي يبدا الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه » (الروم / 27)

(*) زعم ديموقريطس ، الفيلسوف الاغريقي المادي (460 — 370 قبل الميلاد) « ان كل ما في الكون ناتج عن الصدفة والحاجة وتبعه في ذلك الماديون الذين ينكرون وجود خالق مدبر للكون ، ويردون كل شيء الى المادة وقوانين حركتها وتغيرها .

والانسان من حيث كونه مخلوقا ، ملزم بعبادة الله وحده « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم » (البقرة / 2) .

والعبادة تقتضي التفكير والسعي والتعامل وفقا لارادة الله والاعتراف بوحدانيته وقدرته الشاملة المطلقة والتسليم بحكمته في صنع الكون وتدبيره . وجوهر العبادة التدبر : « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » (البقره / 164) . ومن مقومات العبادة الذكر الذي هو حضور دائم مع الله بالقلب والجوارح ومراقبته في الفعل والقول . « واذكر اسم ربك بكرة واصيلا » (الانسان / 25) .

ويتجلى فضل الله في خلق الانسان وما خصه به من عقل وقلب وحواس ظاهرة وباطنة فجعله بذلك ممتلكا لحرية السعي والاختيار والتقرير « انا هديناه السبيل : اما شاكرا واما كفورا » (الانسان / 3) . وحسن استعمال هذه الحرية يتيح للانسان طمانينة النفس في الدنيا « فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » (طه / 23) كما يؤدي به الى حسن الخاتمة « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » (الفجر / 27 — 30) .

والانسان ، من حيث هو مخلوق ، ضعيف امام ربه « وخلق الانسان ضعيفا » (النساء / 28) ، والضعف فيه نشأة وتكوينا « الله الذي خلقكم من ضعف » (الروم / 54) .

الا ان ضعف الانسان ازاء ربه وافتقاره الدائم الى معونته لا يمنعانه من ان يكون قويا في علاقته بالكائنات الاخرى التي يعايشها على الارض ، ذلك ان الله حمله امانة خلافته فيها وامره بعمارتها واقامة العدل في ربوعها والتعامل فيها بالرفق والاحسان والاستقامة مع الايمان بوحدانية الله والتسليم بقدرته الماثلة المطلقة . وكل تقصير او تفريط في ذلك انما يؤدي الى اختلال التوازن واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

والانسان القوي بالله محبوب عنده على ان يضم الى قوة البدن قوة النفس التي تتجلى في صدق العزم وصحة الايمان والعمل بما تمليه شريعة الله ويصون مصالح الجماعة .

ان القوة المطلوبة هي سلامة البدن والنفس والعقل التي تحقق التوازن الروحي والمادي في ذات الفرد وفي صلب الجماعة . والحاكمون مسؤولون عن توفير ظروف هذه السلامة ووسائلها ، ولا يعفى من المسؤولية اي فرد من افراد الجماعة . والظروف والوسائل التي نعنيها لا تتوفر الا بما يتخذ من تدابير اجتماعية واقتصادية وصحية يفيد منها الافراد بالعدل والسوية .

= * =

حينما نتدبر بحضور قلب الآيات الخمس الاولى من سورة العلق نجد انها تشتمل على معاني روحية تتصل بجوهر العقيدة الاسلامية والدعوة المحمدية .

ففيها معنى « الشهادة » — الركن الاول من اركان الاسلام ؛ ولما كانت الشهادة حضورا بالقلب والجوارح ونطقا باللسان فان الامر « اقرأ » الصادر عن الله يخاطب العقل والوجدان ، وينبه الفكر والحواس اذ يقرر منذ البداية وحدانية الله « اقرا باسم ربك الذي خلق » ، ويبين عن علمه وقدرته وفضله ، فهو سبحانه الآمر ، وهو مصدر الوحي ، واسمه الجليل هو المقصود ، والمخاطب هو الرسول الكريم ، ومخاطبته من لدن ربه تعني اصطفاءه وتكليفه بالرسالة ، وهكذا فان فعل « اقرا » يمد بين الله ورسوله شعاعا من نور النبوة .

وفي الآية خلاصة اسرار التوحيد الذي تنبني عليه عقيدة الاسلام : اسم الرب ، قدرته التي تتجلى في انفراده بالخلق والتدبير ، علمه المطلق وصدور كل علم عنه ، فضله وكرمه « اقرا وربك الاكرم » .

وفي الآية ايضا تكريم للانسان ، خلقه الله فآتاه القدرة على اكتساب العلم ، وخصه بذلك دون سائر مخلوقاته .

وقد خص الله « القلم » بالذكر تكريما للانسان والعلم . فالقلم يثير في الذهن فكرة الكتابة والكتب. وهو في الآية لا يعني فحسب الاداة التي يستعان بها

على الخط والتسطير ، بل انه قد يرمــز الى قدرة الانسان العاقل على تلقي العلم وتدوينه وحفظه ، وقد يشير كذلك الى موهبة التعبير عن الافكار بحروف وكلمات مكتوبة ، والا فان القلم بدون حامله (الانسان) لن يكون الا اداة جامدة ميتة . هذا ونلاحظ أن للقلم مكانة مرموقة فى القرآن الكريـم ، اقسـم به الله سبحانه وتعالى فى قوله : « ن ، والقلم وما يسطرون» (القلم / 1) وهو مذكور فى القرآن بالجمع مرتين : « ولو انما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمـده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله » (لقمان/27) « وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم » (آل عمـران / 24) .

= * =

وبعد ، لقد رأينا كيف اجتمعـت فى الآيـات الخمس الاولى من سورة العلق كلمـات : القـراءة والتعليم والقلم ، وهي رموز واشارات لها قيمتهـا ودلالتها سيما وانها وردت فى أولى الآيات التي تلقاها الرسول وحيا من ربه . وهذه الكلمات تحوم كلها حول الانسان وصلته بالخالق سبحانه .

وفعل الامر « اقرأ » وثيق الصلة بالقرآن الذي طبع حياة محمد واكسب شخصيته بعـدا جديـدا يتمثل فى نور النبوة .

بهذه الكلمة « اقرأ » بدأت سيرة محمد القرآنية، ومنها انطلق فى طريق الدعوة ممتثلا جاداً صابـرا مثابرا . وتصور آيات من القرآن الكريم هذه المرحلة من سيرة الرسول تصويرا مشرقا فتبيـن كيـف امتزجت حياته – فى مرحلة الدعوة – بالذكر الحكيم، وكيف تشربت نفسـه الطاهرة كلمات ربـه يهتـدي بهديها ويتخلق بأوامرها ويرتلهـا فى سره ونجـواه ويدعو الناس اليها ولا يبغي بها بديلا .

فلنتأمل جميعا هذه الآيات الكريمة التي تبين لنا جانبا مشرقا من السيرة القرآنية للرسول الكريم :

« وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليـم » (النمـل / 6) .

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهـدي الى صـراط مستقيـم » (الشـورى / 52) .

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطـه بيمينك ، اذن لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنـا الا الظالمـون » (العنكبوت / 48 – 49) .

« ما كان لبشر ان يوتيه الله الكتاب والحكـم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله » (آل عمران / 79) .

« واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا » (الكهف / 27).

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم علينا بيانـه » (القيامة / 18) .

« وبالحق انزلناه ، وبالحق نزل ، وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا ، وقرآنا فرقناه لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (الاسراء / 105 – 106).

« سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله ، انه يعلم الجهر وما يخفى » (الاعلى / 6 – 7) .

« واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » (الاسراء / 45).

« واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا » (الاسراء / 46) .

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينـات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدلـه . قل : ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ، ان اتبع الا مـا يوحى الي ، اني اخاف ان عصيت ربي عـذاب يـوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون ؟ (يونس / 15 – 16) .

« قل ان ضللت فانما اضل على نفسـي ، وان اهتديت فيما يوحى الي ربي ، انه سميع قريـب » (سبـأ / 50) .

« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيـلا »

« ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا » (الفرقـــان / 32 — 33) .

« ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (النجم / 17 — 18) .

« ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد، قل ربي اعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين. وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك» (القصص / 85 — 86) .

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة / 3) .

هكذا اصطفى الله رسوله ، فجعـــل معجزتـــه الكبرى كتابا مبينا منزلا من عنده ليقـــراه النـــاس ويتدبروه ويتدارسوه ، وليجعلوه بينهـــم امامـــا . والرسول صلى الله عليه وسلم « كان خلقه القرآن » كما قالت عائشة ام المؤمنين ، به اهتدى وهـــدى ، وبأحكامه عمل واليها دعا ، ومن أجل تعميـــم نـــوره سعى وجاهد ، وكان في سعيه وجهاده ، قويا بربه ، مؤمنا به اعمق الايمان ، متيقنا من نصـــره ، ومـــع شدته في الحق كان صلوات الله عليه لينا حليما وفيا لاصحابه ، رؤوفا بهم ، متواضعا لله « انما انا بشـــر مثلكم يوحي الي انما الهكم واحد » (الكهف / 110) « قل : سبحان ربي هل كنت الا بشرا رســـولا » (الاسراء / 93) « ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول اني ملـــك » (هـــود / 31) « قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ، ان اتبع الا ما يوحى الي » (الاحقاف / 9)

لقد كانت سيرته الطاهرة من أكبر الادلة على صدق نبوته وصحة ما بلغه عن ربه . لقد كان أميـــا فأشاع العلم والنور في القلوب وفي جهات الارض ؛ هو الذي قرأ لربه وقرأ باسمه وقرأ عنه . وما يزال هذا الامر الكريم « اقرأ باسم ربك ... » يخاطـــب البشر بلغة الله ، يدعوهم الى العلم والحرية والهداية ويوجه قلوبهم وعقولهم الى الى نور الله .

الرباط : محمد العربي الخطابي



الدّعوة إلى عقيدتنا

ضرورة ملحّة وواجبٌ مقدّس

الإسلام طوق النجاة من طوفان الانحراف المعاصر

للأستاذ محمد العربي الزطاري

حيرة وارتباك

تعيش المجتمعات الانسانية اليوم عيشة اضطراب وقلق ، وتحيا دول العالم حياة تطفح بالمشاكل المعقدة والازمات المستعصية ، فالفرد فيها يسير هائما على وجهه لا يستبين طريقا ولا يهتدي سبيلا ، رغم الحضارة المادية التى تظله وما توفر له من وسائل البذخ والترف ، لانها لا تقوم على اساس صحيح ، ولا ترتكز على قاعدة متينة ، وانما تستند على مظاهر براقة وسراب خادع يقود حتما الى الحيرة والتبرم والخوف من الحاضر والمستقبل .

هذه المجتمعات المضعضعة خلقيا والمهلهلة سلوكيا والحائرة فكريا تشعر بالفراغ يكتنفها من كل جانب ، وتحس بأنها تسير على غير مدي ولا كتاب مبين، فهى تعمل ولكن كالآلة الحديدية، وتأكل كالانعام وتلهث في ميدان التصنيع والانتاج ، وتبذل طاقاتها وقدراتها الجسمية والعقلية فى مجالات شتى ، الا انها تفتقر عنصرا اساسيا من عناصر الحياة المثلى ، فلا اطمئنان خاطر، ولا راحة بال ، ولا سكون نفس، ولا هدوء أعصاب ، وانما تجري فى متاهات لا معالم تحدها ، وتهت فى صحراء مخيفة لا نهاية لها .

تسابق جنوني

ودولها فى سباق منقطع النظير فى ميدان التسلح ، وجنون تكنولوجى لاختراع احدث الآلات فتكا وتدميرا ، وتخريبا وتحطيما ، وابادة وتهديما ، بالاضافة الى الاضطرابات الداخلية ، والصراعات الحزبية ، والانحلال والتفسخ الذي غزا مجتمعاتها بشكل فظيع ومرعب ، والمشاكل الدولية التى يأخذ بعضها برقاب بعض ، وعواقب الضائقات الاقتصادية والتضخمات المالية والمضاربات التجارية والجرائم الاجتماعية ، ومخلفات الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وفيضان وجفاف ، الى نهاية قائمة المصائب والاهوال المتعاقبة والمتلاحقة .

اشكال المجتمعات المعاصرة

ذلك الانسان الحائر يمكن تصنيفه على ثلاثة اشكال : قسم لا يهتم الا بمصالحه الخاصة والعاجلة ، فلا ينظر لغيره الا بمنظار المنفعة الذاتية والاستغلال المجرد عن كل احساس نبيل ، وقسم آخر يستخدم مواهبه — وحتى حيله — للثراء على حساب الشعوب المغفلة التى تفتح جيوبها وأسواقها لغزو اقتصادي منظم ومخطط وهادف . . . اما الفريق الآخر فقد اطلق العنان لشهواته الخسيسة وانغمس فى بحر لجى من المتعة الجنسية والادمان على المخدرات بجميع اشكالها والوانها ، مما ادى الى تعطيل للارادة، وهدر للعقل ، وخبل فى التفكير ، فكان من نتائج ذلك أن تكونت عصابات من الشباب المنحرف الذين اصبحوا مصدر قلق وهلع ، وتحولوا مع مرور الايام الى جراثيم فتاكة وميكروبات خطيرة على الاخلاق والفضيلة وعلى امن الاسر والافراد والمجتمعات .

انــواع الــدول المتسلطة والمتناحرة

ودول الساعة نستطيع حصر اكثريتها فى ثلاثة انواع ايضا : فريقها الاول تسلط على شعوبها فى ظلام الليل وغفلة عن وعي تلك الشعوب ، فسامها الذلة والخسف ، واذاقها الضعة والعسف ، لا يهمه الا ان يظل حاكما مسيطرا ولو على اشلاء الاحرار والمفكرين والمثقفين والمخلصين ، والقسم الثانى يراوده حلم الاستعمار ويداعب خياله بريق استغلال خيــرات الشعوب الضعيفة ومصادر طاقاتها المنجمية والاستيلاء على مراكز بلادها الاستراتيجية ، ولتحقيق هــذه الاغراض والمطامع لا يأبه لانين المستضعفــين ولا يهمه شقاء المعذبين، والصنف الثالث يتناحر فى الميدان السياسى ، ويتعارك فى الحقل الديبلوماسى ويتسابق فى اعداد العدة للبطش بخصمه والتفوق الحربى على غريمه ، لا للحفاظ على السلم الدولي ولا لتوازن القوى العالمية كما يدعون زورا وبهتانا ، وانما للغلبة المطلقة والسيطرة التامة على العالم .

سـراب خـادع

بين هؤلاء واولئك تعيش البشرية حالة مــن الاضطراب النفسى ، وتفتح عينها وتنام على حساب اعصاب منهوكة محطمة ، تنشد الخلاص وتترقــب المنقذ ، وتبحث عن الدليل ، ولكنها لا تصطــدم الا بالسراب الخادع ..

ولكى نضع اللوحة داخل اطارها ، ولتكــون الصورة واضحة المعالم بارزة المسالك ، نقترح نشر خريطة العالم المعاصر امامنا لنتعرف بدقة على الوضع الحقيقى الذى يعيشه انسان القرن العشرين ، ففــى كل بقعة اضطراب ، وفى كل نقطة هيجان ، وفى كل زاوية ضائقة ، وفى كل امة محنة ، وفى كل مجتمــع حيرة ، وفى قلب كل انسان رعب من الحاضر ، وهلع من المستقبل ، وفزع من المصير .

انســان القرن العشرين بين المعسكرين

ولنتابع خطوط الخريطة فنشاهد من الشعوب من انحاز تلقائيا أو اضطراريا الى المعسكر الشرقى ، وفيها من سار على هدى او غير هدى فى ركاب المعسكر الغربى ، فلا هذه سعدت لمذهبها ، ولا تلك ظفــرت بمبتغاها ، بل ان كل من جرب مذاهب المعسكريــن اصيب بخيبة امل ، وحتى اصحاب تلك المذاهب شعروا بالنكسات ، ولمسوا الثغرات ، فحاولوا التراجع فى العديد من المجالات ، واقدموا على تعديل الكثير من النظريات .

عـــواقـــب الالحـــاد

ونتيجة منطقية لتعدد المذاهب ، وتنوع النظريات المتعارضة والمتناحرة ، نجد الكثرة من الشعوب ابتعدت عن الاديان السماوية ، وقطعت كل صلة بخالقهــا ، وكفرت بأنعم الله عليها ، فعبدت العجل الذهبــى وسجدت للقوى من دولها ، ومن هنا جاءتها النكبة ، وعمتها الفوضى ، وتخبطتها شياطين الانس والجن ، حيث سلط الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها ، وهل من عذاب أبلغ من فقد راحة الضمير ، وهدوء النفس ، ورضى القلب « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى ياتــى وعد الله ، ان الله لا يخلف الميعاد »

لا نهدف مهاجمة المعسكريــن

لست هنا فى معرض مهاجمة المعسكرين ، وانما الذى نرمى اليه هو ان المذهبين لم يحققا للبشريــــة الاطمئنان النفسى ، والسعادة الحقيقية ، والحلــول الناجعة لمشاكل العصر ، والتعايش السلمى الذى هو هدف من اهداف الاسلام ، ولم يستطيعا انتشال الانسان المعاصر من الورطة التى يتخبط فى اوحالها ، ولم يتوفقا فى اي مجال من المجالات التى تسعد فيها الشعوب وتتآخى ، اذا لم يكونا قد ساهما من طريق مباشر أو غير مباشر فى تعميق هوة العداء بينهمــا وتوسيعها بشكل فظيع ومرعب .

فالواقع الذي تعيشه الانسانية اليوم لا يخرج من نطاق العداوات والاحقاد ، اذ بمجرد ما تتسرب افكار المذهبين الى الامة الواحدة المتماسكة حتى تنحل عرى وحدتها وتتمزق اواصر اخوتها وينفرط عقد وشائجها ، عائليا واجتماعيا وسياسيا ، وما الصراع الداخلى ، والعراك الحزبى ، والخلاف المذهبى داخل كثير مــن الشعوب الا صورة مجسدة لهذا الخبال الفكرى الذى تعانى منه البشرية الامرين .

حادثتان مؤلمتان

اما على المسرح البشرى العام فنتوفر على حادثتين هامتين تؤكدان ما اشرنا اليه سابقا من ان القوم لا يهتمون الا بالسيطرة على الشعوب ولايسعون الا وراء مصالحهم الخاصة ، ولو تعرضت الشعوب للتشرد ، ولتحقيق اغراضهم ولو زلزلت الارض زلزالها .

ماساة شعب فلسطين

امام العالم اليوم ماساة شعب فلسطين باكمله ، فقد اختلست القوة الغاشمة وطنه وشتت شمله وشردته فى الصحارى وأسكنته الخيام ، لا لذنب سوى ان هذا المعسكر يرى ان اقامة دويلة اسرائيل فى قلب العروبة ضرورة استراتيجية لتهديد دول المنطقة باستمرار، وقاعدة للانقضاض على الدول العربية متى سمحت الظروف الدولية بغزوها ، باعتبارها منطقة حساسة من الناحية الجغرافية ، ولما تحتوى عليه ارضها من خامات أولية وتختزنه من مدخرات نفطية لا حياة للدول المصنعة بدون تلك المصادر التى انعم الله بها على المنطقة العربية والتى تعتبر عصب الحضارة المادية المعاصرة .

زلازل واهوال منتظرة

وهذه دولة كبرى تتزعم معسكرا آخر عقدت العزم على تفجير 250 قنبلة ذرية وبقوة 100 ضعف القنبلة التى القيت على مدينة هيروشيما فخلفتها قاعا صفصفا بما فيها من انسان وما عليها من نبات وحيوان، لاجل شق قناة وتحويل مياه عدد من الانهار الى بحر قزوين ، مع العلم بأن علماء السوفييت انفسهم يتوقعون أن تسبب هذه التفجيرات المرتقبة عددا من الهزات الارضية .

فما هو يا ترى ذنب ملايين الفلسطينيين لولا الاطماع والاغراض والمصالح التى تمليها قسوة القلوب وانعدام الاحساس والجشع المادى الصرف ؟ وما هى جريمة سكان هذا الكوكب حتى تتسبب فى زلزلة الارض من تحت مساكنهم وأوكارهم ؟

الم يقتنع الناس بالزلازل الطبيعية، ولعل اكثريتها نتجت عن التفجيرات السابقة ، الم يان لهذا البشر ان يتريث قليلا ويفكر كثيرا فى العواقب المفجعة وما ستخلفه تلك الزلازل وراءها من مدن يبابا ومآت الآلاف من الموتى والجرحى والمشردين ؟

لابد من عودة الانسان الى فطرته

من هذين الحدثين ــ وغيرهما كثير ــ نخرج بنتيجة مؤلمة وهى ما اعترى هذا الانسان من طغيان وجبروت كأنه الحيوان المفترس ، لا يرق قلبه لنكبة الدنيا كلها ، ولا تدمع عيناه لمحنة الآخرين ، ومن المثلين نومن كل الايمان بأن الحاجة ماسة الى غسل العديد من الادمغة مما علق بها من أدران ، والكثير من القلوب مما ران عليها من قساوة ، ولا يتأتى ذلك الا بواسطة تصحيح جديد للمفاهيم الحالية عند هؤلاء واولائك ، وتصحيح تلك المفاهيم يكمن فى عودة الجميع للاغتراف من ينبوع الفطرة الانسانية التى فطر الله عليها الموجودات بما فيها هذا الانسان الذى يسعى لخراب دياره والقضاء على وجوده « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

أدوات الفتك الخاطف

والخراب الذى يسعى اليه الناس يتمثل بالاصالة فى الصراع الدائر بين الكتلتين الشرقية والغربية ، والعداء السافر بين المذهبين المتناقضين ، ويكفى أن كلا منهما يحمل لقب « معسكر » وهى لفظة فى مدلولها ومفهومها ومنطوقها توحى بالقوة النووية المدمرة والاستعداد الحربى والتحفز للبطش ، ونلاحظ ان كل معسكر لا يحجم عن التلويح والتصريح بأن كل مواجهة ساخنة بينهما تحمل بين طياتها كارثة انسانية لا يعلم الا الله فظاعتها ، ولعل السر فى تأجيل اشعال فتيل الحرب المدمرة يعود الى توفر كل من الجانبين على أدوات الفتك الخاطف ، وهذا الافتراض يدفعنا للاعتقاد بأن ما يلوح به كل منهما من رغبة فى التعايش السلمى لا يعدو أن يكون « افيونا » مخدرا للرأى العام الانسانى حتى يتسنى بسط النفوذ الاديولوجى لهذا المعسكر أو ذاك فى بقاع الدنيا .

التجربة الرائدة والوحيدة للخلاص

ومن المفيد لنا ولغيرنا التأكيد على أن الانسانية جربت المذهبين معا فلم تسعد بهما وسلكت طرقا أخرى

للخروج من المحن التى تتخبط فيها فلم تجدها نفعا ، واتبعت اساليب مختلفة لاصلاح اوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية والتعليمية وحتى المالية فلم تفلح مطلقا ، فلم يبق امامها الآن وبعد هذا الافلاس الذى صاحب مسيراتها الا تجربة رائدة فى عالم التعايش السلمى الحقيقى دون ميز للون وعرق وجنس وسلالة ، انه الاسلام الذى ينادى البشرية منذ اربعة عشر قرنا بقوله تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

الاسلام دين الانسانية جمعاء

والذى يجب التاكيد عليه فى هذا السياق ان الاسلام ليس دينا خاصا بالعرب وحدهم ، وانما هو دين الانسان فى اى زمان ومكان « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » « يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والارض ، لا اله الا هو » ومن الآيتين الجامعتين كان على كل مسلم صادق فى اسلامه ان يحاول بكل الطرق وجميع الوسائل هداية اخيه الانسان الى دين الله الذى يكفل للجميع حياة دنيوية مطمئنة يسودها الاخاء والوئام ، ويرشده للحياة الاخرى حيث النعيم الدائم ورضوان الله اكبر .

الدعوة الى عقيدة الاسلام

ومن هذا المنطق يحق التبشير بالاسلام وعرضه على المجتمع الانسانى كبديل للحلول الفاشلة لما تعانيه البشرية من خراب روحى ، ودمار فكرى ، وانهيار اقتصادى ، وحقد انسانى ، وصراع دولى ، وتهديد نووي ، باعتباره الدين الحق الذي جاء خاتمة الاديان السابقة التى كانت خاصة بأمم معينة ناحيا ديننا ما كان فيها من تعاليم حرفها وأولها اهل الكتاب « يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا خطا مما ذكروا به» ولقحها الاسلام بما يكفل سعادة الانسانية جمعاء وما يحتاج اليه الانسان فى تقدمه العلمى ورقيه العقلى ومن هنا كان الاسلام خاتمة الاديان كلها « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » وكان نبينا عليه السلام خاتم الانبياء والمرسلين « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين »

الاسلام يدفع للابداع والابتكار

ولذلك كان هذا الدين مواكبا لكل نهضة على تعاقب الازمان ، وحافزا خفيا للخلق والابداع فى مجالات الحياة الخاصة والعامة ، والدليل الملموس على هذه الحقيقة أن العرب لما اعتنقوه كعقيدة وطبقوها فى حياتهم العملية وسلوكهم الاجتماعي تطبيقا كاملا وعميقا كما جاء به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قفزوا قفزة عملاقة وسريعة فى ميدان الحضارة وبهروا الدنيا بمدنيتهم التي لا تزال آثارها الفكرية ومعالمها المعمارية تشهد لهذا الدين بانه البلسم لكل العلل والمبيد لجميع الجراثيم التى تعرض الانسانية للاخطار وتهددها بالفناء والدمار « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا »

شهادة مستشرق حر

وعلى المجتمعات المدعوة الى تجريب الاسلام الرائد كبديل لحيرتها وخبلها أن لا تصيخ بأسماعها الى الاعداء التقليديين للاسلام ، والذين هم فى نفس الوقت خصوم الراى لكل اصلاح اجتماعى فى هذا الكون ، فهم لم يتورعوا — ولن يتورعوا — عن الكيد للاسلام وتشويه الحقائق وقلب الاوضاع ، وانما عليها أن تعود الى الاصالة البشرية والفطرة الانسانية ، وتستلهم مشاعرها مجردة عن الهوى ، ووجدانها بعيدا عن الاكاذيب والاراجيف التى روجها الحاقدون على الاسلام والمتطلعون من ذوى الاغراض الاستعمارية والمطامع الاشعبية ، فان هى استوحت الاسلام من معينه الصافى وينبوعه الفياض ، وتعمقت فى دراسة أوضاعها الخاصة والعامة ومشاكلها القائمة والمتشعبة فستتحقق بأن ما جربته من افكار ومذاهب ومناهج لم يزد مشاكلها الا تعقيدا وارتباكا ، وأن الحل الوحيد هو الاسلام .

وهنا ننصحها بأن تقرأ بامعان وتدبر شهادة المستشرق الفرنسى المنصف والحر السيد كوستاف لوبون الذى يقول بالحرف « ان حرية الفكر فى الغرب تختفى لدى الاوربى عندما يمتد فكره الى بحث العالم الاسلامى ، فالمفهوم الصليبى العميق الاثر فى النفس الاوربية يحول دون حرية الراى اذا كان موضوع البحث هو الاسلام » .

الاخـوة الاسلاميـة

واذا تحقق التجرد الفكرى وحرية الرأى فى هذه الدراسة النزيهة والهادفة نعرض آية قرآنية كريمة تعتبر اساسا للتعاش السلمى الحقيقى الذى تفتقده البشرية اليوم ولا تجده الا فى قوله تعالى « انما المومنون اخوة » وهل فى الدنيا أجمل من المحبة والاخاء ، وهل من طمانينة انبل واشرف من ان يعيش الانسان اخا حميما وصديقا وفيا لاخيه الانسان الذى لا يتم له ايمانه فى اطار الاسلام الا اذا طبق الحديث النبوي الشريف تطبيقا عمليا « لا يومن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » .

التقوى أساس التكريم فى الاسلام

ثم ننتقل الى مبدأ آخر من مبادىء الاسلام الخالد والذى عليه ترتكز اعمال البشر ، وهو المعيار لكل الاعمال التى يزاولها المومن فى حياته الدنيا ، وعليه وحده يتوقف الجزاء فى الاخرة « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » وبما ان التقوى فى نظر الاسلام هى التى تؤهل المومن لرضوان الله تعالى فقد اضفى عليها الرسول الكريم هالة من الاجلال والتعظيم فقال : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لابيض على اسود ، الا بالتقوى »

وهنا نقف وقفة قصيرة لنؤكد للعالم اجمع بانه متى تحقق الاخاء وحصلت التقوى ، — وهما لا يتحققان الا فى ظل الاسلام — فكل المشاكل قد انحلت من تلقاء نفسها ، واختفت عوامل الشر والحقد وبواعثه التسلط والظلم ، وعاش البشر فى سعادة وهناء ، وعمتهم الطمانينة والرخاء ، وهذا ما ينشده الفرد وتتوق اليه المجتمعات التى تتقاذفها اليوم الاهواء والمطامع ، وتستغلها قوى الشر والعدوان ، وتتخطفها شياطين الانس وابالسة الالحاد .

سعادة الانسان فى ايمانه بربه

ولا مناص من الاشارة الى نقطة مهمة تتعلق بموضوعنا ، فلقد جرب آلاف وآلاف من ابناء اوربا وامريكا وافريقيا الاسلام ، فدخلوا فى دين الله افواجا عن اقتناع بصلاحيته ، فاستراحوا من عناء الحيرة الفكرية ، وعمهم الاطمئنان النفسى ، وعاشوا اخوة لكل المسلمين ، وها هم يشقون طريقهم فى الحياة كعناصر تجد وتعمل وتكافح فى راحة بال وهدوء اعصاب وخلاص من الوسوسة وبلبلة الفكر والعاطفة والقلب والوجدان ، مما يؤكد أن سعادة الانسان تكمن فى ايمانه الصادق بربه ، وراحة ضميره تنبع أساسا من هذا الايمان العميق ، وصدق الله العظيم الذي يقول فى محكم كتابه الكريم « ومن يتق الله يجعل من امره يسرا » « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من لا يحتسب » .

الاسلام دين ودنيا

وهنا نشير الى ان الاسلام لا يطالب المومن بالانقطاع عن العمل فى الدنيا والتجرد للاخرة ، فذلك من اختصاص الملائكة الذين لهم مهمتهم التى خلقهم الله لها ، اما الانسان فله وظيفته على هذا الكوكب ، ومن خصائص هذه الوظيفة أن يوازن بين متطلبات الجسم وحقوق الروح ، وهذا هو السر الدفين فى اندفاع المسلم الى التحليق فى اجواء الملكوت الاعلى مرضية لمطالبه الروحية ، والهيام بالعمل الجاد فى الدنيا والاستمتاع بخيراتها وطيباتها استجابة لرغائبه الجسمية «قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن الله اليك »

الى صراط الله المستقيم

فهذه المشاهد الرائعة والتوجيهات الربانية لها نظائر فى كتاب الله العزيز وسنة رسوله الكريم ، تعالج بها جميع الامراض الاجتماعية ، وتضع الحلول لكل المشاكل التائمة والمرتقبة ، وتجنب الانسانية الخبل الذى يعتريها ، وتهتك الستار عن الاباطيل التى تحجب الحقائق عن انظارها ، وتطهر القلوب من الوساوس التى يوسوس بها الشيطان الرجيم والانسان الملحد ، « وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم » .

لا حصر لنعم الله

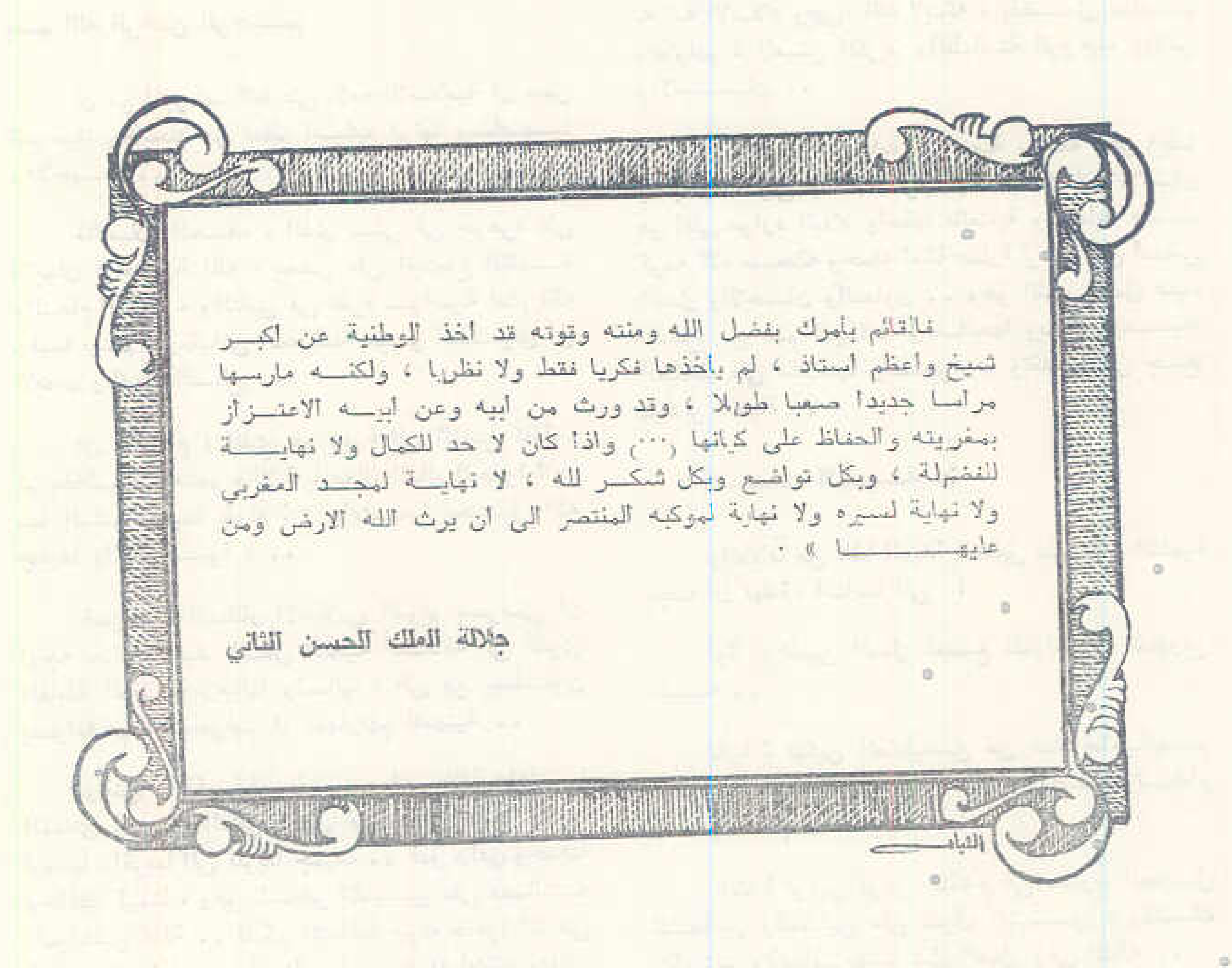
ومهما حاولنا تقصى الحلول التى جاء بها الاسلام لجميع المشاكل التى تستأثر باهتمامات الانسانية اليوم وغدا لعجزنا كل العجز ، وانما نحيل هذه الانسانية الى دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة دراسة موضوعية ونزيهة ، فستجد أن الاسلام هو البديل

الرباني لجميع مشاكل كل انسان حائر ، وهو طوق النجاة من طوفان الانحراف المعاصر «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولوجئنا بمثله مددا » .

الاسلام وحده في ساحة الانقاذ

هذه مساهمة اسلامية في اخراج الانسانية من حيرتها وارتباكها ، وهي تعطي صورة واضحة على أن الاسلام وحده هو الكفيل بهداية الحائرين ، وهذا العرض المقتضب ليس الا اقل ما يجب ان يؤديه المسلم الى اخيه في انسانيته وصدق الله العظيم الذي ينادي من أعلى عليين « قل هذه سبيلي ادعو الى الله أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله »

محمد العربي الزكاري



المفهوم الحضاري للعمل في المجتمع الإسلامي

لفت انتباهنا الخطاب القيم الذي القاه السيد وزير الشغل والشؤون الاجتماعية الاستاذ محمد العربي الخطابي بمناسبة فاتح ماي الماضي ، وذلك لما تضمنه من توجيهات محكمة مستوحاة من تعاليم ديننا الحنيف تمشيا مع السياسة الرشيدة التي يسلكها جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله . ويسرنا أن ننشر النص الكامل لهذا الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

ان من اكبر نعم الله على الامة الاسلامية ان جعل التوحيد والاتحاد من اعظم اسباب قوتها ومناعتها وفلاحها ..

فالاسلام الحنيف ، الذي ينبني في جوهره على الايمان بوحدانية الله ، يحض على اجتماع الكلمة والتحام الصف ، والناس في نظره سواسية امام الله وفيما بينهم ، ومقياس المفاضلة هو التقوى اي الايمان والعمل الصالح ..

ان الاسلام ، الذي هو دعوة الى الناس كافة ، لم يخاطب فئة منهم قائلا : يا عمال العالم اتحدوا ! بل دعا البشر جميعا بقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ..

فمن هذا المنظار الاسلامي القويم يسرني ان اوجه بمناسبة عيد الشغل التحية الصادقة الى القوى العاملة المغربية رجالها ونسائها ، الى من يعملون بسواعدهم او بعقولهم او بمهارتهم المهنية ..

وانني واياكم لعلى يقين من ان جلالة عاهلنا المفدى الحسن الثاني يحمل من معاني هذه التحية اروعها واقربها الى قلوبنا جميعا .. فهو راعي وحدتنا وحافظ قيمنا ، وهو الساهر الامين على مصالح المواطنين كافة .. فليكن التفافنا حوله حافزا لنا على المضي قدما في سبيل بناء وطن يعتز به ابناؤه وتفخر به امة الاسلام ويهيء الله لابنائه ، بفضل عملهم وتعاونهم ، العيش الكريم والطمانينة الروحية والامن والامان ..

ان الانسان هو غاية كل تنمية سليمة وهو ايضا وسيلتها الاولى واداتها الرئيسية ، ذلك لان الانسان هو اغلى موارد البلاد واحقها بالعناية والرعاية فقد كرمه الله سبحانه وحمله امانة عمارة ارضه على اساس العدل والاحسان والتعاون .. وهو الذي يحمل عبء الدفاع عن قيم الجماعة ومصالحها وينهض بعبء الحفاظ على سلامتها واستمرارها وتقدمها في جميع ميادين الحياة ..

أهداف التنمية :

وانطلاقا من هذا المبدأ المتفق عليه فان التنمية يجب ان تهدف اساسا الى :

اولا : تأمين العمل لجميع المواطنين القادرين عليه ..

ثانيا : تمكين العاملين من سد حاجياتهم الضرورية من طعام وسكن وتعليم ووقاية وتداو واستجمام ..

ثالثا : توفير فرص التقدم في مدارج العمل للشغالين وللمقبلين على سوق الشغل ، وذلك بتكوينهم وتأهيلهم مهنيا قبل العمل وفي اثنائه ..

رابعا : تعميم الرعاية الاجتماعية حتى يفيد منها كل العاملين بشكل يكفل لهم ولذويهم الطمأنينة والاستقرار والامن الاجتماعي فى العمل وعند الانقطاع عنه ، فى الصحة والمرض ، فى الولادة والحضانة ، فى القدرة والعجز ، فى الشباب والشيخوخة ، وذلك عن طريق خدمات الضمان الاجتماعي ومؤسسات التعاون المهني ..

ان ارتفاع معدل الدخل والانتاج لا يقوم وحده دليلا على نجاح التنمية ما لم يؤد الى استفادة جميع المواطنين من ثمراتها بما يكفل لهم العيش الكريم والحياة الامنة ..

فالتنمية ليست هدفا لذاتها بل لما تؤدي اليه من خير وفرة يفيد منها الجميع كل على قدر جهده وحاجته لا يبخس احد شيئا من حقه فى ذلك ..

والتنمية ليست مسؤولية الحكومة او السلطات الاقليمية وحدها ، بل هي مشاركة فى الجهد والتفكير والتدبير يضطلع بها ، الى جانب الحكومة ، الافراد والجماعات والمؤسسات الاقتصادية والهيئات المهنية لخير الجميع ..

ومما لا شك فيه ان كفالة العمل لجميع المواطنين القادرين عليه هدف رئيسي من أهداف التنمية ، وهو ايضا من وسائل تحقيقها ، لذلك فان ايجاد القدر المطلوب من فرص العمل المنتج يجب ان يحتل المقام الاول من الاهتمام ، وهذا يعني أن تعتبر سياسة التشغيل من الاسبقيات للمخطط الخماسي.

وسياسة التشغيل لا تعني مجرد مكافحة البطالة ..

فالتشغيل خطة شاملة متكاملة ترمي الى ايجاد فرص العمل المنتج بالقدر الذي يفي بحاجة سوق الشغل من حيث العرض والطلب مع تامين الاستقرار المادي والرعاية الاجتماعية للشغالين واتاحة فرص الترقية المهنية لهم بالتدريب والتكوين الدائمين ..

اما مكافحة البطالة فليست فى واقع الامر الا جزءا من سياسة التشغيل ، فهي اذن عملية محدودة تفرضها ظروف اجتماعية واقتصادية خاصة ..

ونحن حينما نقول بأن سياسة التشغيل يجب أن تحتل مكانها من بين اسبقيات مخطط التنمية فاننا نعني اولا وقبل كل شيء ان تقاس فعالية المشاريع الانمائية المزمع انجازها بما تستطيع خلقه من فرص العمل المنتج فضلا عن الاعتبارات الاقتصادية الاخرى التي لا بد منها وفى مقدمتها الجهود لاستكمال تجهيز البلاد وتطوير قدراتها الصناعية والفلاحية والسياحية والاسكانية ..

ومما لا شك فيه ان كثيرا من التدابير التي اتخذتها الحكومة خلال تنفيذ المخطط الحالي على صعيد الاصلاح الزراعي والتجارة الخارجية وتشجيع الاستثمارات واصلاح بعض الانظمة الجبائية ، كان له اثر ايجابي فى استحداث فرص العمل ، ثم ان سياسة التنمية الجهوية التي رسمتها الحكومة ومضت فى تطبيقها خطوات ايجابية تعد من اهم تلك التدابير التي ينبغي تطويرها وتحسينها نظرا لما ينتظر أن تؤدي اليه من حسر موجة الهجرة من القرى الى المدن بتشغيل القوى العاملة فى اماكن اقامتها الاصلية وتطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الاوساط القروية ..

ولما كانت سياسة التشغيل تتطلب اعداد المهارات الفنية والمهنية بشكل يواكب حاجة المرافق الاقتصادية التي تنمو باستمرار فانه ينبغي التفكير فى نشر التكوين المهني على اوسع نطاق ممكن لاستيعاب جميع الشبان الذين يرغبون فى متابعة تدريب مهني يؤهلهم لولوج سوق العمل وهم على أتم الاستعداد لذلك ..

والتكوين المهني ليس معناه — كما يفهم البعض — مد حزام النجاة لانتشال الشبان الذين يضطرون الى الانقطاع عن متابعة التعليم العمومي ، بل ان التكوين المهني مرحلة ضرورية فى اعداد الشبان لخوض معركة الحياة والعمل وهم متوفرون على المهارة الفنية والمهنية وفقا لمؤهلاتهم اولا ، ولحاجات النمو الاقتصادي ثانيا ..

ومن المسائل التي تستأثر باهتمام المسؤولين فى هذا الباب :

1 — احكام التنسيق بين المرافق الحكومية والمؤسسات العمومية التي تضطلع بالتكوين المهني على ان تنسق الجهود كذلك مع مصالح التعليم العمومي ..

2 — توفير وسائل جديدة مثـل التكويـن بالمراسلة واحـداث وحدات متنقلة للتدريب قصـد سد حاجات الاوساط القروية التي لا توجد بها مراكز قـــارة ..

3 — مواصلة التدريب فى المصانع وتحسين وسائله وطرقه ..

4 — احداث معاهد لتخريج اطر فنية حاصلة على الكفاية الفنية والمهنية فى بعض التقنيات التي تدعو اليها حاجة النمو الاقتصادي كصناعة النسيج والسكر وفنون الطباعة وغيرها ..

5 — تنظيم التدرج او التلمذة الصناعية ..

6 — توسيع عملية التدريب السريع التــي بداناها بنجاح فى قطاع البناء ..

واذا كان لا بد لي ان اذكر ، بالمناسبة ، بعض الصعوبات التي تعترض سبيلنا فى ميدان التشغيل خاصة فانني ارى ان اقتصر على مسالتين اجتماعيتين:

فالمسالة الاولى تتعلق بالنمو السكاني السريع الذي تعرفه البلاد ، وهو نمو يدل على تحسن مستوى الصحة العمومية وعلى رغبة عامـــة المواطنيـــن فى التكاثر ، ولكن هذا النمو لا يكون ، وباللاسف ، دائما موازيا للنمو الاقتصـــادي فتحـدث الصعوبـات الاجتماعية التي نعرفها ..

وعند الحديث عن هذه المسالة يتبادر الى الذهن ما يسمى بالتخطيط العائلي فيحدث بعض الالتباس الذي يؤدي احيانا الى المغالطة وســوء الفهــم .. فالتخطيط العائلي لا يعني بالضرورة اللجــوء الـى الاجهاض والتعقير او منع الحمل باية وسيلة كانت.. والواقع ان التخطيط العائلي يهم فى المقـــام الاول الاسرة ذاتها .. ونجاحه يتوقف على تفتح الوعــي العام .. فاذا كان الزوجان يتسمان بحسن التقدير وبعد النظر فانهما يعمدان تلقائيا الى تنظيم اسرتهما بشكل يجعل ما ينجبانه من اطفال موافقا لقدرتهمــا المادية والمعنوية .. نعم ان للسلطات العمومية دورا ينبغي ان ينحصر فى الارشاد والتوجيه وفى توفير الوسائل التي قد يلجا اليها المواطنون الذين يحرصون على تنظيم اسرهم بشكل يلائم — كما قلت — امكاناتهم ولا يرهق فى نفس الوقت كاهل مخططات التنمية ..

اما المسالة الثانية فانها تتصل بالتغير الاجتماعي الذي يتطلب نجاح مشاريع التنمية .. وقد انتبــه كثير من الخبراء العالميين الى هذا العامل المهــم الذي يفرض تغيير بعض العادات السيئة والممارسات السلبية التي تعرقل سير النمــو الاقتصـــادي او تؤخـــره ..

فاذا نحن تناولنا هذه المسالة من وجهة نظــر الاسلام وما يشتمل عليه من قيم خلقية وواجبـات سلوكية ، فانه ينبغي ان نذكر ونتدبر قول الله تعالى فى كتابه العزيز : « ان الله لا يغير ما بقوم حتــى يغيروا ما بانفسهم » — وقوله عز وجل : « ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم » ويمكن ان نفهم التغيير هذا بوجهيه السلبي والايجابي .. فان نحن تغيرنا فى معاملاتنا ومعاشنــا من الاحسن الى الاقبح فاننا لا بد وان نصاب بالضعف والخذلان والتدهور .. وان نحن انقلبنا من ســيء الخلق الى حسنه فان الله يمدنا بالعون والتوفيــق ويهيء لنا سبل الفوز والعيش الكريم ..

والاخلاق فى الاسلام ليست قيما معنويا مجردة بل انها ممارسة وفعل ، وهي سلوك فردي واجتماعي يطبع تصرفات الناس ومعاملاتهم كلهــا ، واخـلاق الاسلام مبنـية على الصدق فى القول والعمـل ، وقوامها وما يقتضيه ذلك من رفـع الضـرر ودرء المفاسد ، واعطاء كل ذي حق حقه التعاون لصالـح الجماعة ، وتقديم المنفعة العامة على المكسب الفردي

ان التقدم الاقتصادي والاجتماعي ليس حركة مادية صرفا ، بل ان هذا التقدم مرتبط الى حد بعيد بمكارم الاخلاق وصالح العادات .. فاذا كثر الفساد والغش والجشع والرشوة ، وغلبت الاثـرة وحـب الاحتكار والاستغلال ، وساد الظلم الذي تضيع معه حقوق الفرد والجماعة فان التنمية لا يمكن بحال ان تسير فى الاتجاه السليم الذي يحقق العدل والكفاية ورخاء العيش للجميع ..

هذا هو التقدم فى نظر الاسلام : انه تقدم قائم على التوازن المادي والروحي وتقديم النفع العـام واخلاص العمل لله وابتغاء مرضاته فى القول والعمل .. انه تقدم يدفع ، فعلا ، الى الامـام فى خـط مستقيم ، وكل تصور مادي صرف للتقدم انما يرجع بالانسان الى الوراء يجعلـه مجـرد أداة تحركهـا مقتضيات الانتاج والاستهلاك وتتلاعـب بها تيارات

الالحاد وفساد العقيدة والاباحية الخلقية ..

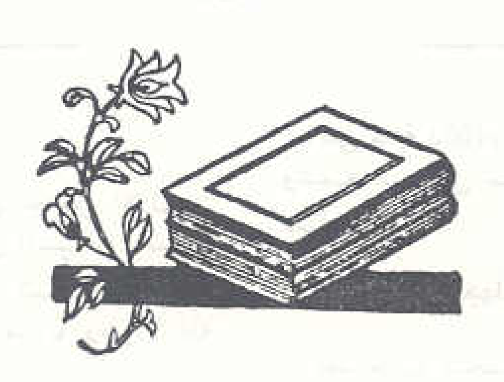
ان من واجبنا – ونحن امة كرمها الله بالاسلام – ان نعبىء انفسنا فى سبيل بلادنا واسعاد شعبنا .. والمقصود بهذا هو تعبئة الجهد البشري وتعبئة الاخلاق فى اتجاه التعاون والايثار والاستقامة فى التفكير والعمل .. ولا سبيل الى تنمية صالحة بغير هذه التعبئة التي هي من صميم تعاليم الاسلام ..

وليس كل ما يصلح للمجتمعات التي تأخذ بالنظام الراسمالي او بالاقتصاد الموجه يصلح لنا بالضرورة .. فاذا كان لنا ان نستفيد من تجارب غيرنا على الصعيد التقنولوجي والعلمي فان التوجيه يجب ان يكون نابعا من قيمنا ومن قدرات شعبنا وامكانيات بلادنا ..

وقد قرات فى الايام الاخيرة لاحد رجال الاقتصاد الغربيين بحثا تحدث فيه عن الصاعب التي تلاقيها الدول السائرة في طريق النمو فقال : « خير لهذه الدول ان تعول على الجهود الملائمة مع واقعها من ان تعتمد على تقليد وهمي لاقتصاد يقوم على نمو لا يشبع نهمه بشيء .. »

هذه افكار عامة احببت أن اعرضها عليكم مستشرفا بذلك آفاق المستقبل القريب فى هذا الوقت الذي تنصرف فيه الجهود الى اعداد مشروع مخطط التنمية للسنين الخمس التي تبدا عام 1978.

فاللهم وفق شعبنا لما فيه رضاك ، واسلك به طريق الخير والصلاح والازدهار ، واحفظ اللهم ملكنا الحسن الثاني ، وثبت خطاه ومتعه بكامل العافية ودوام السداد ، واعنه فى كل ما يقبل عليه من عمل صالح .. واكلا اللهم بعين رعايتك الاميرين الجليلين ولي العهد سيدي محمد ومولاي رشيد واحفظ فى كنفه جميع آل بيته الشريف .



أضواء على عظمة بطل الاستقلال

سيدي محمد الخامس

للدكتور عثمان عثمان إسماعيل

1 ـ بطاقة تعريف
2 ـ شخصيته وجهاده
3 ـ خطاب طنجة التاريخي : المغرب وطن العروبة والاسلام
4 ـ محادثات باريس .
5 ـ حماية الوطن والمواطنين فوق التاج
6 ـ عظمة السلطان في المنفى
7 ـ ملك الديموقراطية الشعبية
8 ـ اعداد ملك المستقبل

1) بطاقة تعريف :

هو سيدى محمد بن يوسف بن الحسن الاول بن عبد الرحمن الذى يرتقى نسبه الى السيد الحسن الداخل ثم الحسن المثنى فالحسن السبط ابن الامام علي وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله رضوان الله عليهم اجمعين.

بويع سيدى محمد الخامس سنة 1927م في التاسعة عشر من عمره دون ولاية سابقة للعهد. يقول مؤرخ المملكة السيد عبد الوهاب بن منصور (كتاب الحسن الثانى ص 18) : ولم يكن السلطان الجديد مرشحا في حياة ابيه السلطان مولاى يوسف .. لانه اصغر ابنائه ومحل اضطهاد حاجبه .. ولم تكن ولاية العهد منظمة في المغرب حتى ذلك التاريخ بقانون.

نفى سنة 1953م مع ولى عهده واسرته ثم عاد لوطنه وشعبه المستقل سنة 1955م والتحق بالرفيق الاعلى سنة 1961م.

2) شخصيته وجهاده :

لقد خيبت شخصية محمد الخامس السهلة الممتنعة آمال الاستعمار الفرنسي الذى اعتقد ان الإبن الثالث الذى لم يدربه والده على الحكم سوف يكون من السهل دفعه الى سياسة الاستسلام لخططه وتحقيق مآربه.

يقول مؤرخ المملكة في كتابه المذكور :

ومن المسلم به ان العظمة لا تدرك اعتباطا وبأقل معاناة لمجرد موافاة الظروف فهى ليست من نوع الفنى

الطارى، .. بل العظمة خصلة او مجموعة خصال تلقى بذرتها الطيبة باكرا فى تربة النفوس الطيبة فلا تزال تنمو بها وتترعرع حتى تستوى وتشتد لائحة بين الحين والحين تباشيرها متجلية بين الفينة والفينة مخايلها وكذلك كان سيدى محمد بن يوسف يتهيأ منذ نعومة اظافره لامر عظيم ويجتاز على صغر سنه بمراحل مجاهدة وبلاء ظهرت فيها كفايته لأداء رسالة سامية فهى من الرسلات الاسلامية الاصلاحية التى تدوم بدوام المصلحين.

ويقول الدكتور صلاح العقاد فى كتابه المغرب العربى :

لقد اقبل على الاطلاع وعلى دراسة الاوراق التى تقدم له ومنذ ظهور كتلة العمل وهو يحاول مقاومة الفرنسيين فى اتخاذه اداة للتنكيل بها ..

وبهذا خيب الفتى اليافع الملهم الموفق آمال الاستعمار فكان سهلا مع رعيته رحيما بها ملتحما بامته معتزا بها، ممتنعا على قوى البغى مستعصيا عليها.

بهذا نطق الوزير الشاعر الاديب محمد معمرى الزواوى فى ديوانه حسن الوفاء قائلا :

اسد بالنهار قوة بطش
وبليل كراهب الرهبان

كسيوف الجلال فى الحق لاتا
خذهم لومة الحسود الشانى

رحماء القلوب عند ابتئاس الـ
ـضعفا يسعفون دون امتنان

لقد كان ملتزما نهج اسلافه العلويين فى السياسة الخارجية بتجنيب البلاد اطماع الدول الاستعمارية كما يقول صلاح العقاد فى كتابه المذكور، كما كان يتفادى داخليا كل صدام مسلح بين القوى الغاشمة وجموع الشعب الاعزل حقنا لدماء شعبه وحرصا على سلامة امته فكان عند الضرورة يقدم نفسه واسرته فداء لرفع السيف عن رقاب المجاهدين.

ولهذا آثر النفى بولى عهده واسرته فى احداث 1953م وبادر المقيم العام الفرنسى الجنرال جيوم الى ابلاغ فرحه الى وزير خارجية فرنسا جورج بيدو والتعبير عن عملية خلع محمد الخامس بعبارته المشهورة (ان هذه العملية نصر للصليب على الهلال) .

لقد جن جنون الفرنسيين عندما انتهز محمد الخامس فرصة انعقاد مؤتمر الدار البيضاء فى يناير 1943م بين زعماء الحلفاء، روزفليت وتشرشل وايزنهاور وديجول، اذ انفرد جلالته ومعه ولى عهده بالرئيس روزفليت وعرض عليه مطالب المغرب العادلة فى الحرية والاستقلال وحصل منه على وعد بالتاييد الذى نطق به روزفليت (بلا ريب اننى اعدك بذلك) .

وقد اجمل المرحوم علال الفاسى بكتابه الحركات الاستقلالية كفاح محمد الخامس فى تدعيم العمل الوطنى بقوله (لقد لمست فى شخصية سيدى محمد بن يوسف الملك العظيم الذى ظهرت آثار عظمته فى الكفاح المستميت الذى لم يزل حفظه الله يواليه مصلحة الامة واستقلال البلاد برباطة جاش وثبات قلب واطمئنان نفس) .

3) خطاب طنجة التاريخى : المغرب وطن العروبة والاسلام .

ادرك محمد الخامس بغريزته الموروثة صدق الاستعمار الحقيقى فى استنزاف الثروة الوطنية ثم اضعاف الشخصية المغربية تمهيدا لتحويلها وصبغها صبغة فرنسية.

يقول مارتى : « ما جئنا هذه البلاد ، افريقيا الشمالية حبا لاهلها بل لنجعل من تربتها أرضا صالحة لابناء فرنسا ونعيدها الى الحظيرة اللاتينية كما كانت قبل الغزو الاسلامى .

ولهذا كله فطن محمد الخامس فبادر باتصالاته السرية مع الجامعة العربية ثم برر ودعم تدخل الجامعة العربية فى المشكلة المغربية ثم اعلن انضمام المغرب للجامعة العربية بعد الاستقلال رجوعا بالمغرب الى شخصيته الاصيلة ومكانته البارزة فى عالم العروبة والاسلام.

ويقودنا ذلك الى استرجاع احداث زيارة جلالته لطنجة وخطابه التاريخى فى ابريل 1947م. فقد كان منذ سنة 1946م يسعى لزيارة هذا الجزء من المملكة ليعلن للعالم من المدينة الدولية عن مخططاته الوطنية. يقول الدكتور العقاد فى كتابه المغرب العربى :

«ويعد ذلك بداية الصراع الذى استمر بين الاقامة والقصر وانتهى بعزل السلطان سنة 1953م .. ومن ثم يعزى اليها ـ يعنى فرنسا ـ تدبير مذبحة الدار البيضاء التى كانت الحلقة الاولى فى سلسلة المذابح .. ليلة سفر السلطان .. فانه لم يثن السلطان عن انفاذ رحلته وبدل ان يشيد بدور فرنسا فى نشر الحضارة بمراكش ضمن خطابه الفقرة التالية : لا شك ان مراكش وهى بلد يربطه بالبلاد العربية الاخرى فى الشرق الاوسط واثق الوشائج ترغب رغبة اكيدة فى تعزيز هذه الروابط، وخاصة بعد ان اصبحت الجامعة العربية عاملا هاما فى الشؤون العالمية. وتأكيد صفة مراكش العربية ليس بظاهرة جديدة فى تفكير السلطان الذى اتفق فى هذا الامر مع حزب الاستقلال. انما مغزى هذه الاشارة هو معارضة فكرة الفرنسيين من انهم ناشرو الحضارة فى مراكش، باظهار حضارة وطنية عريقة متمثلة فى التراث العربى. والدليل على ذلك هو ان جوان الذى ارسل الى مراكش كرد فعل على هذا الخطاب اهتم بمناقشة وجهة مراكش الحضارية .. وحرص على قطع جميع العلاقات بينها وبين بقية العالم العربى ..)

4) محادثات باريس :

عندما رفض محمد الخامس التفاصيل التى وضعتها الاقامة الفرنسية لعمليات الانتخابات البلدية والتى تنص على ان يكون نصف الاعضاء منتخبين من الفرنسيين، ثم رفضه اقتراح الاقامة الفرنسية بانشاء دائرة انتخابية للفرنسيين فى مراكش وتهديده برفع الامر الى مجلس الامن الدولى، تراجعت فرنسا واستدعته الى باريس لتوهم الرأى العالمى باستقرار العلاقات الفرنسية المغربية.

وازاء تصلب الملك فى موقفه الرسمى وتمسكه بطلب الاستقلال لبلاده وتقديم مذكرة لتغيير نظام الحماية، فشلت تلك المحادثات وعاد الملك وولى عهده.

يقول مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فى خبر تلك المحادثات :

(فى يوم الابعاء 1 نوفمبر استدعى السلطان ولى عهده ووزراءه واعضاء ديوانه الى القصر الذى يقيم فيه وقضوا اليوم كله فى دراسة الرد الفرنسى .. فتبين لهم ان الحكومة الفرنسية واقعة تحت تاثير اقامتها العامة ومستوطنيها وان الاشياء التى صرحت بقبولها لا ترضى شعب المغرب وملكه، واتفق الجميع مع السلطان على كتابة رسالة ثانية ترفض كالاولى كل اصلاح فى نطاق نظام الحماية، وتطالب بالغاء ذلك النظام من اساسه واقامة صرح الحكم فى المغرب على اسس جديدة تضمن له حريته وتتيح لحكومته الحرة ان تدخل فى الاصلاحات ما تراه مفيدا لشعبه وملبيا لطموحه .. وتشر الديوان الملكى بلاغا ثانيا كشف النقاب بين وجهة نظر المغرب ووجهة نظر فرنسا . »

5) حماية الوطن والمواطنين فوق التاج :

يقول الدكتور العقاد فى كتابه المغرب العربى :

«عندما عاد السلطان من رحلته فى باريس 1950م وعرف المقيم العام انه قدم مذكرة تتضمن فكرة تغيير على تهامى الجلاوى صاحب النفوذ فى الجنوب .. الذى الحماية حاك جوان المؤامرة التى اوشكت على خلع السلطان سنة 1951م واعتمد كما سيفعل بعد عامين اخذ يجمع القبائل الموالية له وبدأ فى الزحف نحو الرباط .. واسرعت القوات الفرنسية فى الاحاطة بالقصر .. لاجبار السلطان على الخضوع لاوامر المقيم العام، ويروى احد الكتاب الامريكيين .. الحوار الذى دار بين السلطان وجوان .. ، بدأ جوان يطلب اصدار بيان يستنكر فيه السلطان اعمال حزب الاستقلال ويصف رجاله بمخالفة الدين، فأجاب السلطان بانه لا يمكن ان يعلن استنكاره لاى حزب لانه بصفته ملكا فهو فوق كل الاحزاب، لكن الجنرال جوان وجه للسلطان هذا الانذار : ان رد عظمتكم غير مقبول وامامكم اما ان تدينوا حزب الاستقلال او تتنازلوا عن العرش والا فسوف اعزلكم بنفسى ..

6) عظمة السلطان فى المنفى :

لم يكن واردا فى حسابات الطغاة عندما اقدموا على الاعتداء على العرش ان الملك المخلوع قبل ان يصل الى المنفى، كان قد منح للحركة الوطنية بالمغرب شهيدا فدائيا من طراز فريد كرمز لبعث الحركة الوطنية فى اطارها المسلح. بل ان النسر الحبيس مع ولى عهده وافراخه الصغار سوف يظل مصدر خطورة وقلق دائمين لقوى الاستعمار الخارجية وعناصر التحالف الخائنة بالداخل.

فمنذ ان وصلت الاسرة الشريفة الى جزيرة كورسيكا اشتعل الوعي المغربي لاسترجاع كرامة الملك والشعب واستشهد البطل المرحوم علال بن عبد الله اثناء هجومه على السلطان المزيف محمد بن عرفه اثناء موكب صلاة الجمعة 11 سبتمبر 1953م ، وتكونت منظمات المقاومة السرية وبدا تأسيس جيش التحرير ومقاطعة البضائع الفرنسية.

وبهذا واجهت فرنسا عديدا من المشاكل والمتاعب على الصعيد الفرنسي الداخلي وعلى المستوى العالمي، فقد نشطت حركة مكتب المغرب العربي بالقاهرة ونيويورك ودول الجامعة العربية وتصدعت الحكومة الفرنسية ذاتها باستقالة عدد من وزرائها احتجاجا على سياسة الحكومة الفاشلة.

لقد تجلت اذن عظمة الملك الحبيس في المنفى وتفاقمت خطورته مما اضطر فرنسا الى ابعاده الى جزيرة مدغشقر تمهيدا لنقله الى جزيرة تاهيتي وسط المحيط الهادى لاسباب بالغة العظمة يفسرها مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور في كتابه الحسن الثاني ثم يجملها في عبارة بليغة :

وقد عللت الحكومة الفرنسية هذا الابعاد الجديد بما يسببه وجود السلطان وولي عهده على ضفاف البحر المتوسط من تقوية الهيجان السياسي ..

وتتجلى عبقرية محمد الخامس السياسية في مواقفه المتتابعة. فعندما اضطرت فرنسا الى ارسال الجنرال كاترو لمفاوضة الملك في منفاه اظهر الملك صبرا وحنكة وبراعة سياسية لا تفسر بغير التوفيق والالهام. يقول مؤرخ المملكة في كتابه المذكور :

جرت بينه ـ كاترو ـ وبين السلطان محادثات استمرت خمسة ايام شارك فيها الامير مولاى الحسن مشاركة مجدية وتدخل تدخلات مفيدة، اخبرني جلالته ـ سموه يومئذ ـ انه رأى من صبر والده وجلده وتمسكه بحقوق شعبه خلال تلك الايام ما قضى منه العجب حتى انه بقى اربعة ايام يشرح له مدلول كلمة التبعية المشتركة التى ربط بها الفرنسيون اعترافهم باستقلال المغرب .. الى ان انتهى الامر الى .. النقط المتفق عليها وكانت هذه النقط تعنى في عمقها فسح المجال امام سيدى محمد بن يوسف للرجوع الى فرنسا ثم الى عرشه والسير بالمغرب نحو نظام دولة عصرية متمتعة بكامل حريتها واستقلالها.

وجاء المقيم العام الفرنسي دى لاتور ليلقى بدلوه في بحار الاسرار العلوية الشريفة لقوة وشخصية محمد الخامس، وها هو يحدثنا في كتابه حقائق حول افريقيا (نشر باريس 1957م ابتداء من صفحة 139) :

(.. وقد عرض علينا بلقرشي ـ احد اعوان الاستعمار بالدار البيضاء ـ عرضين، فاما ان استعمل القوة لاخضاع الاستقلاليين وهم عامة الشعب، او ان يرحل الاستعمار من المغرب حاملا معه اعوانه. لقد اكد لي بلقرشي انه لا يحب ابن يوسف بسبب التفاف الشعب حوله واحداث القلاقل .. ويضيف دى لاتور في كتابه المذكور انه اجتمع مع اعوانه واستخلص على ضوء دراسة الموقف ان المغاربة الاستقلاليين كانوا متأكدين من كسب المعركة .. ولا يهابون طلقات مدافعنا .. في حين ان بعض وزرائنا لم يبق لديهم سوى فكرة واحدة وهي ترحيل ابن عرفه ..)

وبالفعل، فقد طلع الجلاوى بتصريح مفاجىء في اكتوبر 1955م بانه يشارك الامة في المطالبة بعودة محمد الخامس الى العرش. ويقول دى لا تور :

(لقد دهشت باريس هذه المرة والغيت وزارة الشؤون المغربية والتونسية والحقت بالخارجية .. وقد علمت .. بان الجلاوى انقلب وكذلك هيئة الوجود الفرنسي والصحافة الفرنسية .. ، هؤلاء الذين كانوا لا يتنازلون .. لم يبق اذن سوى حل وحيد وهو اعادة محمد الخامس الى عرشه) .

هذا هو سر عظمة محمد الخامس في المنفى عندما كان اسيرا اعزل من كل سلاح الا سلاح الايمان بربه ووطنه وشعبه.

7) ملك الديموقراطية الشعبية :

لقد استحق محمد الخامس ان يحمل في التاريخ لقب ملك احياء التصدير الذى كان يحلو للمستعمرين ومن سار في ركابهم ان ينعتوه به .

ويكفي محمد الخامس فخرا اعتناقه لنظام الديموقراطية الشعبية وايمانه منذ ايام الحماية بفكرة الملكية الدستورية وطرح مفاهيم العصور الوسطى المطلقة.

فمنذ نداء (سان جرمان ان لى) فى السابع من نوفمبر 1955م وهو يتاهب للعودة الى ارض الوطن بعد انجلاء ليل المنفى يخاطب شعبه ويقول : ولنا فى تاييدك والتفافك حولنا وفى الوعى القومى الذى عم سائر طبقات الشعب اعظم مشجع لمتابعة المهمة المقدسة الملقاة على عاتقنا .. ونقرأ فى خطاب الرباط 1955م (انبعاث امة ج 1 التى يعدها ويقدمها مؤرخ المملكة) : .. ونؤكد لكم من جانبنا اننا نريد ان نكون ملكا دستوريا لدولة عصرية ديموقراطية مستقلة .. ويصرح فى 18 نوفمبر من نفس العام : فهذا اوان تضافر الجهود لبناء صرح الوطن الجديد .. عهد يتطلب التجديد فى العوائد والمؤسسات والحكم واساليبه كما يتطلب تحرير الفرد ليتمكن من التعبير عن آرائه آمنا مطمئنا .

وهكذا اقدم بمجرد عودته على اطلاق المسجونين السياسيين واستقدام المجاهدين من المنافى واطلاق عنان الحريات والاتصال المباشر مع مختلف طبقات الشعب ورجال الاحزاب وقادة الامة للتعرف على مواطن الداء فى الميراث الذى خربه الاستعمار ونخرت قواعده الحماية الاجنبية.

8) اعداد ملك المستقبل :

لم يكن تحرير البلاد وترميم وحدتها وتاسيس الجيش وتعريب الثقافة ومغربة الادارة وتحرير الاقتصاد وغيرها من المنجزات كل ما قدمه محمد الخامس لامته وشعبه.

لقد وضع البذرة المباركة للحياة الكريمة واراد لها النمو والاستمرار وضمان حيويتها ودوام ازدهارها على النحو الذى نهجه اسلافه العظام بتربية ولى العهد واعداد ملك المستقبل جلالة الحسن الثانى الذي امن الاستقلال فضمن بقاء الدولة واقام لها هيكلها فطورها وحضرها وزودها بالجامعات والمعاهد العلمية والمؤسسات التقنية العصرية واسس اعظم مجموعة من السدود وحفظ العلوم والفنون والمعارف بتشييد صرح الاثر الفنى النموذجى لعمارة وفنون الاسلام بالمغرب فى ضريح المغفور له محمد الخامس ثم خطط للمسيرة الخضراء معجزة العصر، وجمع كلمة الاسلام لاول مرة فى تاريخ الامة الاسلامية بعاصمة ملكه فى مؤتمر العالم الاسلامى واعاد للمغرب مكانته التاريخية العربية والافريقية وغير موازين السياسة والحرب بافريقيا وآسيا. وبهذا يستحق عن جدارة لقب ملك السدود ولقب ملك المسيرة الخضراء وما يستجد من القاب يفرضها تفجر امكانياته الفذة .

لقد صدقت رؤية مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور عندما قال ان اعظم عمل قدمه محمد الخامس لشعبه هو جلالة الحسن الثانى.

وتذكرنا وصايا وتوجيهات المولى اسماعيل بن الشريف الى ولده الامير مولاى المامون، بالنهج الذى اتبعه سيدى محمد الخامس فى تربية شعبه وولى عهده.

وسوف تتضح لنا من خطابه فى ذكرى ميلاد ولى عهده فى يوليوز 1956م فلسفة الملك العظيم ونوعية تفكيره فى الجهاد وتعريب الثقافة واحياء الشخصية المغربية وبعث الروح الشعبية وتربية ولى العهد فى نطاق تلك المعالم الوطنية المغربية الاسلامية، ولنطلع الان اشبابنا على نبذ من ذلك الخطاب (المنشور فى انبعاث امة ج 1 صفحة 171 ـ 178) التاريخى :

(.. يابنى .. لقد عاهد الله والدك ان يحارب فى واجهتين، فكان يكافح لاسترجاع حرية البلاد ويعمل فى آن واحد لتربية ابنائه وبناته وفى مقدمتهم انت يابنى لتكون نموذجا للجهاد ..

.. يابنى لقد قدمتك للمعلم ليلقنك آيات القرآن وليغرس فى قلبك الطاهر الفتى حب الدين وعزة العروبة والاسلام، ولما ترعرعت يابنى اخترت بقاءك تحت سماء المغرب ليتم تكوينك الثقافى فى بيئة مغربية فبنيت لك مدرسة خارج القصر ليتربى فيك الاعتماد على النفس فحرمتك من مجاملة الخادمات وحنان المربيات حتى تزدهر شخصيتك وتصبح

عصاميا بارزا قبل ان تكون اميرا، ثم احطتك برفاق من مختلف طبقات الشعب لانني كنت اريد ان اعدك اعدادا منتزعا من بيئة بلادك..

يابني، لقد كنت صارما مع الاساتذة وكنت الح عليهم ان يعودوك الطاعة والامتثال والا يتساهلوا معك والا يحترموا الا القيم الانسانية المجردة ..

يابني، لقد كنت مدققا وملحا في ان يسود النظام حياتك كما كنت حريصا على ان انسيك جو الملك والامارة .. وكانت غايتي يابني ان اجعل منك ومن رفاقك نموذجا لما ينبغي ان يكون عليه الشباب المغربي .. وان امكنك من فضيلة القديم والحديث .. ولقد درست لغتك العربية ودينك الاسلامي وكرعت من معين المعرفة والعلوم القديمة والحديثة حتى ارتويت لتعود قادرا على معرفة ما يجرى حولك في العالم وتصبح رجل القرن العشرين الواعي العارف المطلع .. وكنت احرص على التنافس في ثقافتك لانى اعلم ان مشكلة العصر هي التشبث بالقديم وحده او الافتتان بالجديد وحده ..

يابني .. لقد كنت ادربك على تعاليم الاسلام واحترام اوامره واقامة شعائره .. وكيف يجب ان تعامل اباك واخوتك وشعبك والناس اجمعين ..

يابني ان والدك يؤمن بان قيادة الامم وتسيير الدول فن قائم بذاته فلا يكفي فيه التعليم والتربية وحدها بل بد من تكوين عملي يومي .. فاعددتك مواطنا مغربيا قبل اعدادك اميرا .. وكنت القنك معنى المواطنة حتى تؤدى ولاية العهد التى انطناها بك واحرص على ان تؤمن بالواجب الوطني والصالح العام وكنت ادفعك لتتعمق في قيم معنى الشعب لتخدمه الخدمة الصادقة.

يابني .. لقد شاءت عناية الله ان تنجح .. حتى اذا اصبحت رجلا وجدت فيك خلال الازمات التى مرت علينا المشجع والمعين والانيس الامين .. فعندما تدلهم الامور وتشتد الازمات وقد احاط بي المغرضون .. اخلو اليك في القصر فاجد في حديثك ايمان الشباب وامل الشباب .. وفي المنفى يابني بفضل تربيتك الصالحة لم نكن نشعر بالابعاد والاقصاء من الاوطان وانما كنا نعد انفسنا في خلوة نعد فيها برامج مغرب الغد ..

والان وقد عدنا يابني اشهد لك امام شعبك بانك جابهت المحنة انت والاسرة كلها بايمان الواثقين بمستقبل بلادهم، والمكافحين المستميتين في سبيل وطنهم وان من اغلى امنياتي ان تنشر يوميات المنفى في يوم من الايام ليرى الشعب كيف ان التكوين الصحيح يتغلب على كل الصعاب ويقبر الازمات.

يابني لست انسى عطفك وبرك واحساسات الابن البار يوم حلقت بنا الطائرة الى المنفى ولم يبق هناك ملك ولا امير .. كنت اشعر يابني انك تريد ان تتقمص الالم وحدك ..

يابني، قل للشباب ان الجيل الحاضر كافح في سبيل الاستقلال، وعليهم ان يتابعوا الكفاح بتثبيت هذا الاستقلال ولازدهار البلاد ورفاهيتها وتقدمها في عهد الاستقلال ..)

* * *

هذا هو محمد الخامس جازاه الله عن المغرب والعروبة والاسلام خير الجزاء، وانزله منازل الصالحين والشهداء، مع اصحاب الميمنة وابطال الاسلام السابقين المقربين في جنات النعيم جزاء بما كانوا يعملون .

مدخل إلى الظاهرة القرآنية

- 2 -

للأستاذ محمود شاكر

هذا بعض ما أدى اليه النظر المجرد في استخراج المعنى الذي هو مناط التحدي ، ومفصل الاعجاز ، وارجو أن اكون قد بلغت في كشفه مقنعا ورضى . ولكن بقي ما لا بد منه : ان نستنبط بهذا الاسلوب من النظر المجرد . صفة القوم الذين تحداهم ، وصفة لغتهم .

فاذا صح أن « الاعجاز » كائن في وصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربي مبين ، وأن خصائصه مباينة للمعهود من خصائص كل نظم وبيان تطيقه قوى البشر في بيانهم ، لم يكن لتحديهم به معنى الا أن تجتمع لهم وللغتهم صفات بعينها :

أولها : ان اللغة التي نزل بها القرآن معجزا ، قادرة بطبيعتها هي ، ان تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين : كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى ، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه .

ثانيها : ان اهلها قادرون على ادراك هذا الحجاز الفاصل بين الكلامين . وهذا ادراك دال على انهم قد اوتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه ، قدرا وافرا يصح معه ان يتحداهم بهذا القرآن ، وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه ، أن تاليه عليهم نبي من عند الله مرسل .

ثالثا : ان البيان كان في انفسهم اجل من ان يخونوا الامانة فيه ، او يجوروا عن الانصاف في الحكم عليه . فقد قرعهم وعيرهم وسفه احلامهم واديانهم ، حتى استخرج اقصى الضراوة في عداوتهم له . وظل مع ذلك يتحداهم ، فنهتهم امانتهم على البيان عن معارضته ومناقضته وكان ابلغ ما قالوه : « وقد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » ، ولكنهم كفوا ألسنتهم فلم يقولوا شيئا .. هذه واحدة . واخرى : انه لم ينصب لهم حكما ، بل خلى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له ثقة بانصافهم في الحكم على البيان ، فهذه التخلية مرتبة من الانصاف لا تدانيها مرتبة .

رابعها : ان الذين اقتدروا على مثل هذه اللغة، واتوا هذا القدر من تذوق البيان ، ومن العلم بأسراره، ومن الامانة عليه . ومن ترك الجو في الحكم عليه ، يوجب العقل أن يكونوا كانوا قد بلغوا في الاعراب عن انفسهم ، بألسنتهم المبينة عنهم ، مبلغا لا يداني .

وهذه الصفات تقضي بنا الى التماس ما ينبغي أن تكون عليه صفة كلامهم ، ان كان بقي من كلامهم شيء ، فالنظر المجرد ايضا ، يوجب أمرين في نعت ما خلفوه :

الاول : ان يكون ما بقي من كلامهم ، شاهدا على بلوغ لغتهم غاية من التمام والكمال والاستواء ، حتى لا تعجزها الابانة عن شيء مما يعتلج في صدر كل مبين منهم .

الثاني : ان تجتمع فيه ضروب مختلفة من البيان ، لا يجزىء ان تكون دالة على سعة لغتهم وتمامها ، بل على سجاحتها ايضا ، حتى تلين لكل بيان تطيقه السنة البشر على اختلاف السنتهم .

فهل بقي من كلامهم شيء يستحق ان يكون شاهدا على هذا ودليلا . . . .

نعم ، بقي « الشعر الجاهلي » !

واذن ؟ ! . اذن ينبغي أن نعيد تصور المشكلة وتصويرها . فان النظر المجرد ، والمنطق المتساوق ، والتمحيص المتتابع كل ذلك قد افضى بنا الى تجريد معنى « اعجاز القرآن » مما شابه وعلق به . حتى خلص لنا انه من قبل النظم والبيان ، ثم ساقنا الاستدلال الى تحديد صفة القوم الذين تحداهم ، وصفة لغتهم ، ثم خرج بنا الى طلب نعت كلامهم ، ثم التمسنا الشاهد والدليل على الذي ادانا اليه النظر ، فاذا هو . . « الشعر الجاهلي » .

واذن ، فالشعر الجاهلي ، هو اساس مشكلة « اعجاز القرآن » كما ينبغي أن يواجهها العقل الحديث وليس اساس هذه المشكلة هو تفسير القرآن على المنهج القديم ، كما ظن اخي مالك ، وكما يذهب اليه اكثر من بحث امر اعجاز القرآن على وجه من الوجوه .

ولكن الشعر الجاهلي ، قد صب عليه بلاء كثير ، آخرها وابلغها فسادا وافسادا ، ذلك المنهج الذي ابتدعه مرجليوث لينسف الثقة به ، فيزعم أنه شعر مشكوك في روايته ، وانه موضوع بعد الاسلام ، وهذا المكر الخفي الذي مكره مرجليوث وشيعته وكهنته والذي ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما ارتكبوا كما شهد بذلك رجل من جنسه هو آر بري ، كان يطوي تحت أدلته ومناهجه وحججه ، ادراكا لمنزلة الشعر الجاهلي في شان اعجاز القرآن ، لا ادراكا صحيحا مستبينا ، بل ادراكا خفيا مبهما ، تخالطه ضغينة مستكينة للعرب وللاسلام .

وهذا المستشرق وشيعته وكهنته ، كانوا اهون شانا من ان يجوزوا كبيرا بمنهجهم الذي سلكوه ، وأدلتهم التي احتطبوها لما في تشكيكهم من الزيف والخداع ، ولكنهم بلغوا ما بلغوا من استفاضة مكرهم وتغلغله في جامعاتنا ، وفي العقل الحديث في العالم الاسلامي ، بوسائل اعانت على نفاذهم ، ليست من العلم ولا من النظر الصحيح في شيء ، وقد استطاع رجال من اهل العلم ، أن يسلكوا الى اثبات صحة الشعر الجاهلي مناهج لا شك في صدقها وسلامتها ، بلا غش في الاستدلال وبلا خداع في التطبيق . وبلا مراء في الذي يسلم به صريح العقل وصريح النقل ، الا انهم لم يملكوا بعد من الوسائل ما يتيح لهم ان يبلغوا بحقهم ما بلغ أولئك بباطلهم .

وقد ابتليت أنا بمحنة « الشعر الجاهلي » . عندما ذر قرن الفتنة ايام كنت طالبا في الجامعة . ودارت بي الايام حتى انتهيت الى ضرب آخر من الاستدلال على صحة « الشعر الجاهلي » . لا عن طريق روايته وحسب . بل من طريق أخرى هي الصق بامر « اعجاز القرآن » . فاني محصت ما محصت من الشعر الجاهلي ، حتى وجدته يحمل هو نفسه في نفسه أدلة صحته وثبوته . اذ تبينت فيه قدرة خارقة على « البيان » . وتكشف لي عن روائع كثيرة لا تحد ، واذا هو علم فريد منصوب لا في أدب العربية وحدها ، بل في آداب الامم قبل الاسلام وبعد الاسلام . وهذا الانفراد المطلق ، ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم ، هو وحده دليل كاف على صحته وثبوته .

ولقد شغلني « اعجاز القرآن » كما شغل العقل الحديث ، ولكن شغلني ايضا هذا « الشعر الجاهلي » ، وشغلني أصحابه فادى بي طول الاختبار والامتحان والمدرسة الى هذا المذهب الذي ذهبت اليه ، حتى صار عندي دليلا كافيا على صحته وثبوته . فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت في الثرى اعيانهم ، رايتهم في هذا الشعر احيانا يغدون ويروحون ، رايت شابهم ينزو به جهله ، وشيخهم تدلف به حكمته ، ورايت راضيهم يستنير وجهه حتى يشرق ، وغاضبهم تربد سحنته حتى تظلم ، ورايت الرجل وصديقه ، والرجل وصاحبته ، والرجل الطريد ليس معه احد ، ورايت الفارس على جواده ، والعادي على رجليه ، ورايت الجماعات في مبداهم ومحضرهم ، فسمعت غزل عشاقهم ، ودلال فتياتهم ، ولاحت لي نيرانهم وهم يصطلون ، وسمعت أنين باكيهم وهم للفراق مزمعون ، كل ذلك رايته وسمعته من خلال الفاظ هذا الشعر ، حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس ، وابحة المستكين ، وزفرة الواجد ، وصرخة الفزع ، وحتى مثلوا بشعرهم نصب عيني ، كأني لم أفقدهم طرفة عين ، ولم افقد منازلهم ومعاهدهم ، ولم تغب عني مذاهبهم في الارض ، ولا مما أحسوا ووجدوا . ولا مما سمعوا وادركوا ، ولا مما قاسوا وعانوا ، ولا حفي عني شيء مما يكون به الحي حيا في هذه الارض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم « جزيرة العرب »

وهذا الذي افضيت اليه من صفة الشعر الجاهلي كما عرفته ، أمر ممكن لمن اتخذ لهذه المعرفة اسبابها ، بلا خلط ولا لبس ولا تهاون ولا ملل . وهذه المعرفة هي أول الطريق الى دراسة شعر اهل الجاهلية ، من الوجه الذي يتيح لنا أن نستخلص منه دلالته على أنه شعر قد انفرد بخصائصه عن كل شعر جاء بعده من شعر أهل الاسلام . فاذا صح ذلك ، وهو عندي صحيح لا اشك فيه ، وجب أن ندرس هذا الشعر دراسة متعمقة ، ملتمسين فيه هذه القدرة البيانية التي يمتاز بها اهل الجاهلية عمن جاء بعدهم ، ومستنبطين من ضروب البيان المختلفة التي اطاقتها قوى لغتهم والسنتهم . فاذا تم لنا ذلك ، فمن الممكن القريب يومئذ أن نتلمس في القرآن الذي اعجزهم بيانه ، خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر .

وها هنا امر له خطر عظيم ، فلا تظنن ان الشأن في دراسة « الشعر الجاهلي » ، هو شأن المعاني التي تناولها ، والاغراض التي قيل فيها ، والصور التي انطوى عليها ، واللغة التي استخدمها من حيث الفصاحة والعذوبة وما يجري مجراهما ؛ بل الشأن في ذلك ابعد واعمق واعوص ، انه تمييز القدرة على البيان ، وتجريد ضروب هذا « البيان » على اختلافها ، واستخلاص الخصائص التي اتاحت للغتهم ان تكون معدنا للسمو ، بالابانة عن جوهر احساسهم ، سموا يجعل للكلام حياة كنفخ الروح في الجسد القائم ، وكقوة الابصار في العين الجامدة ، وكسجية النطق في البضعة المتجلجلة المسماة باللسان .

فاذا اتخذنا لهذه الدراسة اهبتها ، واعددنا لها من الصبر والجد والحذر ما ينبغي لها ، واللسان لساننا ، والقوم أسلافنا ، والسلائق مغروزة في اعماق طباعنا ، ثم اصلنا للدراسة مناهج تعين عليها ، واستحدثنا لها أسلوبا يلائمها ، فعندئذ يدنو الذي نراه بعيدا ، ويتجلى لنا ما كان غامضا ، ويكشف لنا « الشعر الجاهلي » عن أروع روائعه ، ويبذل لنا ما استكن فيه واستتر من أصول « البيان » الانساني ، بغير تخصيص للغة العرب ، فنراها ماثلة على ادق وجوهه واغمضها ؛ وفي اتم صورة واكملها .

وهذا الذي افضت فيه من ذكر الشعر الجاهلي ، وما وجدته فيه في نفسي باب عظيم ، اسأل الله أن يعينني بحوله وقوته ، حتى أكشف عنه وأجليه ، وحتى أؤيده بكل برهان قاطع على تميزه عن كل شعر العرب بعده ، وبذلك يكون نفسه دليلا حاسما على صحة روايته ، وعلى أن الرواة لم ينحلوه الشعراء افتراء عليهم .

وغير خاف أن الذي وصلنا الى هذا اليوم من شعر الجاهلية ، قليل مما روته الرواة منه ، والرواة القدماء انفسهم لم يصلهم من شعرها الا الذي قال ابو عمرو بن العلاء ، في أوائل القرن الثاني من الهجرة : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » . ومع ذلك ، فهذا القليل مجزىء ان شاء الله في الدلالة على ما نريد من الابانة عن تميز شعرهم عن شعر من جاء بعدهم ، وفيه جم واف من خصائص البيان التي امتاز بها أهل الجاهلية .

ولكن كيف بقي هذا الشعر الى يومنا هذا ؟ .. بقي مادة للغة العرب ، وشاهدا على حرف من العربية ، وعلى باب من النحو ، وعلى نكتة في البلاغة . وبقي ذخرا للرواة ، وركازا يستمد منه شعراء الاسلام ، ومنبعا لتاريخ العرب في الجاهلية ، بل بقي كنزا لعلوم العرب جميعا ، لكل علم منه نصيب على قدره . ولكن غاب عنا أعظم ما بقي له هذا الشعر : أن يكون مادة لدراسة البيان المفطور في طبائع البشر ، مقارنا بهذا « البيان » الذي فات طاقة بلغاء الجاهلية ، وكانت له خصائص ظاهرة ، تجعل كل مقتدر بليغ مبين ، وكل متذوق للبلاغة والبيان ، لا يملك الا الاقرار له ، بأنه من غير جنس ما يعهده سمعه وذوقه ، وأن مبلغه الى الناس نبي مرسل ، وانه لا يطيق ان يختلقه او يفتريه لانه بشر لا يدخل في طوقه الا ما يدخل مثله في طوق البشر ، وانه ان تقول غير ما أمر بتبليغه وتلاوته ، بأن للبشر كذبه ، وحق عليه قول منزله من السماء سبحانه : « ولو تقول علينا بعض الاقاويل . لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من احد عنه حاجزين » .

(سورة الحاقة ـ 44 ـ 47

ولسائل أن يسأل : فحدثني اذن ، لم بقي شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها ؟ وكيف غاب هذا الذي زعمت عن أئمة العلم من قبلك ؟ وكيف اخطأه علماء البلاغة ، وهم الذين قصدوا بعلمهم قصد الابانة عن اعجاز القرآن ، وهم أقرب بالتنزيل عهدا منا ومنك . ؟ وما الذي صد العقول البليغة عن سلوك هذا المنهج ، وما نهضت الا للمراماة دون اعجاز القرآن . في القديم والحديث . ؟

وحق علي أن أجيب ، ولكن يقتضيني جواب هذه المسالة أن اقتص قصة أخرى ، لا استوعب القول فى حكايتها تفصيلا ، بل أوجز المقال فيها ايجازا مدفوعا عنه الخلل ما اطقت ، وعلى سامعها أن يدفع عن نفسه الغفلة ما اطاق ؟ ؟

فاهل الجاهلية هم من وصفت لك منزلتهم من البيان ، وقدرتهم على تصريفه بالسنتهم ، وتمكنهم من تذوقه بأدق حاسة فى قلوبهم ونفوسهم ، وعلمهم باسراره ، وتغلغلهم فى ادراك الحجاز الفاصل بين ما هو من نحو بيان البشر ، وما ليس من بيانهم ، أهل الجاهلية هؤلاء ، هم الذين جاءهم كتاب من السماء بلسانهم ؛ هو فى آيات الله بمنزلة عصا موسى ، وابراء الاكمه والابرص فى آيات انبيائه ، لتكون تلاوته على أسماعهم برهانا قاهرا يلزمهم بالاقرار له بصحة تنزيله من السماء على قلب رجل منهم ، وأن هذا الرجل نبي مرسل ، عليهم أن يتبعوه وأن يستجيبوا لما دعاهم اليه ، فلما كذبوه وانكروا نبوته ، تحداهم ان يأتوا بمثل هذا الذي يسمعون فى نظمه وبيانه ، والح عليهم يتحداهم فى آيات منه كثيرة ، ولكنهم وجدوا فى انفسهم مفارقته لبيان البشر ، وجدانا الجاهم الى ترك المعارضة انصافا للبيان أن يجار على حقه ، وتنزيها له أن يزري به جورهم عن هذا الحق.

وعلى الذي تلقوه به من اللدد فى الخصومة والعناد لم يلبث أن استجاب له النفر بعد النفر اقرارا وتسليما بأن الكتاب كلام الله ، وأن الرجل نبي الله ، ثم تتابع ايمان المؤمنين منهم ، حتى لم تبق دار من دور أهل الجاهلية الا دخلها الاسلام أو عمها ، والقوا اليه المقادة على انه لا يتم ايمان احدهم حتى يكون هذا الرجل ، بأبي هو وامي ؛ أحب اليه من أهله وولده . وهذه أعمالهم تصدق ذلك كله .

فاقبل كل بليغ منهم مبين ، وكل متذوق للبيان ناقد يتحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتعبد به ، ويتتبع تنزيله تتبع الحريص المتلهف ، ويصيخ له وينصت حتى يتلى فى الصلوات وعلى المنابر يوما بعد يوم ؛ وشهرا بعد شهر ؛ وعاما بعد عام ، وكلهم مخبت خاشع لذكر الله وما نزل من الحق ، يصدق اخباتهم وخشوعهم ما قال الله سبحانه : « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » . (سورة الزمر 23)

ثم صار للقرآن فى جزيرة العرب دوي كدوي النحل ، وخشعت اسماع للجاهلية كانت بالامس ، للذي يتلي عليهم من كلام الله الذي خلقهم ، وجعل لهم السمع والابصار والافئدة ، واخبتت السنة للجاهلية كانت بالامس ، اقرارا لهذا القرآن بالعبودية، كما آقروا هم للذي اصطفى لغتهم لكلامه سبحانه بالعبودية ، وماجت بهم جزير العرب مهللين مكبرين مسبحين ، كلما علوا شرفا او هبطوا واديا ، واقاموا تالين للقرآن بالغدو والآصال ، وبالليل والاسحار وانطلقوا يتتبعون سنن نبيهم ويتلقفونها ، وخلعوا عن قلوبهم ، ونفوسهم ، وعقولهم ، والسنتهم ظلمة الجاهلية ، ودخلوا بالسنتهم وعقولهم ، ونفوسهم ، وقلوبهم فى نور الاسلام .

ثم طار بهم هذا القرآن فى كل وجه ، يدعون الناس أسودهم واحمرهم الى شهادة أن لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله ، ويحملون اليهم هذا الكتاب المعجز بيانه لبيان البشر ، والذي نزل بلسانهم حجة على الخلق ، وهدى يخرجهم من الظلمات الى النور .
فكان من امرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام فى كتاب « طبقات فحول الشعراء » حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب فى اهل الجاهلية : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه » . فقال ابن سلام تعليقا على ذلك : « فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمانت العرب فى الامصار ، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب . والفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا اقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير»

ولا يغررك ما قال ابن سلام ، فتحسب ان اهل الجاهلية الذين هداهم الله للاسلام ، طرحوا شعر جاهليتهم دبر آذانهم ، فانصرفوا عنه صما وبكما ، وخلعوه عن عقولهم والسنتهم كما خلعوا جاهليتهم ، فهذا باطل تكذبه اخبارهم ، وينقضه منطق طبائع البشر ، وتاريخ حياتهم ، بل كان اكبر ما لحقه من الضيم : أن نازعه القرآن صرف هممهم اليه ، فكان نصيبه من انشادهم وتقصيدهم القصائد اقل مما كان فى جاهليتهم ، ولكنه بقي مع ذلك هو الذي يؤبون اليه اذا شق عليهم طول مدارسة القرآن ، وهو الذي يستريحون اليه اذا فرغوا مما فرض عليهم ربهم ، وسن لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم . وظل ذلك دابهم فى اول اسلامهم ، ونشا ابناؤهم يسمعون منهم

شعر جاهليتهم ويستمعون الى مكنـــوز بيانهـــم فى السنتهم ، فيخرجون ايضا مركوزا ذلك البيـــان فى طباعهم ، وينتقل ذلك بما يشبه العدوى الى مسلمة الاعاجم وابنائهم .

وحيث نزل أهل الجاهلية الذين اسلموا ، نزل معهم الذكر الحكيم ، ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه وتناشدوه ، وقوموا به لسان الذين اسلموا من غير العرب . واصبح زاد المتفقه فى معرفة معاني كتاب ربه ، هو مدارسة الشعر الجاهلي ، لانه لا يستقـل احد بفهم القرآن حتى يستقل بفهمه وحسبـك ان تعرف مصداق ذلك قول الشافعي فيما بعـد ، فى القرن الثاني من الهجرة : « لا يحل لاحد ان يفتي فى دين الله ، الا رجلا عارفا بكتـاب الله ، بناسخـه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكيه ومدنيه ، وما أريد به . ويكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف مـن القرآن ، ويكون بصيرا باللغة ، بصيرا بالشعر ، وما يحتاج اليه للسنة والقرآن » . فليس يكفي أن يكون عارفا بالشعر ، بل بصيرا به اشد البصر ، كما قال الشافعي رحمه الله ، والذي قاله الشافعي بعد قرن، هو الذي جرى عليه فى أول الاسلام .

واستفاضت بالمسلمين الفتوح ، واستفـاض معهم شعر جاهليتهم ، واسلمت الامم ودخلـت فى العربية كما دخلت فى الاسلام ، ونزل بيـان القرآن كالغيث على فطرة جديدة ، فطرة اهل الالسـنة غيـر العربية ، بعد أن رويت من بيان الجاهلية فى الشعر الجاهلي . وامتزجت العرب من الصحابة والتابعين وابنائهم ، بأهل هذه الالسنة التي دخلت فى العربية، فنشأ من امتزاج ذلك كله بيان جديد ، ظل ينتقـل ويتغير ويتبدل ، جيلا بعد جيل ، ولكن بقي أهله بعد ذلك كله ، محتفظين بقدرة عتيدة حاضرة ، هي تذوق البيان تذوقا عليما ، يعينهم على تمييز بيان البشـر كما تعهده سلائقهم وفطرهم ، وبيان القرآن الـذي يفارق خصائص بيانهم من كل وجه .

ثم فارت الارض بالاسلام من حد الصين شرقا الى حد الاندلس غربا ، ومن حد بلاد الروم شمالا الى حد الهند جنوبا ، وسمع دوي القرآن العربـي فى ارجاء الارض المعمورة . وقامت المساجد فى كل قرية ومدينة وازدحمت فى ساحاتها صفوف عباد الرحمن، وعلا منابرها الدعاة الى الحق ، وتحلقت الحلـق فى كل مسجد ، وتداعى اليها طلاب العلم ، فطائفة تتلقى القرآن من قرائه ، وطائفة تدرس تفسير آياتـه ، وطائفة تروي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حفاظه ، وطائفة تأخذ العربيـة عن شيوخهـا ، وطائفة تتلقف شعر الجاهلية والاسلام عن رواتـه ، طوائف بعد طوائف فى انحاء المساجد المتدانيـة ، طوائف من كل لون وجنس ولسان ، كلهم طالب علم، وكلهم ينتقل من مجلس شيخ الى مجلس شيخ آخر ، فكل ذلك علم لا يستغني عنه مسلم تال للقرآن . لا بل حتى أسواقهم قام فيها الشعراء ينشدون شعرهم، ويتنافرون به ويتهاجون ، والرواة تحفظ ، والناس يقبلون ينصتون ، وينقلبون يتجادلـون ، وعجـت نواحي الارض بالقرآن وباللسان العربي ، لا فرق بين ديار العجم كانت وديار العرب .

وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان فى اهل كـل دين ، وجاؤوا بالمراء والجدل ، وباللدد والخصام ، وشققوا الكلام بالرأي والهوى ، فنشأت بوادر مـن النظر فى كل علم ، وعندئذ نجم الخلاف ، وانتهـى الخلاف الى الجراة ، وافضت الجراة يوما الى رجل فى اواخر دولة بني امية يقال له « الجعد بن درهم »، وكان شيطانا خبيث المذهب ، تلقى مذهبه عن رجل من ابناء اليهود ، يقال له « طالوت » ، فكذب القرآن فى اتخاذ ابراهيم خليلا ، وفى تكليم موسـى ، الى هذا وشبهه ، وكان من قوله : أن فصاحة القرآن غير معجزة ، وان الناس قادرون على مثلهـا واحسـن منها !! .. فضحى به خالد بن عبد الله القسري فى عيد الاضحى ، فى نحو سنة 124 من الهجرة .

وكلام الجعد ، كما ترى ، استطالة رجل جريء اللسان ، خبيث المنبت ، بلا حجة من تاريخ أو عقل.

ولم تكد دولة بني العباس ترسي قواعدها حتى دخلت بعض العقول الى فحص « اعجاز القـرآن » ، من باب غير باب السفه والاستطالة ، فقام بالامـر كهف المعتزلة ولسانها : « ابو اسحق ابراهيـم بن سيار النظام » . فاتاه من قبل الرأي والنظر ، حتى زعم ان الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن ، مع قدرتهم عليها ، فكانت هذه الصرفة هي المعجزة؛ اما معجزة القرآن ، فهي فى اخباره بكل غيب مضى، وكل غيب سيأتي . وهذه مقالة لا أصل لها الا الحيرة والابتهار من هذا الذي اعجز اهل الجاهلية واسكتهم. وهب قوم يعارضونه ويجادلونه ، منهم صاحبه أبـو عثمان الجاحظ ، فألف كتابه فى « نظم القرآن » ؛ وانه غاية فى البلاغة ، وقال الجاحظ وغيره ومـن

يليهم ، ولكن ظل الامر محصورا فى اثبات « الصوفة» وابطالها ، وفى طرف من الاستدلال على بلاغة القرآن وسلامته مما يشين لفظه ، وخلوه من التناقض ؛ واشتماله على المعاني الدقيقة ، وما فيه من نبأ الغيب ، الى آخر ما تجده مبسوطا فى كتب القوم ، والذي عرفت قولنا فيه فيما مضى من كلامنا .

ثم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات ممن عرفوا باسم المتكلمين ، وكان امرهم أمر جدال وبسطة لسان . وعلبة حجة ، ومناهضة دليل بدليل ، حتى اذا صارت مسالة « اعجاز القرآن » مسالة تستوجب أن ينبري لها رجل صادق ، انبرى لهؤلاء المتكلمين « أبو بكر الباقلاني » (المتوفى سنة 403) ، والناس يومئذ بين رجلين كما قال هو نفسه . ذاهب عن الحق ، ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود فى صنعته ، فقد ادى ذلك الى خوض الملحدين فى اصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين .. وذكر لي عن بعض جهالهم انه جعل يعد له ببعض الاشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه ، وليس هذا ببدع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم الى عظم ما يقولون اخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم » (كتابه اعجاز القرآن ص 5 و 6) فهذا هو الذي حفزه واهاجه ، حتى كتب كتابه المعروف «اعجاز القرآن» .

وكتب الباقلاني كتابه واهل اللسان العربي يومئذ هم الناس ، ولم يزل تذوقهم للبيان ما وصفت لك ، تذوق ملتبس بالطباع ، مردود الى السلائق ، مشحوذ بمدارسة الشعر وسماعه وروايته ولكن لم يضر جمهور هذه الطباع شيئا ان استفاض الجدل وظهر سلطانه ، وان صارت كل فرقة تمضغ كلاما ؛ تناضل به عن رايها ، وتقطع به حجة خصمها ، طلبا للغلبة ، لا تمحيصا للراي ، وفحصا عن الحق .

ورضي الله عن أبي بكر الباقلاني ، فقد جمع فى كتابه خيرا كثيرا ، واستفتح بسليم فطرته ابوابا كانت قبله مغلقة ، وكشف عن وجوه البلاغة حجابا مستورا . ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثارا متلاحقة ، وان لم يقصد بها هو قصد العاقبة التي انتهت اليها .

كان الباقلاني حقيقا أن ينهج النهج الذي ادناه اليه تمحيص مسالة « الإعجاز » ، ويومئذ يجعل الشعر الجاهلي أصلا فى دراسة بيان عرب الجاهلية ، من ناحية تمثله لخصائص بيان البشر . والباقلاني رضي الله عنه كان يجد فى نفسه وجدانا واضحا أن خصائص بيان القرآن مفارقة لخصائص بيان البشر ، وقد ألمح الى ذلك فى كتابه ، كما ألمح اليه من سبقه بيد ان جدل المتكلمين قبله وعلى عهده ، وخوض الملحدين فى اصول الدين كما قال ، ومنهجهم فى اللجاجة وطلب الغلبة ، كل ذلك لم يدعه حتى استفرقه فى الرد عليهم ، على مثل مناهجهم من النظر . ثم دارت به الدنيا ، لما بلغه أن بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الاشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام .

وانت تستطيع ان تقرأ كتابه فصلا فصلا لتجد مصداق ما اقول لك . حتى اذا انتهى الى الذي هاجه ، من موازنة القرآن ببعض الاشعار ، هب الى تسفيه هذه الموازنة ، فدعاك فى أوسط كتابه أن تعمد معه الى ما لا تشك فى جودته من شعر امرىء القيس ، وما لا ترتاب فى براعته ، ولا تتوقف فى فصاحته ، كما قال فى كتابه (241) فطرح بين يديك هذه القصيدة ، وجعل يفصلها وينقدها ويمحو من محاسنها ويثبت ، ويقف بك على مواضع خللها ، ويفضي بك الى مكان ضعفها ، ولم يزل يعربها حتى كشف الغطاء عن عوارها ، ثم ختم ذلك بقوله : « وقد بينا لك ان هذه القصيدة ونظائرها ، تتفاوت فى ابياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة ، والسلاسة والانعقاد ، والسلامة والانحلال ، والتمكن والاستصعاب ، والتسهل والاسترسال ، والتوحش والاستكراه ، وله شركاء فى نظائرها ، ومنازعون فى محاسنها . ومعارضون فى بدائعها » .

فلما انتهى من ذلك افتتح فصلا شريفا نبيلا ، ذكر فيه آيات من القرآن ، وحاول أن يقفك على بدائع نظمها وبيانها ، وهذا الفصل هو ادل الدليل على أن الباقلاني ، لو كان استقام له المنهج الذي ذكرناه ، لبلغ فيه غاية يسبق فيها المتقدم ، ويكد فيها جهد المتأخر ؛ ولكنه لم يزد فى هذا الفصل على أن جعل يوقفك على بيان شرف الآيات لفظا ومعنى ، ولطيف حكايتها ، وتلاؤم رصفها ، وتشاكل نظامها ، وان نظم القرآن لا يتفاوت فى شيء ، ولا يتباين فى أمر ، ولا يختل فى حال ، بل له المثل الاعلى ، والفضل الاسنى (كتابه ص 302 ، 305) وذكر تناسب الآيات فى البلاغة والابداع ، وتماثلها فى السلاسة والاعراب ، وافرادها بذلك الاسلوب ، وتخصها بذلك الترتيب . أما غيرها من الكلام ، فهو يضطرب فى مجاريه ، ويختل تصرفه فى معانيه ، وهو كثير التلون ، دائم التغير والتنكر ويقف بك على بديع مستحسن ،

ويعقبه بقبيح مستهجن ، ويأتيك باللفظة المستنكرة، بين الكلمات هي كاللآليء الزهر (كتابه ص 313، 314) ثم انتهى الى قوله فى القرآن : « وعلى هـذا فقس بحثك عن شرف الكلام ، وما له من علو الشان ، لا يطلب مطلبا الا انفتح ، ولا يسلك قلبا الا انشرح ، ولا يذهب مذهبا الا استنار واضاء ولا يضرب مضربا الا بلغ فيه السماء ، ولا تقع منه على فائدة فقدرت انها اقصى فوائدها الا قصرت ، ولا تظفر بحكمة فظننت انها زبدة حكمها الا قد اخللت . ان الذي عارض القرآن بشعر امرىء القيس ، لأضل من حمار باهلة، واحمق من هبنقة » (كتابه ص 321 ، 322) .

وصدق الباقلاني فى كل ما قال ، الا انه لم يزد على أن بين خلو القرآن من الاختلاف والتغير، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل ، وكل ما هو قرين لضعف طبائعهم ، وان استحكمت قواهم ، ودال على عماهم عن كثير من الحق ، وان استنارت بصائرهم . ولعمري انه الحق لا ينال منه الباطل ، ولكنه غير الذي ينبغي أن نتطلبه من كشف اصول البيان التي يفارق بها بيان القرآن بيان البشر من الوجه الذي فصلناه .

وليس هذا موضع بحثنا الآن ، ولكن بحثنا عن الشعر الجاهلي ، وما كان من امره ، فهذه الموازنة التي هاجت الباقلاني ، كما ذكر هو حملته على هتك الستر عن معلقة امرىء القيس ، ليكشف للناس عيبها وخللها ، لا ليستخرج منها خصائص بيانهم ، وكيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن فلما زل الباقلاني هذه الزلة ، واخطأ الطريق ، زل به من بعده واخطأه ، واخذوا الشعر الجاهلي كله هذا المأخذ ، ولكن العجب بعد ذلك ان (الشعر الجاهلي) ظل عند البلغاء وجمهور الناس هو مثقف الالسنة ، والحجة على اللغة ، والشاهد على النحو ، وما الى ذلك . ولكنهم اذا جاءوا لذكر القرآن واعجازه ، اتخذوه هدفا للنقد والتفلية ، واظهار العيب ، وتبيين الخلل بازاء كلام برىء من كل عيب وخلل فيبقى الامر امر موازنة لا عدل فيها . وكان حسبهم من الدليل ان اهل الجاهلية بتركهم معارضة القرآن بشعرهم او كلامهم ، هو اقرار لا معقب عليه بفضل هذا القرآن على شعرهم وكلامهم ، فلم تكن بالباقلاني حاجة الى سلوك هذا الطريق الذي سلكه ، الا ما حمله عليه ما نعق به جاهل من جهال المتلحدة ، من الموازنة بين الكلامين ، وتفضيل شعرهم على القرآن.

وكان قد نازع ذلك باب آخر من اللجاجة ، فى الموازنة بين شعر الجاهلية ، وشعر المحدثين من شعراء الاسلام ، وظل الجدال فى تفضيل احدهما على الآخر بابا تقتحمه الالسنة طلبا للمغالبة والظهور ، وداخل ذلك من الازراء على الشعر الجاهلي وعيبه ما داخل ، فكان هذا ايضا صارفا عن مدارسته على الوجه الذي طلبناه فى صدر حديثنا . وفى خلال ذلك كله ، تجمعت على فهم الشعر الجاهلي اخطاء شديدة الخطر ، غشت حقيقته بحجاب كثيف من الغموض ، زاده كثافة ما لحق الشعر الجاهلي من التشتيت والضياع ، وما أصابه من اختلال الرواية بالزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير ، حتى اختلطت فيه المعاني احيانا اختلاطا ، سهل لكل عائب ان يقول فيه ما عن له . ومع كل ذلك ايضا بقي الشعر الجاهلي مثقفا للالسنة ، ومعدنا لشواهد اللغة والنحو والبلاغة ..

فليت شعري اي بلاء ترى أصاب هذا الشعر !!

ثم تتابعت العصور على ذلك ، وعلى ما هو اشنع منه ، حتى افضينا به فى هذا العصر الحديث الى أقبح الشناعة يوم فرض الاستعمار الغربي الغازي ، على مدارسنا منهجا من الدراسة لا يقوم على أصل صحيح كان يرمي فى نهايته الى اضعاف دراسة العربية اضعافا شائنا ، لا مثيل له فى كل لغات العالم التي يتلقاها الشباب فى معاهد التعليم على اختلاف درجاتها . ثم طمت الشناعة بعد سنين ، حين عزلت اللغة العربية كلها عزلا مقصودا عن كل علم وفن ، واصبح الشباب يتعلم لغته على أنها درس محدد ، هو ثقيل بهذا التحديد المجرم على كل نفس ، وبخاصة نفوس الشباب الغض . ثم لما انشئت الجامعة ، ودخلها هؤلاء الشباب على ما هم فيه من الملل بلغتهم ، ومن الاستهانة بأمرها ، طلع قرن الشيطان بفتنة (الشعر) والتشكيك فى صحة روايته ، وطار الشر الى الصحافة ، فاتخذت اللغة القديمة كلها لا الشعر الجاهلي وحده ، مادة للهزء والسخرية ، والنكتة والزراية ، لا بل تندروا بكل من بقي على شيء من المحافظة على سلامة اللغة ، سلامة هي كابراء الذمة لا اكثر ولا اقل .

هذا تاريخ مختصر للاسباب التي وقفت بالشعر الجاهلي حيث وقف قديما ، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذي كشفته وبينته ، وكان لزاما عليهم وعلينا أن تسلكه لدراسة اعجاز القرآن ، دارسة

صحيحة سليمة من الآفات . وهو تاريخ أشد اختصارا للذي تبع ذلك في العصر الحديث ، لما صار (الشعر الجاهلي) ملهاة يتلهى بها كل من ملك لسانا ينطق ، حتى ألقى ذلك كله ظلا من الكآبة والظلمة على دراسات المحدثين في الجامعة وغير الجامعة ، حين يدرس أحدهم هذا الشعر ، هذا الشعر الذي كان حين انزل الله القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم ، نورا يضيء ظلمات الجاهلية ، ويعكف أهله لبيانه عكوف الوثني للصم ، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط . فقد كانوا عبدة البيان قبل ان يكونوا عبدة الاوثان ! وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم ، ولم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم .

وانت خليق أن تعرف ان الشيء الذي طلبته وأحتجبت له ، وحاولت ان اكشف عن منهاجه ومذهبه ، انما يتعلق بخصائص البيان في القرآن ، وخصائص بيان البشر على اختلاف ألسنتهم ، وان مخرج هذا غير مخرج هذا ، وان الشعر الجاهلي ، انما هو مادة الدراسة الاولى ، لان القرآن نزل بلسان العرب ، والذين نزل عليهم ثم تحداهم واعجزهم ، هم أصحاب هذا الشعر والمفتونون به وببيانه . وهذا باب غير الباب الذي افتتحه الباقلاني ، ثم فجر عيونه امام البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) (المتوفى سنة 474) في كتابيه (دلايل الاعجاز) ، و (أسرار البلاغة) ، ثم أبدع فيه العلماء ما أبدعوا ، وزادوا فيه عليه ونقصوا . وكان ذلك بعد أن اغلق الباب الذي فصلنا القول فيه ، كان هو الجدير بأن يفتتحه الباقلاني وعبد القاهر .

فاذا تم ما دعونا اليه لاهل هذا اللسان العربي يوما ما . وعسى أن يكون ذلك بتوفيق الله ، فيكون ذلك فتحا مبينا لا في تاريخ البلاغة العربية وحدها ، بل في تاريخ بلاغة الجنس الانساني كله . وسيكون أيضا مقنعا ، ورضى لهذا (العقل الحديث) الذي يتطلب في معرفة (اعجاز القرآن) ما يرضى عنه ويطمئن اليه ، وليس هذا فحسب ، بل ان اهل الحق من أهل الاسلام ، سيجدون يومئذ وسيلة لا تدانيها وسيلة ، تسهل لهم ما استغلق عليهم من دعوة الناس الى كتاب الله الذي خص به العرب ، وجعل فيه ذكرهم على الدهر حين انزله بلسانهم ، ولكنه جعله هدى للبشر جميعا عربهم وعجمهم . ويومئذ ستبطل فتنة (ترجمة القرآن) من أصلها ، لسبب ظاهر أشد الظهور . فان البشر اذا لم يكن في طاقتهم بألسنتهم التي يبدعون في شعرها ونثرها ، أن يأتوا ببيان كبيان القرآن ، تدل تلاوته على انه بيان مفارق لبيان البشر ، فمن طول السفه وغلبة الحماقة ، أن يدعي احد انه يستطيع أن يترجم القرآن ، فيأتي في الترجمة ببيان مفارق لبيان البشر . فاذا لم يكن ذلك في طاقة أحد ، لم يكن لهذه الترجمة معنى بل سيكون فيها من القصور والتخلف ، ما يجعل القرآن كلاما كسائر الكلام ، لا آية فيه ولا حجة على احد من العالمين ، ولا توجب ترجمته على احد ان يؤمن بما فيه ، وان خالف ما جرى عليه اعتقاده او علمه ، الا اذا آمن من قبل أنه كتاب منزل من السماء . وهذا عكس لآية القرآن ، وهي أن بيانه هو الدليل القاطع على أنه ليس من كلام البشر ، وأنه كتاب منزل من السماء ، وانه هو كلام رب العالمين الذي تعبدنا بتلاوته ، والذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة ، الكرام البررة، والذي يقرا القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له اجران » . وقال ايضا : « من قرا حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر امثالها . لا اقول « الم » حرف ، ولكن اقول الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

= * =

واما بعد ، فعسى ان يكون الله قد ادخر لآخر هذه الامة ، بعض ما يلحقها بفضل أولها ، فتفتح بالقرآن آذانا صما ، وعيونا عميا ، وقلوبا غلفا ، وتخرج بهديه الناس من ضلالتهم ، وتذودهم به عن اتباع خطوات الشيطان ، الى اقتفاء الصراط المستقيم، والله تعالى يقول لنبيه : « وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم . وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » . (سورة المؤمنين 73 ، 74)

وعسى ان يتم على يد آخرها ما خباه الله من اولها ، وعسى أن يكون ذلك مخبوءا في هذا الفصل الذي نجده في انفسنا بين بيان الله سبحانه ، وبيان عباده من البشر .

« قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين » (سورة الانعام : 149) .

ورحم الله مالك بن انس اذ يقول : « لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها » ، فاذا كان اولها لم يصلح الا بالبيان ، فآخرها كذلك لن يصلح

الا به ، وان امرءا يقتل لغته وبيانها ، وآخر يقتل نفسه ، لمثلان ، والثاني اعقل الرجلين !

وشكر الله لاخي مالك بن نبي ، حيث دعاني الى كتابة مقدمة لكتابه ، كتاب « الظاهرة القرآنية » ، ففتح لي به بابا من القول فى « اعجاز القرآن » كنت اتهيب ان الجه ، وبابا آخر من القول فى « الشعر الجاهلي » كنت اماطل نفسي دونه ، وانا اعلم اني قد قصرت فى ذلك كله واختصرت ، وان كنت قد اطلت ، واخشى ان اكون قد امللت ، ولكن عذري ان الراي فيهما كان قد شابه ما كدره ، فبذلت جهدي ان امحص القول فيهما ، حتى انفي عنهما القذى ، واخلصهما من الاذى ، مبتغيا بذلك وسيلة الى ربي سبحانه ، طلبت القربة عنده ، « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » .

والحمد لله وحده ، ولا حول ولا قوة الا به ، ولا فضل الا من عنده ؟ .

محمود محمد شاكر

> لا يجوز لشخص ان يحكم على نظام ما بمقارنته مع نظامه ، وفى عالم القرن العشرين يحكم على نظام ما من ناحية متانته قبل كل شيء ، واما نوعه فلا يفهم الا قليلا ، والنظام الملكي بالمغرب متين ولله الحمد وهو متين وسيبقى متينا ، لانه يمثل تجاوبا فيما بين الملوك المغاربة وبين شعبهم طيلة اربعة عشر قرنا ويمثل ترابطا فى المشاعر والافكار ».
>
> **جلالة الملك الحسن الثانى**

في موضوع أحمد المنصور الذهبي :

قولٌ على قول

للأستاذ عبد القادر العافية

ننشر فى هذا العدد مقالا للاستاذ عبد القادر العافية حول السلطان احمد المنصور الذهبي يبرز خلاله ملامح من شخصية العاهل المغربي المجاهد اعتمادا على مراجع مقطوع بصحتها .

ولا شك أن مراجعة شخصية السلطان احمد المنصور الذهبي تفتح امامنا آفاقا واسعة للدراسة التاريخية المعمقة فى الحضارة المغربية وتاريخ الفتوحات الاسلامية العظمى التى تمت على يد ملوكنا وأمرائنا منذ عهد طارق رضى الله عنه .

ونحن نعتبر مقال الاستاذ العافية استمرارا للمناقشة التى بدأها الدكتور عثمان عثمان اسماعيل مع الباحث الدكتور شوقي عطا الله الجمل .

والمجلة ترحب باي بحث فى هذا السياق يلتزم شروط النزاهة والموضوعية والانصاف التاريخي .

« دعوة الحق »

جاء فى العدد ماقبل الاخير من مجلة دعوة الحق الغراء (العدد الثالث السنة 18) رد للدكتور عثمان عثمان اسماعيل على موضوع «أحمد بابا التمبكتي السوداني» للدكتور شوقي عطا الله الجمل .

وجاء رد الدكتور عثمان عثمان مدعما بكثير من الوثائق والحجج والبراهين ، والذي اوده فى هذا الحديث هو توضيح بعض الافكار الواردة فى الرد .

وذلك ان الدكتور عثمان عثمان تعرض لموضوعين هامين فى رده وهما :

1 ــ قضية فتح السودان من طرف احمد المنصور الذهبى

2 ــ شخصية أحمد المنصور نفسه

وكل واحد من هذين الموضوعين يعد من الاهمية بمكان فى تاريخنا الوطنى ، لان فترة احمد المنصور الذهبى تعد بحق من الفترات المشرقة فى تاريخ الجناح الغربى من العالم الاسلامى فى القرن العاشر الهجري، ونظرا لما لهذه الفترة من الاهمية فان الحديث عنها قد يكون متشعبا ومتعدد الجوانب . وبالتالى قد يكون مبهما وذا نتائج مختلفة ومتباينة ..

ومن هنا لا يستغرب اي تدخل فى مثل هـــذا الموضوع الهام ما دام البحث عن الحقيقة هو الهـدف المنشود لدى الجميع .

اولا ــ قضية فتح السودان بأمر وتوجيه احمد المنصور السعدي تعرض اليها غير واحد من المؤرخين والباحثين .. فمنهم من يرى ان هذه العملية كانـــت فاشلة ، وانها كانت عبارة عن مغامرة اليمة ...

فى حين يرى البعض الآخر انها كانت عملية هادفة وناجحة .. وانها حققت الكثير من اهدافها وغاياتها .

وكما اختلف المؤرخون والباحثون فى قيمة هـــذه العملية اختلفوا كذلك فى البواعث والدوافع التى حفزت للقيام بعملية فتح السودان ، فراى البعض ان الباعث كان اقتصاديا محضا وراى البعض الاخر الدافع الى ذلك كان الغاية منه ، هو صرف طاقة الجيش فى هذه الناحية البعيدة للتخلص من ضغوطه وتطلعاته ..

خاصة وان صرف هذه الطاقة للتوسع فى الشرق او الشمال يكادان يكون من قبيل المستحيل ، وذلــك لوجود دولتين قويتين هما : الامبراطورية العثمانية فى الشرق ، والامبراطورية الاسبانية فى الشـــمال ، (بشبه جزيرة ايبريا وبالثغور المحتلة فى سواحـــل المغرب) .

ومعنى ذلك انه لم يبق مجال للمنصور فى تصريف هذه الطاقة الحربية الا نحو الجنوب ونحـــو بـــلاد السودان ، وهذا بالاضافة الى ان ذهب الســـودان ورقيقـــه الاسود كانـــا يشغلان بال محبى الثـــراء والغنى من ملوك واباطرة ذلك العهد .. الخ .

لكن مهما يكن من امر فان الذي ينبغى الا ننساه فى هذا الموضوع هو ان فكرة فتح السودان كان الباعث عليها هو محاولة استرجاع الاندلس ، ذلك الفردوس المفقود الذي لم يكن من السهل على المغاربة ان ينسوا اخوانهم به ، ولا امجادهم فيه .

ولم يكن من اليسير على المغاربة ، ان تندمل جراحات نفوسهم العميقة من جراء نكبتهم بفقـــدان الاندلس . خاصة وان تلك الجراح لم تكن الايام المتوالية تزيدها الا تنكأ وتعميقا .. حيث كانت بقايا المسلمين فى الاندلس تعانى اشد الويلات من محاكم التفتيش ومن مضايقة السلطة ورجال الكنيسة وكانت فلول من هذه البقايا تصل الى المغرب بين الفينة والاخرى شـاكيـــة باكية بقلوب دامية وعيون دامعة .. وكان منظر ومخبر هؤلاء يبعث على الرثاء ويحز فى النفس ..

وفى عهد احمد المنصور بالذات تجمع عدد كبير من الاندلسيين الناقمين بالمغرب ، وكون احمد المنصور من هؤلاء جيشا هاما كان يسمى « جيش الاندلسيين » وكان من بين افراد هذا الجيش الناقم ضباط وقـــادة ورؤساء .. ونظرا لعهد الازدهار الذي عرفه المغرب فى حياة احمد المنصور الذهبى فان الجيش المغربـــى عرف بدوره تنظيما محكما ونموا وقوة ونظاما .. واصبح هذا الجيش يقوم بتدريباته واستعراضاته فى ابهى حلة واتم استعداد ، واحسن نظام ... (1)

وكانت عناصره الاندلسية بخاصة تتوق الـــى الحرب وتتطلع الى الالتحام مع أعدائها الذين اغتصبوا ارضها وخيراتها . .

وعلى الجملة كان جيش احمد المنصور باعداده الوفيرة ، وفرقه المتنوعة ومعداته الحديثة ، وبتطلعات وتوثان ضباطه وقواده كان هذا الجيش يريد ان يعمل وان يخوض المعارك .. وفى نفس الوقت كانت آمال الاندلسيين من القواد والضباط والجنود وغيرهـــم معلقة على همة احمد المنصور وعلى ذكائه ونبوغـــه ونخوته وشهامته ..

ولا شك أن احمد المنصور بحنكته وذكائه وخبرته السياسية .. كان يحسب للحرب مع الامبراطوريـــة الاسبانية القوية الف حساب وهو مع ذلك وفى نفس الوقت يقدر نكبة فقدان الاندلس ويحز ذلك فى نفســه كما يحز فى نفوس الآخرين .

لكن احمد المنصور المسؤول الاول فى الدولة لا يريد ان يغامر ولا يريد أن يخوض حربا يكون مآلها الفشل الذريع . . ولذلك فاحمد المنصور لم يجد بدا من أن يمهد للحرب مع الاسبان بفتح السودان وتوحيده وجمع كلمته بكلمة اخوانه فى غرب شمال افريقيا .

ومعنى ذلك ان عملية فتح السودان فى نظر احمد المنصور فيها فسح المجال للجيش ليقوم بواجبه فى توحيد كلمة المسلمين ، وفى نشر الاسلام فى ربـــوع افريقيـــا .

وفى نفس الوقت فيها كسب جديد من الناحيـــة المادية والبشرية خاصة وان التاريخ يشهد بان معركة الزلاقة لعب فيها الصحراويون دورا هاما بجمالهـــم وطبولهم وهيئاتهم . . .

وهناك عامل آخر وهو ترقب الفرصة فى العدو ، خلال هذه الفترة من الاستعداد وخاصة فيما اذا اصيب بنكبات من نوع نكبة « الارمادا » التى هزم فيهـــا

الاسطـــول الاسبانى اشنع هزيمة سنــة (997 = 1588 م) على يد الاسطول الانجليزى ثم ان احمد المنصور من جهة اخرى كان يتبع دبلوماسية حكيمة فى الضغط على اسبانيا ومحاولة التحالف ضدها ، وفضح نواياها امام دول ذلك العصر ...

ومعنى كل هذا ان عملية فتح السودان كانــت عملية استعداد لما هو اهم منها فى نظر المغاربة وفى نظر احمد المنصـــور .

وتفسر لنا هذا بوضوح كثير من الوثائق التــى تعود الى نفس الفترة ، فمن ذلك مثلا تلك القصائد الرائعة التى كانت تنشد بمحضر احمد المنصور مهنئة ومبرزة مواهبه ومشيدة بفتوحاته واعماله . . . والتى كانت فى معظمها تشير الى ان الانتصارات فى السودان لا يتم جدواها الا بفتح الاندلس ! !

ومن المهنئين بالفتح من كان يذهب بعيدا او يطالب بأن يكون المغرب هو مقر الخلافة الاسلامية ، وبان يكون احمد المنصور هو خليفة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربهـــا . . .

ولقد نقل لنا الشاعر الاديب وزير القلم عبــد العزيز الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا (2) عددا من هذه القصائد سواء فى حديثه عن فتوح السودان او اثناء تصويره لروعة الاحتفال بعيد المولد النبوي على عهد أحمد المنصور ، لان كثيرا من قصائد التهنئة بهذه المناسبات كانت تعرج فى نهايتها على الالحاح بانجاز مثل هذه المطالب والمتمنيات .

ومن ذلك مثلا قول الكاتب الشاعر الحسن بن احمد المسفيوي اثناء احتفـالات المنصور بانتصارات جيشـــه فى السودان :

« فملكت اقطار الجنوب وما سمت لمنال ذلك همــة الاسكنــــــــدر »

« وتــنال اندلسا يجود ربوعها برد المنية من غمام العـيــثــر . »

« فقد الجياد الى الضلال تسومها حكم الردي وتدوس معطس قيصـــر » .

« ادرك بها الثار المنيم فطالما الوى به للدن رهط الاصفـــر » .

وجاء فى قصيدة اخرى لاخى الشاعر السالــف الذكـــــر :

« فدان الجنوب وهذا الشمال ستنظمه بعد فى قطار »

« وقد كنت اعثرت جد الصليب ستعثره ضعف ذاك العثــــــار » .

والشاعر هنا يشير الى معركة وادى المخازن التى انهزم فيها الجيش الصليبى بقيادة الملك البرتغالى « سبستيان » افظع انهزام (986 هـ = 1578 م) ، ويرى ان انهزام الصليب سيتضاعف فى المستقبل .

ومن قصيدة طويلــة للشاعر محمد بن علــى الفشتالى يهنىء بها المنصور على فتوحاته فى السودان قولــــه :

« منحتك ابكار الليالى وصلها حتى تنال بها كبيـــر مؤمــــــــل » .

« وتضيف ملك مشارق لمغارب عفوا كنظم جنوبهـــا والشـمـــال » .

ونرى الشاعر هنا يؤكد على تحقيق هذا الامل الكبير المنشود الذي هو :

ضـم المشرق للمغـرب والشمال للجنـــوب ، والمقصود بالشمال هنا بلاد الاندلس .

ولم يكــن هذا الامل الكبير من قبيل امانـــى الشعراء وخيالاتهم ومبالغاتهم فى التهنئة والمدح ، بل كان هذا الامل يراود قلوب المغاربة جميعا حيث كانوا يتطلعون الى اليوم الذي تعود فيه الحياة الطبيعية الى بلاد الاندلس ، والى اليوم الذي يعود فيه المطرودون والمظلومون الى ديارهم واراضيهم . . .

ونجد هذا مصرحا به فى عدد من الوثائق الرسمية الصادرة عن الدولة ، ولقد نقل لنا الفشتالى فى مناهل الصفا بعض هذه الوثائق ، وخاصة أثناء حديثه عن ثورة الناصر ابن عبد الله الغالب الذي كان لاجئا عند فيليب الثانــى ملك اسبانيـــا .

تلك الثورة التى كانت مؤامرة خطيرة على سيادة المغرب من قبل فيليب الثانى والامير الناصر ابــن اخى المنصور ، فى وقت كانت معظم فرق الجيش المغربى تخوض معاركها فى السودان ، واستطاع جيش ولــى العهد بفاس مع فرق من جيش مراكش التغلب علــى هذه الثورة واخمادهـــا . . .

وفى هذا الموضوع يقول عبد العزيز الفشتالى :

« لما عظم على الطاغية شان ما اسفه من اسداء امير المومنين والحامه وشحذ عزائمه الماضية على ما

يؤمل من نكايته وتدمير ارضه ، واقلقه ذلك وحذر مغبته شمر للاعتمال فى المكايد التى هى جنده الاقوى وحصنه الذي يلوذ به عند الشدائد فاملى الناصر لتفرق الكلمة وتحريك حوار الفتنة به ، ليثنى بذلك عزم مولانا امير المؤمنين ويشغله عن شانه ويكافيه على ما يعتمد فيه من نكايته فرمى به الى مليلية من سواحل العدوة فنزل بها لثلاث بقين من شعبان عام ثلاث والف . . . . » ـــ موافق سابع ماي 1595 م (3) .

ونـــرى الفشتالى هنا يصرح بأن متصــــــود « الطاغية » فيليب الثانى من تدبيره لهذه الثورة هو شغل احمد المنصور عن المضى فى خطته فى فتـــح السودان ، وعما يؤمله من النكاية به وتدمير ارضـه ...

وبعد ما تحدث الفشتالى بتفصيل عن هذه الثورة وبعدما أورد بعض القصائد فى تهنئة المنصور علـــى الفوز فى قمعها ، نقل لنا المراسـلات الرسمية التـى صدرت عن البلاط المغربى لمختلف الجهات معلنـــة ومبشرة بالنصر على الاعداء وعلى مدبري الفتن . . .

يقول : « ولما تكاملت هذه الفتوح الجليلة . . .» أي بالقضـاء على ثورة الناصر ، وفتوح السودان « اهم أيده الله بالجهاد وأخذ الاهبة له والاستعداد ومجازاة عدو الدين على ما كان اعتمل فيه من كيد الاسلام ، وتفريق كلمته ، والعزم على استرجاع جزيرة الاندلس من يد الكفر وتطهيرها من خبث الشرك . . . فكتب الى اهل الخير والدين واولى الصلاح بكل البلاد يلتمس منهم التوجه الى جنابه العلى بالادعية الصـالحة . . . فمنها الى صاحب مكة والمدينة وارض الحجـــاز السلطان حسن بن ابى نمـــى » (4) .

وجاء فى هذا الكتاب بعد الاخبار بالانتصار على الاعـــــــداء :

« هذا وان شيخ الركب المغربى وهو المرابــط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما ازمع الى المعاهد الشريفة الرحيل وهب له من حرم الله نسيم يميل . . . مد الى على متامنا اكف الرغبة فى كتاب كريم يتشرف بحمله فحملنا هذه العجالة لترعوا له ان شاء الله . . . ونطالبكم لوشائج الرحم بالدعاء تجاه البيت الحرام ، وعند الملتزم والمقام ان يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصـادق فى اظهار دين الحق على الدين كله . ويسهل علينا بفضله ومعونته اسباب فتـــح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها . . . (5)

ويقول الفشتالى بعد هذا : « ومنها » اى من الكتب التى بعث بها المنصور الى البلاد الاسلاميـــة « . . . الى قاضى قضاة المالكية بمصر الشيخ بدر الدين القرافى ، ثم الى كبير مشايخ الاولياء والعلماء علم الطريقة اليوم بالديار المصرية الشيخ الاستاذ زين العابدين بن الشيخ القدوة محمد بن أبى الحســــن البكرى الصديقى وكلاهما من اهل ود هذا الجانب العلى النبوي واوليائه محبة وصداقة يفاتحون مولانـــا الامام أمير المؤمنين ايده الله على تتابع الاناء مع كل ركب برسائلهم وبهداياهم من كتب العلم التى هـــى انفس الذخائر عندهم ايدهم الله فكتب اليهم مع صاحب الركب عامئذ فى معنى الجواب والتعريف بالفتـــح والتماس الادعية الصالحة منهم ومن اهل الخير والصلاح . . . ونص الخطاب الشريف : من عبد الله تعالـى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف الحسنى الفاضل ـــ تحلية طويلة الى ان يقول : « مما نستطرد لكم ذكره على وجه البشرى واهداء المسرة الكبرى اعلامكم ان عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الاكبر للاسلام وعميد ملل التثليث وعبدة الاصنام لما آنس من تلقاء جنابنا العالى نار العزم تلتهب التهابا وبحر الاحتفال تضطرب امواجه الزاخرة بكل عـــدد وعدة اضطرابا ، وهممنا الشريفة قد همت بتجديـــد الاسطول والاستكثار من المراكب المتكلفة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين ممطول ، وعلم ان الحديـــث اليه يساق ، والى ارضه بالخسف والتدبير بحول الله يهفو كل لواء خفاق ، رام خذله الله مكافاتنا على ذلك بما امل ان يفت فى عضدنا الاقوى ، وعزمنا الـــذي بعناية الله يزداد ويقوى ، فرمى بمخذول من ابناء اخينا عبد الله كان ربى لديه وطوحت به الطوائح منـــذ ثمانية عشر عاما الى مليليـــة . . . (6)

وهكذا يمضى هذا النص فى مدنا بمعلومات هامة الى ان يقول : « . . . ان يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله . . . ويسهل علينا بمعونته اسباب فتـــح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلالـــه الدرس حتى ينطلق لسـان الاذان . . . » (7)

والوثائق فى هذا الموضوع كثيرة ، وبذلك يتجلى أن عملية فتح السودان كانت عملية تمهيدية لمـــا بعدهـــــا . . .

ويبدو من خلال النصوص التى اثبتنا بعضها ان المنصـور كان عازما على محاربة فيليب الثانى ليتمكن من استرجاع الاندلس وليقضى « كل دين ممطول » .

ولعله لو طالت حياة المنصور لحقق بعض ما كان يهدف اليــه لكن يبـدو أن أسباب تأني المنصور في الهجوم الساحق على خصمه العنيد كانت اسبابا متعددة سياسية واجتماعية وطبيعية . . . ولعل في طليعتهـا — في الفترة الاخيرة من حيـاته — تلك الاسبـاب الطبيعية التي جعلت المغرب يئن تحت وطاة الاوبئـة وانحباس المطر ، وما يتبع ذلك من ظروف اقتصادية صعبة وحالة نفسية مضطربة . .

والحقيقة ان المغرب عرف في الحقبة الاخيرة من حياة المنصور وباء مهلكا ، وغلاء فاحشا . . . حيـث صدى ذلك يتـردد في كتب التـاريخ وكتب التراجم وغيـرهــا . . .

ثانيا — اما عن شخصية احمد المنصور : فمـن المعلوم انه قد الفت كتب في وصف عهد المنصور وفـي الحديث عن شخصيته واعماله ... وخلافته ...

ومن اهم هذه الكتب : مناهل الصفا في مآثـر موالينا الشرفا لعبد العزيز الفشتالي .

وكتاب المنتقى المقصور على مآثر المنصور ، لاحمد ابن القاضي وكتاب : الممدود والمقصور من سنا ابـي العباس المنصور ، للكاتب محمد بن عيسى التمسلي السـوسـي .

وكتابات احمد المقري في « روض الآس » «ونفح الطيب » وغير ذلك ولا شك ان هذه الكتب تحدثت عن المنصور حديثا مسهبا واعطت نظرة وافية عن جوانب متعددة من شخصيته... لكن بالاضافة الى هذه الكتب التي قد يقال انها من انشاء كتاب البلاط هناك مصادر اخرى لا تتسم بهذا الطابع بل هي تتحدث عن المنصور حديثا بعيدا عن ان تكون به اية شبهة لسيطرة البلاط وايحاءاته ...

ومن ذلك ما نجده في كتب التراجم وكتـب النوازل الفقهية والحواشي والطرر . . . وحتى لا اطيل اكتفي بمثالين من هذه المصادر التي هي في الواقع تعطينا نظرة صادقة عن احمد المنصور ، وهذه الصورة لا تبتعـد كثيرا عن الصورة التي رسمها له كتاب البلاط ، وقـد يقال ان هذه الكتب قد تاثرت بما كتبه اولئك لكننا في الواقع نجد ان السياق يختلف في هذه المصادر عـن المصادر السالفة تمام الاختلاف كما اختلف موضوع الحديث من اساســه . . .

جاء في « كتاب نوازل العلمي » ما نصه :

« وسئل سيدي ابراهيم الجلالي ، سأله سيدي علي بن احمد الفزكاري عن عدة مسائل منها مسالة طابة . . . فاجاب أما ما عمت به البلوى من شرب العشبة المشؤومة على نواحينا المتلفة اموال غربنـا وهي المسماة بتابغة بلغة اهلها فقد كنا بحضرة فاس أيام قدوم السلطان عليها مولانا احمد نصره الله ، وبقدومه انتشر امرها بتلك الحاضرة اجتلبها اهـل مراكش واستعملوها كثيرا فانتهى امرها واستعمالها عند أهل تلك الحاضرة ثم ان الغلاء ظهر هنالك وفـي سائر الاقطار فجمع السلطان رحمه الله اعيان فقهاء وقته وسألهم عن سبب تردد الوباء الذي كان يتـردد على مدينته المراكشية وابابة الانصراف عنها مع مـا حل من الغلاء وحبس الامطار ونحو ذلك من الآفات النازلة في ذلك الوقت ، فاجابه كل واحد من الفقهـاء بما ظهر له ، ومن جملة المجيبين له في ذلك المجلس وكان آخرهم في الجواب شيخنا البركة الفاضل الناسك سيدي محمد بن الحسن بن عرضون الشفشاونـي الدار ، فقال في جوابه لعل هذه النوازل والوقائـع سببها ما اشار اليه المولى سبحانه وتعالى في كتابـه « ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون » (8) فقبل السلطان جوابه دون جواب غيره من الحاضرين وفرق السلطان مجلسه ومن الغـد بعث للفقيه المجيب المذكور قد عرفت الداء فما الدواء فأجابه بان قال : غير المنكر في اتاربك وخدامك ، وسائر رعيتك يبدل الله عليك عادته عملا بقوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » (9) فامر رحمه الله بتغيير المنكر وهرق الخمر . . . ثم من جملة ما امر به ان تحرق العشبة الخبيثة في ديوان النصارى ، وبفاس الجديـد حـرق منهـا القناطير المتعـــددة . . . » (10)

لا شك ان مثل هذه النصوص المبثوثة في ابواب وفصول كتب النوازل الفقهية لم يقصد بها اصحابهـا الا حكاية الواقع كما هو من غير زيادة او تعديل . . .

وفي النص السالف يبدو لنا احمد المنصور مؤمنا بالله اشد الايمان ، ميالا الى التوبة والاستغفار مهتما بمصالح رعيته وشؤون شعبه . . . الى درجة انه ينفذ في الحال كلمة حق صدرت من احد علماء الاسلام .

وجاء في شرح العمل الفاسي للسجلماسي في نفس الموضوع ما نصه : « ان الخليفة ابا العباس المنصـور ، وقـد انحـسر النـاس الـى

الشكوى بالمظالم وكان يحضر مجلسه للحكم فيها علماء فاس كالشيخ محمد القصار ، وعلى بن عمران ، وعلماء مراكش كمحمد بن عبد الله ابو عبدالى ، وقاضى شفشاون محمد بن عرضون وغيرهم ، وكان هذا العام هو عام احد عشر الف . . . » (11)

ثم يذكر هذا النص الاخير الحكاية السالفة ، وبذلك يكون السجلماسى قد افادنا بأسماء بعض العلماء الذين كانوا يحضرون فى مجلس الخليفة بفاس كما عين لنا السنة التى حدثت فيها النازلة . . .

ويذكر لنا محمد العربى الفاسى فى مرآة المحاسن اثناء الحديث عن كرامات والده :

« ان المقدم المجاهد محمد بن الحسن ابو الليف جرى بينه وبين صاحب عمل القصر (الكبير) خلاف فسعى به للسلطان فأمر بتغريبه الى فاس وذلك سنة 998 هـ على عهد احمد المنصور الذهبى .

وفى يوم من الايام جرى بمحضر السلطان ذكر الشجعان والابطال من المجاهدين ذوى النكاية فى الاعداء ، فسأل هل تعرفون ببلدنا مثل هؤلاء فذكروا له محمد بن الحسن « ابو الليف » واخبروه بأنه مغرب بفاس فأمر المنصور باطلاق سراحه حالا ليعود الى نشاطه فى النكاية بالاعداء بثغر طنجة . . . وكان القاضى بفاس هو عبد الواحد الحميري وهو الذي ابلغهم عفو السلطان عنهم . . . » (12)

وهكذا يبدو لنا احمدالمنصور من خلال هذا النص رجلا يحب الجهاد والمجاهدين ويبحث عن الابطال والشجعان ويعقد المجالس للكلام فى موضوع الجهاد ، كما راينا انه اسرع الى انقاذ ذلكم البطل ، وانسد على الكائد كيده وانتقامه . . .

فشخصية احمد المنصور شخصية منصفة باحثة عن خير الرعية ، تتسم بالخوف من الله تعالى ومن عقابه الاليم ، وهى فى نفس الوقت محبة للجهاد رافعة من قدر اصحابه . . . وليس فى هذا ما يستغرب ، لان المنصور كان بحق من اكبر علماء عصره يتوفر على ثقافة عالية وعلى ذكاء حاد ينظم الشعر الجيد ويساجل الشعراء يكتب ويؤلف ويفتى الفتاوي العلمية . . .

تطوان : عبد القادر العافية

التعاليق :

1) عن جيش احمد المنصور ارجع الى مناهل الصفالعبد العزيز الفشتالى ، والى نزهة الحادي للافرانى .
2) الاسم الكامل للكتاب : (مناهل الصفا فى مآثرموالينا الشرفا) . نشرته وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامة والثقافية بالرباط سنة 1972 بتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم .
3) مناهل الصفا ص : 171 .
4) نفس المصدر ص : 187 .
5) نفس المصدر ص : 188 .
6) نفس المصدر ص : 190 وكان الناصر قد خرج من ميناء مالقا باسبانيا ونزل بمليلية يوم 1595/5/9 م بعد ابحاره بيومين ومنها اعلن ثورته .
7) نفس المصدر ص : 191 .
8) الآية 96 من سورة الاعراف .
9) الآية 11 من سورة الرعد .
10) كتابه نوازل ابى الحسن على الشريف العلمى الشفشاونى ج ــ 2 ــ ملزمة : 35 .
11) ج ــ 2 ــ ص : 111 من شرح العمل الفاسى للسجلماسى الرباطى .
12) مرآة المحاسن ص : 84 .

لو عاد العرب الى الاسلام

للدكتور عبد السلام الهراس

الشكوى فى كل مكان من العرب لانهم تخلوا عن قيادة العالم الاسلامى عندما تخلوا عن الاسلام وراحوا يستوردون المبادىء من هنا ومن هناك فرهنوا انطلاقاتهم فى متاهات وسراديب لم تحقق لهم نهضة ولا تحررا ولا كرامة ولا اى شعار من الشعارات التى قاموا برفعها منذ زمان او اقدموا على تجديدها وتغييرها منذ خمس وعشرين سنة ! ! **انما كان الحصاد الكبير** مزيدا من التمزق والانشقاق والتناحر والخيبات المريرة والتجارب الفاشلة والاضطرابات الاجتماعية والنفسية والفكرية والتأخر نحو الوراء بخطوات واسعة والاستسلام لقيادة العدو وهيمنته ! !

وقد أصاب اخواننا فى العالم الاسلامى ويلات وكوارث نتيجة لتخلى العرب عن قيادتهم ورسالتهم وانهم الآن يعانون من ذلك اشد المعاناة ولذلك فهم يصرخون بالعرب دائما : ((**أن قودونا نحو وحدة اسلامية شاملة فى ظل حضارة جديدة . . .**)) وفى رحاب اجتماعات المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة الذي انعقد فى المدينة المنورة بدعوة من الجامعة الاسلامية والذي حضره ممثلون عن سبعين دولة ، كان المؤتمرون يتدارسون مشاكل الدعوة الاسلامية فأدلى كل مندوب برأيه ، وعندما أعطيت الكلمة لعالم من علماء نيجيريا قام الرجل فى وقار واطمئنان وعلى وجهه مسحة من الحزن وملامح الجد والصرامة والاعتزاز ، وقال للمؤتمرين بلسان عربى مبين: «ان سبب مشاكل الدعوة الاسلامية ، وسبب بلاء المسلمين بافريقيا هم العرب لانهم قادة العالم الاسلامى ورئة جسم العالم الاسلامى وقلب العالم الاسلامى ، هم قدوة افريقيا وغيرها ، لذلك يجب اصلاح العرب قبل كل شىء ليكونوا فى مستوى المثل الاعلى ويكونوا اهلا للقيادة والاتباع ، وعلينا أن نناشد بقيام دولة اسلامية فى البلاد العربية تساندنا ونساندها وان امكانات ذلك لموجودة ولكن العرب فى واد والاسلام فى واد وتلك مشكلة افريقيا وبلاد المسلمين معا » .

صرخة صادقة ومفعمة بالالم وكثيرا ما سمعنا مثل هذه الصرخات تدوي فى آفاق العالم الاسلامى ناشدة العرب أن يضطلعوا بدورهم القيادي والحضاري لانهم مادة الاسلام وربابنة سفينة النجاة .

ولقد ادرك اعداؤهم مدى ما ينطوون عليه من استعدادات قوية للخير وما يملكون من امكانيات مادية وبشرية وفكرية ودينية واستراتيجية فانبروا اليهم فى تخطيط ماكر واسلوب مرن شيطانى ونفس طويل للحيلولة بينهم وبين توظيف تلك الاستعدادات وتركيب تلك الامكانيات تركيبا خلاقا مبدعا فكان ان هجموا عليهم تلك الهجمات الشرسة واستطاعوا ان يوجدوا فى بلاد المسلمين تيارات ومعسكرات تخرب الامة من الداخل بحماس بليد وفكر اعمى وضبعة مطبقة ! واهم ما حققه أعداء الاسلام انهم أفقدوا الكثيرين منا الاحساس الصادق بالخطر والنظر السديد فى الامور فأوغلوا فى بيد ساحقة يبحثون عن الحلول ويتلمسون

المخرج من المآزق التى وقعوا فيها فما يزيدهم ذلك الا مضاعفة للضلال . ومن أخطر ما استقر عليه كثير من العرب أنهم « آمنوا » بمجموعة من الافكار الخاطئة صاغها لهم اعداؤهم فى نهاية القرن الميلادي الماضي وخلال هذا القرن .

ورغم انكشاف الحقائق واعتراف العدو بمدى مسؤوليته عن تلك الافكار وترويجه لها بجميع الوسائل ومدى ما حققته له من اهداف وفوائد فى بلاد العرب فان العقول المخدرة والارادات المستسلمة والارواح الآسنة غير قادرة على التنبه واليقظة والتخلى عن الضلال وتحويل الاتجاه نحو سبل لاحب ومحجة بيضاء ليلها كنهارها ، فالزيغ الكفري والاديولوجى فى بلاد ناليس ناتجا عن شك علمى وبحث عن الحقيقة واستقصاء للوسائل الناجعة ، وانما مرده الى فراغ فكري وروحى وانعدام المناخ الثقافى الذي يضطلع بتغذية الفرد والجماعة وطبعهما بطابع مميز قادر على النماء التحرري والعطاء والمواجهة فى حصانة وقوة . والحقيقة التى يجب الاعتراف بها واعلانها ان جل الحركات الايديولوجية التى قامت فى بلاد العرب كانت اعجز من ان تملأ هذا الفراغ بايديولوجية تقدم فى النفس العربية تلك الشرارة المقدسة والشعلة الحضارية التى تصنع المعجزات وانما اعتمدت على « كلام » و « شعارات » و « شكليات » تافهة لم تستطع واجهاتها المزخرفة والملونة احيانا ان تخفى سماتها التخلفية ، لان الكثير منها نشأ من اول وهلة نشأة منحرفة وفى أحضان الجامعة الامريكية واليسوعية وفى مناخات خاصة ، وتعتبر بعض تلك الحركات من اهم منجزات الاستعمار الفكري الذي استهدف ايجاد « صياغات » محلية لها شكل فكر وشكل فلسفة وشكل ايديولوجية ولكن لتؤدي الوظيفة التى من اجلها أوجدت فوجودها وحياتها وتطورها مرهون بتحقيق غايات وأهداف موضوعية محددة من طرف المتحكمين فى جهاز التوجيه وازرار التحريك .

وما نشاهد الآن من تبعية مطلقة للفكر المخرب ومن حماس للهزائم وتكريس للهوان وافتخار بالانتكاسات وحرص على التناحر واشادة بالغدر دون أن يكون ثمة ردود فعل صحيحة لدليل واضح على ان التخدير بلغ اقصى فاعليته والمؤامرة آتت من النتائج اكثر من المتوقع وأسرع من المنتظر ! ! وهكذا اصبح الفراغ المملوء بالفكر الجاهل الرجعى المتخلف هو المناخ السائد فى بلاد العرب مما اتاح للافكار المضادة التسرب بجميع الوسائل الى عقول الناشئة المتطلعة الى تحرير بلادها وتخليصها من التخلف فتصدت للعلاج فكرا او ممارسة وهى عبارة عن جهاز يديره العدو كما قال اخيرا بعض الشخصيات الكبيرة التى استطاعت فى بعض نوبات الوعى التخلص من كابوس التخدير ! ! وهكذا اصبحت القيادة الفكرية فى بلاد المسلمين متجهة بولائها وتبعيتها لفكر غريب لم يقدر أن يحررها من أسباب تخلفها التاريخية والجديدة ، ذلك واقع لا يكابر فيه احد ينشد الحق ، ولهذا الواقع انعكاسات خطيرة فى ترسيخ بعض المسلمات والمرتكزات الاخلاقية والسلوكية بل والقواعد العلمية — زعموا — . وهكذا اطمأن هذا الفكر الى واقعه الآسن ، بل صار يقدسه كاهم منجز انجزه مما جعله فى بفكر أصيل مبدع ذلك الفكر الذي تمتد دعوته الى الحقيقة بعيدا عما هو مطلوب منه من قيادة وريادة آفاق ابعد من المحيط واقصى من الخليج امتداد الزمن والمكان ، لانه فكر انساني عالمى شمولى خالد متفتح ثابت الاسس متين المبادىء متجاوب مع الفطرة ونزوع الانسان نحو الكمال . فالعرب اليوم بين أمرين بين ان يظلوا تائهين حتى تنطفىء فيهم آخر شرارة من حضارتهم فيندثروا كأمة لها رسالة ويصبحوا فى عداد الشعوب المندرسة وأما ان يراجعوا انفسهم ويصححوا انطلاقاتهم ويغيروا ما بأنفسهم وحينئذ يستعيدون دورهم التاريخى العظيم .

ولو عاد العرب لهذا الفكر لاسلس لهم العالم الاسلامى مقاده ولاتجهت نحوهم العواطف والقلوب والعقول ولأعادوا للمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس ما كان لها فى قلوب المسلمين فى العالم الاسلامى عبر تاريخهم الطويل ولجعلوا العالم يواجه امة عظيمة تربطها كلمة واحدة من سيبريا الى جزر القمر . لقد كان امل عودة العرب الى دينهم ضعيفا اثر انهيار الخلافة العثمانية واحتلال ما بقى من بلاد المسلمين ولكنه اليوم قوي ومشبوب لما نلاحظ من دلائل دامغة على ان خلاصنا الشامل هو فى هذه العودة وبعدما لمسنا ما للاسلام من قوة فى ايجاد الجندي القوي والفكر العميق والاقتصاد السليم والعافية التامة ، لقد كان الاسلام وراء الثورات العظيمة فى تاريخنا ولا نزال نرى تأثيره فى الحرب التحريرية البطولية فى ارتيريا والفلبين والمقاومة الفلسطينية المؤمنة فى الداخل والخارج ، والاسلام هو الذي كان وراء بطولة الجندي المسلم فى حرب رمضان التى أجهضها الفكر السبائي (نسبة لعبد الله بن سبأ) وحال دون تحقيق أهدافها ، والاسلام هو

الذي جعل العالم الاسلامي ، على تمزقه وضعفـــه صفا واحدا في المحافل الدولية .

والاسلام هو الذي كان وراء التجربة المصرفية الرائدة في دبي ، والاسلام هو الذي ايقظ في نفوس المسلمين هذه الجذوة الخالدة المتقدة وذلك التطلع القوي نحو التحرر والتضحيات غير المشروطة . ان على العرب ان يعودوا الى يوم « جمعتهم » اذ لم ينفعهم « سبت » اليهود ولا « احد » النصارى ولا يوم من ايام المشركين ان هذه البلبلة الفكرية والتيـه العقائدي والترقيع الايديولوجي انما هو استمرار في الضعف وتثبيت لعوامل التمزق والفرقة خداع والسباق وراء المصطلحات وتغيير المفاهيم وتخليط المعالم « انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم اللـــه فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء اعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين » .

ان المجهودات الجبارة التي بذلتها العرب في بناء حضارة جديدة ونهضة قوية تذهب دائما ادراج الرياح ، ذلك لان البناء على غير أساس والانفاق عن غيـر تخطيط علمي عملي وان الفكر الذي اعتمدناه الى الآن فكر ضرار اشاعوه في الناس تفريقا بين الاخـــوة وارصادا للعدو . « افمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من اسس بنيانه على شفـا جرف هار » وكل فكر يقود الى الهزيمة فهو فكر مهزوم .

ان قوانين الله صارمة وقد استخلف سبحانـه عدة أمم فنصر من استحق النصر وهلك من استوجب الهلاك واستبدل اقواما بآخرين ولم يضروه شيئا وها هو سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب ليكونوا قادة هذا الدين ودعاة هذه الحضارة على أساس توحيد الله واتباع نبيه صلى الله عليـه وسلم وهم في ذلك مختبرون فان احسنوا القيادة احسنوا لانفسهم اذ ضمنوا لها العـزة والكرامة وان اساؤا لانفسهم . « ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليومنوا كذلـك نجزي القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائق في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون » . وقد خلق من بعدهم خلق يحاولون تغيير رسالتهم وقرآنهم فأصبحوا تماما يصدق عليهم ما صدق على أوائلهم قبل الاسلام . « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنـا ائت بقرآن غير هذا قل ما يكون لي ان ابدله مـن تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبلـه أفلا تعقلون » فهلا يعقل عرب اليوم فيصبحوا بذلك قادة عالم جديد له من الامكانيات ما يجعلهم اعظـم دولة في العالم ، فانه ليس بينهم وبين ذلك الا ان يكونوا صرحاء مع أنفسهم فيستجيبوا لنداء المسلمين الملحاح وعندئذ يستحقون من الله ما يرجون .

فـاس — الدكتور عبد السلام الهراس

المغرب الحديث:

الاختيار الدبلوماسي المغربي

للاستاذ زين العابدين الكتاني

ان الخصائص التى تلعب دورها المستمر منذ قيام الكيان المغربى وتركيز اختياره الديبلوماسى الذى ميز هذه الديبلوماسية باسس تجعلها دائما تزداد تبلورا وتفتحا محافظة على اختيارها الاصيل، مباهية بعمق اصالة هذا الاختيار، وقدرته المنسجمة مع تطور العصور والاجيال هى التى تتحكم فى هذه الخصائص بل وتعطيها طابع اصالتها باستمرار كعوامل طبيعية هى نفسها اساس هذا الاختيار وعمقه الذى حافظ على توازنه وقدرته عبر جميع التطورات والمراحل التى تقلب فيها المغرب.

وترتكز هذه الخصائص على :

اولا : كون المغرب الاقصى يوجد بين بحرين عظيمين هما المحيط الاطلسى والبحر الابيض المتوسط، ثم وقوعه فى مركز جعله نقطة التقاء بالنسبة لقارتين اوربية وافريقية بالاضافة الى وجوده فى نقطة من ابرز نقط تفرض عليه باعتبار افريقيته صلة وصل فى العالم المحيط به.

ثانيا : وهو ايضا كبلاد زراعية غنية خصوصا فى حياض انهارها التى تغطى كل جهاتها وسهولها الواسعة الممتدة فيما بين المحيط وجبال الاطلس بالاضافة الى انها بلاد غنية بتربية المواشى، وبمواردها الاولية ومعادنها، وطاقات ابنائها الخلاقة.

ثالثا : وما يمتاز به من جمال يتجلى فى تنوع مناظره الطبيعية الساحرة، والاثار المعبرة عن تاريخ عريق مجيد، بالاضافة الى المناخ المعتدل، والهواء الطيب والغابات الفاتنة، وتنوع المصطافات الجبلية والساحلية فى طول البلاد وعرضها.

رابعا : وطابع الاستقرار والتعقل الذى يطبع المواطن المغربى من حيث هو، وتأثير هذا الاستقرار والتعقل على طابع الحياة العامة مما يميز البلاد المغربية فى مختلف عصورها بميزة الشخصية المتزنة التى تحبب المغرب لضيوفه، وتبعث الرعب فى نفوس الذين يضمرون له شرا، او يفكرون فيه ..

ولذلك فان الاختيار المغربى المرتكز فى المجال الديبلوماسى على عدم التبعية وعدم الانحياز منذ تاسست الدولة المغربية لم يقم على اختيار عفوى او اختيار وقتى انتقالى، ولكنه ارتكز على اختيار ظل دائما يتسم وباستمرار بالحيوية الايجابية والحرص على التأثير فى ما جريات الامور، تعبيرا عن شخصيته المميزة، وتاكيدا لها وتدعيما لكيانه الدولى من جهة، ومحافظة على استقلاله وسيادته من جهة ثانية.

ولقد ظل هذا الاختيار دائما هو اختيار المغرب بالرغم من التطورات والانقلابات التى شهدها وعاشتها وحدته فى مختلف اطوارها الى ان تعرض فى نهاية القرن التاسع عشر الى تنافس الدول الاستعمارية فسقط سنة 1912 فى يد الاستعمار بعد تقسيم وحدته الترابية بين الدول المتنافسة.

لكن، هل انتهت العلائق الخارجية بين (المغرب والمحيط الاسلامى، بل والمحيط العالمى العام ؟ وهل تغيرت وحدة البلاد بهذا التقسيم .. ؟ ثم وهل اقبرت الدولة المغربية بنفوذها الخارجى ؛ وديبلوماسيتها



سنة 1969 كان اول لقاء للقمة الاسلامية بالرباط

المستقلة القوية الممتازة ؟ او عرف المغرب كيف يحافظ على ذلك ولو بعد أن تعثر قليلا ؟ .

لقد اصيب المغرب بالاستعمار الدولى، واصبح فى تلك الظروف الدقيقة «دولة بدون قانون»، ومن هنا تيسر لاول التنافس الدولى (1) على المغرب ان تقتسمه وان تسكت منه الصوت الحر ولو قليلا بعد ان وزعته الى مناطق وجيوب، واصبح ينقسم الى مناطق وجيوب (2).

لكن المغرب لم يسكت كما شاءت تلك الدول، ولن يسكت ابدا، بل عرف كيف يحافظ على مركزه الخارجى سواء فى المحيط الاسلامى او الدولى، وقد انكشف هذا الحفاظ اثر حوادث غشت 1953 التى اعتدى فيها على مركز السيادة المغربية فكانت خير مثال لنا على بقاء تلك العلائق قائمة ومركزة والتى عادت الى مجراها الطبيعى الاصلى اثر اعلان استقلال الاجزاء المحررة فكان على الديبلوماسية المغربية الفتية ان تواجه :

1 ـ تركيز علاقات ديبلوماسية واقتصادية وثقافية مع مختلف دول العالم.

2 ـ وان تصفى عددا من المشاكل المعلقة بين المغرب وفرنسا وبين المغرب واسبانيا على الخصوص.

3 ـ وان تحتل مكانها فى المجال الدولى.

4 ـ واجلاء الجيوش الاجنبية المرابطة.

5 ـ وتصفية القواعد العسكرية الاجنبية.

6 ـ استكمال الوحدة الترابية للمملكة المغربية.

7 ـ وان تتخذ موقفها من الاحداث والقضايا الدولية الكبرى مستهدفة فى مواقفها هذه التوفيق بين مقوماتها الاساسية ومصالحها وبين مقتضيات السياسة العالمية وميثاق الامم المتحدة ومبادىء القانون الدولى .

8 ـ وان تتخذ موقفا من الحرب التحريرية فى القطر الجزائرى الشقيق.

ولقد امتاز اسلوب محمد الخامس للانطلاق بالديبلوماسية المغربية بعدة صور ديبلوماسية خاصة تميزت بعدد من اللقاءات الرائعة التى لعبت فيها الديبلوماسية المحمدية اروع صور يحتفظ بها تاريخنا المعاصر ،. ونأخذ صورتين كنموذج للقاءات خالدة فى تاريخ ديبلوماسية محمد الخامس ، كان لهما اكبر الاثر فى خلق الديبلوماسية الحديثة هما :

اولا : لقاء آنفا بالدار البيضاء.

ثانيا : وكانت الرحلة الملكية الى فرنسا (عملا ديبلوماسيا ممتازا فى تاريخ المغرب، وضع به جلالة الملك قضية البلاد على بساط البحث، وناقشها مع الدوائر الفرنسية المسؤولة : وزارة الخارجية ورئاسة الوزراء، ورئاسة الجمهوريةوكانت محادثاتومناورات وكان اخذ ورد وتبادل وثائق، واخراج القضية المغربية من اطارها الضيق الحالى الى اطار أوسع، واعم واشمل (3) .

بوادر العهد الحسنى :

ولن نتخطى عهد محمد الخامس رضى الله عنه الذى ركز نشاطه الخارجى لبعث الديبلوماسية المغربية، واعادة تأسيسها وافراغها فى القالب الذى يصل الحاضر بالماضى والمستقبل طبقا لما سجلته المعركة الكبرى وظروفها مما اكد استمرار الثورة وحقيقة جدورها، فطبع عهده بطابع هو طابع الديبلوماسية المحمدية (سنة1956 حتى1959) لكن محمدا الخامس الذى بعث المغرب الجديد كان يعلم ان بعث الديبلوماسية المغربية الجديدة وحده لا يكفى، ولهذا فلم يفارق جلالته الحياة سنة 1961 الا بعد ان ركز خطوط مستقبل ديبلوماسيتنا فى الخطوط التى ارتكزت عليها من بعد.

وهذا التخطيط قد يظهر وكأنه نتيجة لظروف عفوية فى عمومه اذا علمنا ان خطوط هذه الديبلوماسية قد ركزت فى مظهرين واضحين وعميقين هما :

اولا : الرحلة التى قام بها جلالته لدول الشرق العربى (فى مارس 1960) وخرج منها بنتائج هى اروع مثال يمكن ان ترتكز عليه قدرة هذه الديبلوماسية الفتية

---

(1) المانيا وايطاليا وانجلترا وفرنسا واسبانيا.

(2) كتاب : (الديبلوماسية المغربية فى عشر سنوات) لوزارة الخارجية.

(3) جريدة (الرأى العام) ع : 176 ـ س : 4 ـ 17 نوانمبر 1950 ص : 1



. . . ويلتقي المغرب سنة 1951 بمجموعة دول أمريكا اللاتينية بالرغم من ضراوة المعركة

حيث عاد جلالته وبيده ستة بلاغات رسمية مع رؤساء الدول العربية التى زارها تستهدف الى أن وحدة المغرب ــ جزء لا يتجزء ...

وهذه الظاهرة قد ركزت حقيقة المفهوم الدبلوماسي الحقيقى الذى يركز الوجود الوطنى فى شموليته ووضوحه.

ثانيا : ويهضم العالم الخطوة الاولى لانها تحمل اشياء تؤكد اصالة هذه الديبلوماسية ، وتستمر الخيوط الجديدة فى النسج عند جلالة الملك الصالح فيشعر بأن الاسلوب الذى خطه المغرب ما بين سنة (1956 الى 1961) اصبح يرتكز على بعث اسلوب آخر، اسلوب يعيش مع الاحداث المقبلة التى يطل عليها المغرب فيدعو جلالته الى عقد مؤتمر للدول الافريقية المتحررة لان المستقبل يؤكد ان افريقية على ابواب دخول حياة جديدة كقارة متحررة تنشد التخلص والانطلاق ..

وفى نفس هذا التخطيط انعقد مؤتمر الدار البيضاء ليحدد جلالته فى وضوح الاهداف الحقيقية للمغرب الافريقى فى النقط التسع التى استهدفها جلالته فى الخطاب الافتتاحى للمؤتمر.

« لقد كان بودنا ان يكون نطاق هذا المؤتمر اوسع فتشترك فيه جميع الدول الافريقية لان الحركة الافريقية واحدة، ومصيرها، ومطامع شعوبها واهدافها مشتركة بيننا جميعا » .

ويقول بعد ذلك واضعا ومحددا للديبلوماسية المغربية الافريقية خطوطها العريضة مؤكدا ضرورة :

1 / (القضاء على النظام الاستعمارى وذلك بتحرير الاجزاء التى لا تزال مستعمرة بافريقية تحريرا حقيقا).

2 / القضاء على العنصرية بجميع مظاهرها ونظمها.

3 / محاربة الاستعمار الجديد فى جميع اشكاله ومختلف الوانه، وفضح اساليبه التضليلية الجديدة.

4/ دعم استقلال الاقطار الافريقية المحررة والدفاع عنه.

5 / تشييد الوحدة الافريقية.

6 / اقرار سياسة عدم التبعية بالاقطار الافريقية.

7 / انهاء كل احتلال لافريقية ومنع استعمالها ميدانا للتجارب الذرية.

8 / معارضة كل تدخل اجنبى فى الشؤون الافريقية.

9 / العمل على تثبيت دعائم السلم العالمى .. (4)

ولا تلزم الديبلوماسية المغربية فى عهد محمد الخامس (رحمه الله) اسلوبا معينا بذاته، ولكن هذه الديبلوماسية قد التزمت اسلوبا جديدا، وتفكيرا مستقلا يرتكز على بعث الديبلوماسية المغربية الجديدة فى المغرب الجديد محافظة على نفس الاختيار ونفس الاتجاه للانطلاق والبناء.

وبالرغم من أن المغرب الجديد ابتدا هذه الديبلوماسية وهو مؤمن ان هذه الديبلوماسية تحتاج منذ اللحظات الاولى الى :

- خلق الظروف الديبلوماسية.
- بعث الديبلوماسية.
- تهيىء الفكر الديبلوماسى.
- البحث عن الديبلوماسية المغربية الجديدة.

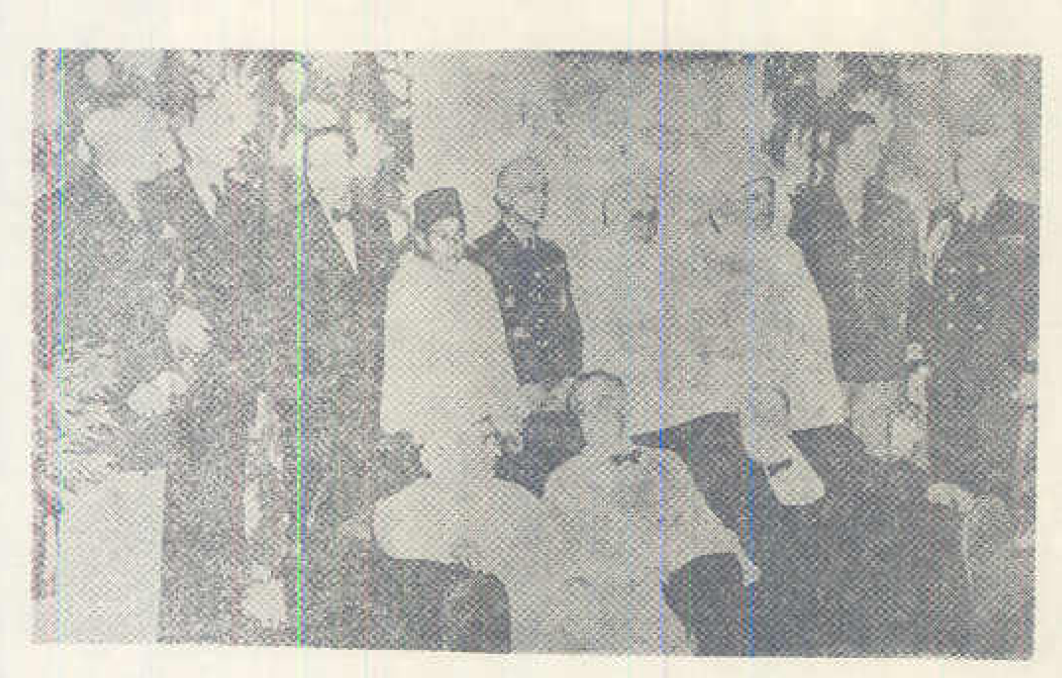
فان هذا ما تؤكده المواقف التى وقفها المغرب منذ 2 مارس 1956 فى المجال الدبلوماسى، وهذا بالذات مايجعلنا نلاحظ ان الديبلوماسية المغربية فى عهد محمد الخامس (رحمه الله) كانت لا تلتزم اسلوبا معينا بذاته ولكن هذه الديبلوماسية قد التزمت اسلوبا جديدا، وتفكيرا مستقلا كان كل همه بعث الديبلوماسية المغربية الجديدة فى المغرب الجديد.

مدخل للعهد الحسنى :

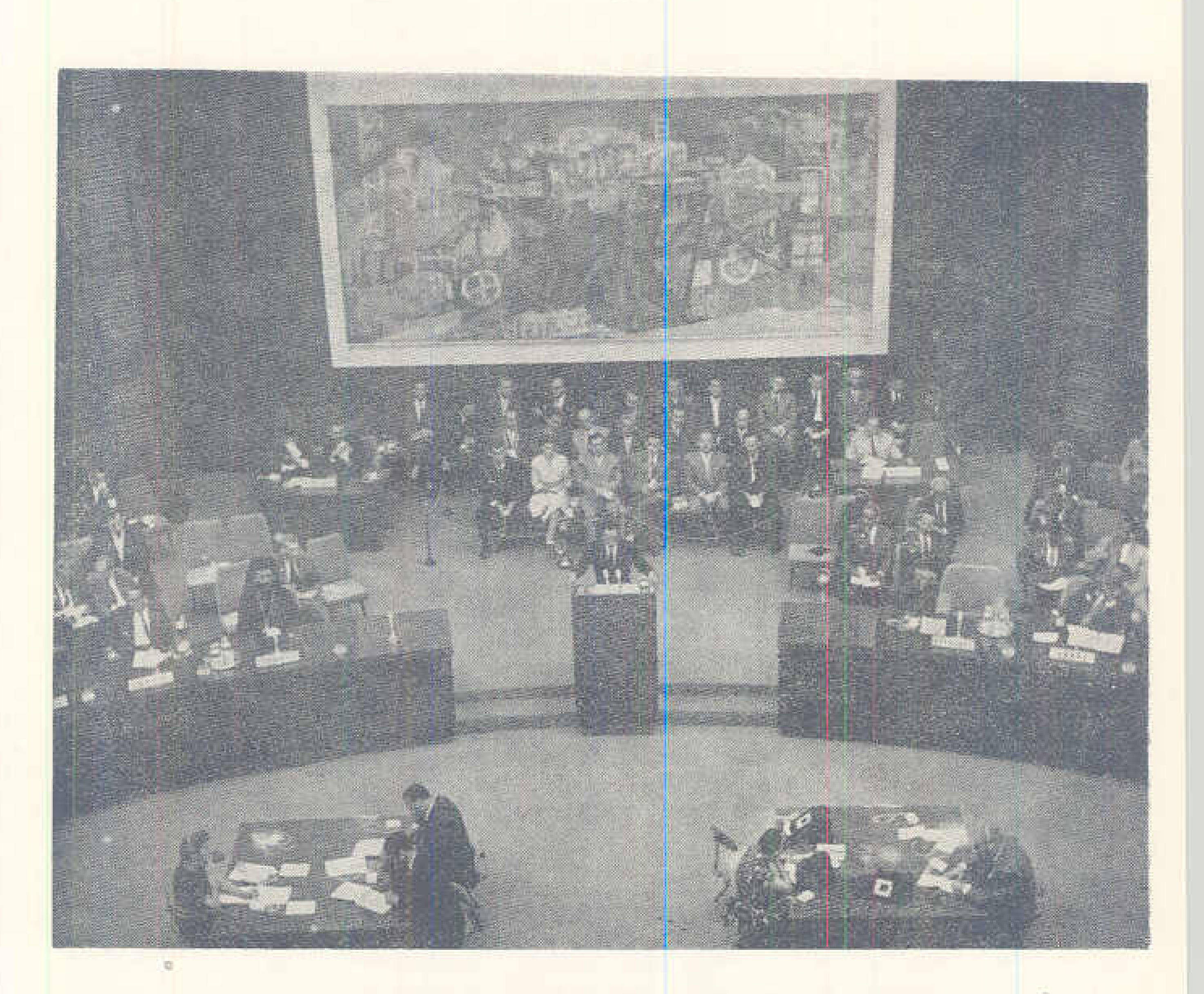
واذا كانت وفاة محمد الخامس رضى الله عنه) المفاجئة قد اقترنت بانتهاء فترة جديدة بخصوص الديبلوماسية المغربية، وهو انعقاد مؤتمر الدار البضاء الافريقى باعتباره اول لقاء بين افريقيا والدول

---

(4) مؤتمر الدار البيضاء بالمغرب انعقد من 3 الى 7 يناير 1961.



لقاء آنفا سنة 1943 كان خطوة هجومية للدبلوماسية المغربية . . .



لقاء بلغراد لدول عدم الانحياز سنة 1961 كان أول خط فى الدبلوماسية الحسنية . .

العربية فان هذه الفترة تعتبر الظرف الواضح لرسم معالم الديبلوماسية المغربية في المغرب الجديد وهو ما يعني في وضوح ان المغرب قد قطع خطوات خاصة وان نتائج هذا المؤتمر خدمت الديبلوماسية المغربية في العمق، وفتحت لها نوافذ على عالم اليوم ..

وتطورت الاحداث الدولية بسرعة .. فانعقد مؤتمر دول عدم الانحياز (5) ولكن ليلتقي في هذا المؤتمر المغرب الديبلوماسي بفرصة جديدة هي انعقاد المؤتمر بيوغوسلافيا بحضور المغرب فيفتح المغرب آفاقا جديدة في المجال الديبلوماسي المغربي فيحدد مفهوم المغرب الجديد بوضوح مؤكدا (ان حيادنا لا يعني الانعزال او اللامبالاة بالنسبة لجزء من البشرية، بل هو على العكس من ذلك يعني قبول كل ما هو عادل، وحق في نطاق الفكر البشري وانه حياد نشيط وحي، ولا يستهدف سوى انقاذ القيم الانسانية، واقرار السلام والتقدير بين الجنس البشري) (6) .

واذا كان المؤتمر الجديد بادرة مهمة فان الديبلوماسية المغربية قد سجلت استمرار الخطوط العامة التي اختارها المغرب وهو يؤسس هذه الديبلوماسية الحديثة ويؤكد هذا الراى ان جلالة الحسن الثاني عندما حضر المؤتمر وترأس بعض جلساته أوضح كثيرا من خطوط ديبلوماسيتنا المتحررة ، فقد أوضح هذه الخطوط :

1 = التزام المغرب لروح الديبلوماسية المغربية المتزنة التي لا تتأثر بالاحداث الدولية العابرة وبظروف الانتقال التي تسيطر اليوم على ديبلوماسية كثير من الدول النامية وغيرها ممن يتأثرون بالتطور المعاكس وبالتيارات الوقتية ..

واذا تذكرنا حوادث الحدود المغربية الجزائرية وذكرنا التدخلات الاجنبية بالنسبة للوضع والظروف التي كان يوجد فيها المغرب والموقف الذي التزمه وهو يقف للدفاع المجرد .. استطعنا ان نوضح ماذا نقصد بالتزام روح الديبلوماسية المغربية المتزنة التي لا تتأثر بالاحداث العابرة والوقتية.

2 = الاسلوب المتحرر الخاص في الاتصال المباشر او غير المباشر مع كل الذين دفعتنا ظروفنا الدولية الى الاتصال بهم بطريقة او باخرى.

وهكذا نكون قد التزمنا باختيارنا الديبلوماسي في اتزان مضبوط ولو ان عودة ديبلوماسية المغرب قد اتخذت من أول وهلة موقفا واضحا يناصر الشعوب المغلوبة، ويؤيد حقها في تقرير مصيرها بنفسها، ويستنكر كل وسائل العنف والقمع المسلح المتخذة ضدها باي اسلوب كان ..

في الوقت الذي اصبح فيه الخلاف على اشده بين المعسكرين الشرقي والغربي والحرب الباردة تملأ جو العالم بالتوتر، والايولوجيات المتناحرة تتنازع السيطرة على العالم ويتحكم في دول العالم الثالث البؤس بكل مظاهره، والتخلف بكل اشكاله.

وهذا الوضوح هو ما يشير اليه بالخصوص كل من الزيارتين اللتين قام بهما جلالة الملك الحسن الثاني الى روسيا (7) وامريكا (8) .. وعبرت للعالم في وضوح ان المغرب منذ ان تسلم مقاليد شؤونه الخارجية حدد لنفسه في ميدان العلاقات الدولية سواء على الصعيد الدولي او على صعيد المنظمات سياسة محددة في اهدافها مخططة في وسائلها مستهدفة في طرق عملها. واذا ما أردنا أن نجمل القول بالنسبة للديبلوماسية الحسنية فان المغرب قد سلك طريقا، والتزم مبادىء واضحة تتلخص في :

- احترام المواثيق والتعهدات الدولية.
- والحرص على عدم التدخل في الشؤون الداخلية للامم الاخرى.
- والتعاون معها في غير تبعية.
- ومناصرة الشعوب المطالبة بحقها في الحرية والاستقلال .

---

(5) انعقد في بلغراد من 1 /6 سبتمبر 1961 وترأس وفد المغرب صاحب الجلالة الحسن الثاني.
(6) خطاب جلالة الملك في المؤتمر الاول في بلغراد سنة 1961.
(7) من فتح ابريل الى السابع منه 1969.
(8) من 8 الى 18 ابريل 1966.



المغرب سنة 1906 فى مؤتمر الجزيرة الخضراء ينتزع الاعتراف بوحدته . .

– وادانة الميز العنصرى بجميع الوانه .
– والنفور من العنف، والنزاع المسلح فى حل المشاكل التى تقوم بين دولة واخرى.
– والنزوع الى التفاوض والوسائل السلمية.
– والمطالبة بجعلحد للتسلح والتجارب النووية.
– وتحمل نصيب من اعباء الرسالة العربية والافريقية طبقا لما يفرضه الواجب.

وهكذا ففى الوقت الذى يعمل فيه المغرب لبلورة الاسلوب الديبلوماسى فهو يحافظ فى نفس الوقت على سلوك الطريق المرسوم الذى يلتزم فيه كما قال جلالة الحسن الثانى : **(المبادىء التى جعلها والدنا المنعم اساسا للتعاون مع باقى دول العالم).**

ومن هنا نرى الخطوات التى تقطعها المغرب لبلورة اسلوبه الديبلوماسى الحسنى فى عالم اليوم، عالم التكتلات والايدلوجيات المنتمية الى انصبت على دولنا النامية ودولنا العربيةوالاسلامية. ولقد خرج المغرب من معارك متعددة، وقد طبع طريقه اسلوب مغربى واضح سواء بالنسبة للعاملين فى نطاق ركبهذه المعسكرات، فقد خرج المغرب وسيخرج منتصرا باسلوبه الخاص الصرف الذى سيظل مؤكدا ان الديبلوماسية الحديثة محددة فى اهدافها ووسائلها وطرق عملها .. ولا ننسى ونحن نحاول ان نقترب من تحديد آفاق الاسلوب الديبلوماسى الحسنى ان نؤكد ان ديبلوماسيتنا الفتية تواجه فى طريقها عاملين اساسين :

اولا : محاولة تركيز استقلال اسلوب الديبلوماسية المغربية.

ثانيا : تحقيق الوحدة الترابية للمملكة المغربية فى حدودها الحقة .

وبعد ، فاذا كنا نرى ان التزام هذا الاسلوب قد يبدو بالنسبة لطبقة الشبات وكانه اسلوب (عادىء) او (محافظ) فانه وكما اكدت التجربة والظروف اسلوب سيخرج بنا من مرحلة النمو دون ان يؤثر على اختياراتنا الاصلية، وذلك ما يظهر واضحا وجليا :

اولا : تركيز وحدة الصحراء المغربية المسترجعة بباقى أجزاء المملكة سواء على الصعيدين الداخلى والخارجى.

ثانيا : عندما اضطر المغرب الى توضيح موقف ديبلوماسى يتصل بعدم الانحياز بعد الانتصار الذى حققته الوحدة الزائيرية بمساعدة المغرب فاوضح (9) صاحب الجلالة عندما دعت الضرورة الدولية الى ذلك بما يلى :

« هناك مجال آخر هو مال السياسة الخارجية ، فالمغرب معروف انه لايزال متشبثا بمبدئه بعدم الانحياز ولكن علينا ان نفسر ماذا يعنى عدم الانحياز؟

عدم الانحياز يعنى انالانسان المغربى فىسياسته الخارجية عليه ان لا يركب طريق الفضول، فكل مشكل من المشاكل التى لا تهمه لا جغرافيا ولا عقائديا، عليه ان يبقى بمعزل وان لاينحاز الى جانب دون جانب نظرا لصداقة او نظرا لجوار.

ولكن اذا اصبح المشكل مشكل معتقدات او مشكل مبادىء، والمغرب متشبث بها وملتزم بها، اصبح المغرب غير منحاز، بل عليه ان ينحاز، وهذا ما دفعنا مثلا اخيرا الى ان نخوض غمار الحرب فى زايير ففى زايير مثلا انحزنا لصديقتنا زايير لا سباب متعددة :

اولا – لانها دولة معترف بها .

ثانيا – لانها طلبت منا المعونة .

ثالثا – لانها لو كانت فى خلاف مع دولة صديقة لحاولنا التدخل السلمى مع دولة صديقة، ولكن هذه الدولة الصديقة الشقيقة وجدت فى خلاف مع دولة تضمر لنا العداء، بل صرحت بمواقفها ضد مصالحنا فى الصحراء بل اعترفت فضائيا وحلما بما اعترفت به واصبح من الواجب على المغرب أن لايسكت ولا سيما ان تلك الدولة التى هاجمت زايير ارادت أن تدخل على قارتنا مذاهب لا يقول بها المسلمون ولا يقول بها العرب ، ونحن دولة اسلامية ولا يمكننا اذن ان لا نغير المنكر فى قارتنا بجانب صديقتنا اذا كان ذلك ممكنا » .

وهذا **التوضيح لايعتبر هو الاول من** نوعه ولكنه هو التوضيح الثانى، وهذا من ابرز اصالة الاختيار.

9 / خطاب صاحب الجلالة مساء يوم الاحد بالرباط (22 / 5 / 1977) .

أبو الفضل يوسف ابن النحوي المغربي

للأستاذ عبد الله الجراري

ابو الفضل من قلعة بنى حماد اصله من توزر ـ دخل سجلماسة وفاسا ـ ثم عاد الى القلعة، وبها توفى سنة 513هـ 1119م عن ثمانين سنة. اخذ صحيح البخارى عن اللخمى ـ وقد سأله ما اتى بك ـ قال ابو الفضل : لنصر تبصرتك. فقال له : تريد ان تحملنى فى كفك للغرب. يقصد ان علمه كله فيها ـ كما اخذ عن غيره كالمازرى وابى زكرياء الشقراطيسى.

كان من العلماء العاملين وعلى سنن الصالحين مجاب الدعوة حاضرا مع الله فى غالب امره ، له اعتقاد تام باحياء ابى حامد الغزالى. فعندما افتى الفقهاء بحرقها فى صحن مراكش ووصل كتاب سلطان لمتون بذلك انتصر وكتب للسلطان وافتى بعدم لزوم تلك الايمان، وتحليف الناس بمغلظ اليمين ان ليس عندهم الاحياء فعندما وصل كتاب رئيس الدولة بالتحريج ـ والتحريم ـ ذهب ابن حرزهم الى ابى الفضل يستفتيه فى تلك الايمان، فافتى بانها لاتلزم.

وتلكم ظاهرة نبيلة تبرهن فى جلاء على قوة ايمان الرجل، وثبات عقيدته ورسوخ يقينه فى الله غير مكترث للصولة والسلطة التى لاتجرى على موجب للحدود والمبادىء.

وان جرى نوعها بالشرق، وصدع بها عدة علماء ـ كالنووى، والعز بن عبد السلام ـ فمترجمنا ابو الفضل المغربى له فضيلة السبق فى الميدان ـ فضيلة قل من يتوفر عليها من علماء الشعوب ومثقفيها وقد نسخ ابو الفضل الاحياء ثلاثين جزءا وكان كل يوم من رمضان يقرا جزء قائلا : وددت انى لم انظر فى عمرى سواه (1).

وما جرأة فقهاء الدولة الذين كانت لهم الصولة فى الحكومة المرابطية الا نتيجة قصور وتزمت وجمود فى اطار ضيق من الفهم لمدلولات التشريع الصحيح ووقوف عند اقوال فقهاء لم تتسع صدورهم لادراك تعاليم الاسلام ومراميها المنشرحة.

كان الغالب على ابن النحوى العالم الصوفى الصادق الحضور والتعلق بالحضرة الالهية ، الرامى مفهومها الى كلمة تيوصوفى التى ذهب يون هامر Hon Hamer الالمانى الى اشتقاقه منها.

يقال انه بات عنده ضيف، فدخل فى بيت يصلى فيه، فكثر اللغط وارتفعت الاصوات فى الدار فقال الضيف لابنه : اما تشغلون خاطر الشيخ بهذا فى فى صلاته ؟ فقال له ابنه : انه اذا دخل فى الصلاة لم يشعر بذلك.

---

1) وهذا الاندفاع الغريب نحو كتاب الاحياء البالغ درجة انه لا ينظر حياته سواه ـ والسوى بالطبع قد يتناول احول الاحياء وينابيعها من كتاب وسنة، لكن الظن ابنى الفضل لا يتحمل هذا، رغم ما توحى به العبارة، او الشغف بمضامين الاحياء جعله يبالغ والامن حرج على مبالغ.

والغيبة هذه الصوفية هي غير السكر في اصطلاحهم الفني ـ حيث يغيب الشخص عن تمييز الاشياء ولا يغيب عن الاشياء ـ وهو ان لا يميز بين مرافقه وملاذه، وبين اضدادها في مرافقه الحق ـ فان غلبة وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه .

في هذه اللحظة تعجب الضيف من اقواله كالمنكر له ـ وعن كثب تناول الابن السراج وادناه من عيني ابي الفضل وهو في صلاته فلم يحس به لحضوره مع الحق وغيبته عن الخلق .

ومر به شخص وهو يمشي في طرق فاس فقال له اين الطريق الى سوق البقر ؟ فقال له : هو الذي تمشي فيه . وانشد :

ان كنت ادرى من اين آتـي
واين من حيرة امـر

فانـت يامركبـي حبـس
ويا غلامي فانـت حـر

فابو الفضل كما ترى يصارح السائل بان السوق المسئول عنها هي هذه يعني ما هما سائران فيه الآن فالمجموع فيها من بني الانسان لا يدرون اين اتوا واين يمرون ويذهبون لما علاهم من ذهول وركبهم من حيرة لحد جعل الشيخ ابا الفضل يصورها بصورة بقر ـ خطوب وهموم تفقد الانسان انسانيته فيصبح مسلوب التمييز فقد العقل يستطيع رائـه وضعه مكان العجماوات من الحيوانات.

« يغمى على المرء في أيام محنتـه
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسـن»

هذا يفكر في مصيره وذاك في ذريته واسرته، وآخر في الوسط الموبوء، ورابع في المجتمع وامراضه وكيف الوصول الى العلاج الناجع ؟ اشياء من اشانها ان تقلب الحقائق وتجعل الانسان غير الانسان .

يقول ابن الزيات التادلي في كتابه التشوف : حدثني يحيى بن عبد الرحمن قال : انشدني ابو العلاء ادريس بن محمد الكتامي عرف بابن الرمامة قال : انشدني ابو الفضـل :

اصبحت فيمن له دين بلا ادب
ومن له ادب عار من الديـن

اصبحت فيهم فقيدا الشكل منفردا
كبيت حسان في ديوان سحنون(1)

يشير الى البيت الذي لحسان في كتاب الجهاد من المدونة ونصه :

تهان على سراة بني لـؤي
حريق بالبويرة مستطيـر

فها نحن نرى الصوفي ابا الفضل يرثي لنفسه ويشفق من الحالة التي يعيشها ابناء شعبه لدرجة ان المتدين القائم بشعائره عار عن الادب بعيد عن الفضيلة في سلوكه وسيرته بل حسبه الاتيان بما وجب عليه اداؤه من طقوس دينية شخصية لا اقل ولا اكثر ـ ناس او متناس ما يجب ان يتحلى به من محامد ومكارم تجعله مرموقا بين ابناء الوسط الذي يعيشه منظورا اليه بعين التجلة والاكبار ـ وعلى العكس نراه يتأفف ويتالم من طبقات توفرت على سلوك طيب، وخلق حميد بيد انها في تبرم وابتعاد عن القيام بما فرض عليها من واجبات وما طولبت به في دائرة التعبد والاكثار من اعمال وتوجهات لله بل حسبها التظاهر بمظهر اللين والطيبوبة في التعامل مع البشر ، وليست كلا من الفريقين شرب من الكاسين فتعبد وتأدب ـ وعاش مترجمنا ابو الفضل ومن على شاكلته مستريح البال مطمئن القلب سعيدا برؤية ابناء امته سعيدا ظاهرا وباطنا.

انه ابو الفضل الذي يقال فيه: اعوذ بالله من دعوة ابن النحوي اذ كان مجاب الدعوة ـ جاء عن ابي الحسن علي ابن حرزهم ـ ان ابا الفضل كان يلبس البياض ـ فدخل عليه شاب من طلبة العلم فبادر يسلم عليه فاراق المداد على ثوب ابي الفضل من محبرة فخجل من ذلك فقال له ابو الفضل ـ رفعا للخجل عليه : كنت اقول : اي لون اصبغ به هذا الثوب ؟ فالآن اصبغه حبريا، فجرده وبعثه الى الصباغ.

وحدث ابو الحسن قال : اوصاني ابي ان اقبل يد ابي الفضل ابن النحوي متى لقيته، ولو لقيته في اليوم مائة مرة، فبعثني يوما اليه ليدعولي، فأتيته وقت غروب

---

(1) سحنون عبد السلام بن سعيد الشوخي مصنف المدونة التي عبر عنها ابو الفضل «ديوان سحنون» وعليها اعتماد اهل القيروان ت 240 ـ 854.

الشمس فوجدته يتوضأ — فلما فرغ من وضوئه نظرت الى الاناء كانه لم ينقص منه شيء. فلما غربت الشمس — اذن واقام وصلى وصليت معه، فلما اراد ان يكبر نظرت الى ثوبه الذى على كتفه فاذا به يتحرك حركة شديدة يسمع صوته من شدة الخوف ثم قرأ قراءة مبينة يسردها حرفا حرفا، فلما سلم دعالي فانصرفت الى ابى فحدثته وقلت له : رايته صلى عند غروب الشمس قبل الوقت الذى يصلى به اهل البلد، فاهوى الى بيده ولطمنى وقال لى : اتتكلم فى ولى من اولياء الله تعالى، وهل وقت المغرب الا ذلك الوقت الذى صلى فيه ابو الفضل، وانما الناس ابتدعوا فى التاخير عن ذلك الوقت، ثم امرنيابى أن احكيله فعل ابي الفضل من أولهالىآخره ففعلت فقال لامى وكانت حاضرة : هذا صبى نرجو من الله تعالى ان ينفعنا به فانه وجد بركة ابى الفضل وقد رايته حين دخل على، وعليه نور، فعلمت ان الله قد اجاب فيه دعوة ابى الفضل.

وحدث ابن ابى القاسم عن ابى على سالم قال : لما دخل ابو الفضل سجلماسة — امران ينزل فى دار قريبة من الحمام بعيدة من المسجد، فانكروا عليه ذلك غير متعمين النظر فيما يرمى اليه وسالوه عن ذلك فقال : خطاى الى حمام فى حق بدنى وخطاى الى المسجد فيها الاجر فاريد ان تكون كثيرة فاريد أن تكون قليلة ، سنكتب ما قدموا وآثارهم كما جاء فى القرآن — وفسر بالخطا الى المساجد ومن اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار وسبيل الله اوسع من ان يحصر

ومن الماثور عنه — انه لما عاد الى القلعة اخذ نفسه بالتقشف وهجر اللين من الثياب، ولبس الخشن من الصوف ، وكانت جبته الى ركبتيه .

فمر يوما بابى محمد بن عصمة ، وكان فقيه المدينة ومفتيها مشغول البال فى الذكر والتعلق حسب مشربه — فعظم ذلك على ابن عصمة، فلما رجع ابو الفضل ناداه ابن عصمة محقرا له : يا يوسف — فلباه ابو الفضل، واتاه فلم يسلم عليه ابو الفضل — وربما كان غائب الفكر، فقال له : ياتوزري صفرت وجهك ، ورققت ساقيك، وصرت تمر فلا تسلم —

فاعتذر له ابو الفضل، فلم يقبل عذره. واغلظ له القول فقال له ابو الفضل غفر الله لك. وحسبه قدوة فى هذه بالرسول الاعظم وكم لهذا العالم الناسك من كرامات وآيات تسفر فى عمقها عن مسلم ذاق حلاوة الايمان، وصفت مشاربه، واصبح من الذين لا يرون فى الوجود سوى الخالق جلت قدرته.

يقول القاضى ابو عبد الله بن على بن حماد : كان ابو الفضل ببلادنا كالغزالى فى العراق علما وعملا، ويقول فيه القاضى عياض — : كان من اهل العلم والفضل شديد الخوف من الله — غالب حاله الحضور معه تعالى — لا يقبل من احد شيئا انما يتعيش مما يأتيه من توزر.

الرباط — عبد الله الجراري

---

1) البويرة — موضع لبني النضير حرقه عليهم الرسول بعد غزوة احد بستة اشهر.

الشاعر الوزير محمد بن موسى (2)

دراسة في شعره

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

— (2) —

كان هذا ارهاصا ببزوغ فجر نهضة فكرية جديدة فى المغرب وخصوصا بعد ان عرف فى هذا الطور من حياته المطبعة التي جاءته من باريس عام 1859 م ، ومن مصر عام 1865 على يد قاضي تارودانت السيد الطيب الروداني حين ذهابه الى الحج ، وبعد ذلك اشتهر ما يسمى بالمطابع الفاسية التي كان مقرها بفاس والتي طبعت كتبا شتى فى كثير من الفنون (كنشر المثاني) للقادري و (الدوحة) لابن عسكر و (الانيس المطرب) للعلمي و (السلوة) للكتاني و (المحاضرات) لليوسي ، وغيرها مما لا نستطيع احصاءه هنا .

ومما يسترعي النظر بعد انتشار الطباعة ظهور جريدة بطنجة هي جريدة (المغرب) الاسبوعية سنة 1889 وبعدها صدرت جرائد مختلفة في مدن المغرب

واذا رحنا نبحث عن العوامل التي تضافرت على خلق المناخ للمعارف والثقافات ، وعلى رعاية الملكات، وتفتيق القدرات واغناء الامكانات فى أوائل القرن العشرين وجدناها تتبلور فيما ياتي :

1 — انتشار الصحافة وهي من نتاج المطابع التي انتشرت فى المغرب ، وكانت اول جريدة — كما سبق — صدرت فيه هي جريدة (المغرب) وذلك بمدينة طنجة ، وجريدة (المغرب الاقصى) سنة 1900 م ثم جريدة السعادة سنة 1905 م وغيرها .

2 — انتشار التعليم ويتجلى فيما سعى اليه المغرب ببعث الوفود الى اوروبا ، وتاسيس المدارس العصرية ، برغم ما كان يبذله الاستعمار من دسايس لعرقلة المساعي المغربية فى هذا الشان ، مما كان يدفع الشعب المغربي اليقظ الى انشاء المدارس الحرة فى الجنوب والشمال ، ولا يعزب عن بالنا — ونحن نتحدث عن انتشار التعليم — دور القرويين العظيم فى نشر المعارف والحفاظ على التراث الاصيل والمقومات الاسلامية ، وبث الوعي الاسلامي الحق ، والوقوف فى وجه الغزاة المستبدين قلعة حصينة قوية تتكسر على صخرتها كل المحاولات الاستعمارية الدنيئة .

3 — ظهور الدعوة السلفية بزعامة الشيخ أبي شعيب الدكالي (ت عام 1937 م) الذي حارب هو وتلامذته أمثال الشيخ محمد العربي العلوي (ت عام 1964) البدع والخرافات التي سادت المفاهيم وحادت بها عن القيم الاسلامية الحقة وعن التصور الاسلامي للحياة والانسان والكون .

4 — الاتصالات بالشرق عن طريق الكتب والمجلات التي كانت تحمل فى طياتها عطاءات رجال الفكر والادب مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده

ورشيد رضا والمنفلوطي وفريد وجدي والبارودي وشوقي وحافظ ابراهيم وخليل مطران وغيرهم .

5 ـ الاتصالات باوربا ، وذلك عن طريق الحماية التي فرضت على المغرب والتي اوقدت فى نفوس المغاربة الروح الوطنية المنبثقة عن عقيدتهم الاسلامية التي ترفض الاستكانة والظلم والاستبداد والطغيان ، وتدعو الى الثورة على سيادة الكفر على بلاد المسلمين كما اوقدت فى نفوس علمائه ـ وهم اهل الحل والعقد فيه ـ الحماس والغيرة على وطنهم الذي هو وطن الاسلام فهبوا للوقوف فى وجه الزحف الاستعماري الصليبي ، وغيروا مفاهيم فى البحث والنظر وتكيفوا ـ فى اطار عقيدتهم ـ مع ملابسات الظروف ، وحاولوا تطوير الاساليب فى التدريس والكتابة ومن بين اولائك على سبيل المثل محمد الحجوي الذي اصدر كتابه (الفكر السامي فى تاريخ الفقه الاسلامي) ومحمد السايح الذي أصدر اول كتاب للمنتخبات (1) الادبية للمدارس مترجما فيه لادباء مغاربة واندلسيين ، ومحمد اقصبي الذي اخرج اول كتاب مدرسي فى تعليم الكتابة والقراءة بالطرق التربوية الحديثة ، وغير هؤلاء ممن اضطلعوا باعمال علمية وادبية عادت على هذا العهد بالخير العميم ، فايقظت الهمم للاخذ بزمام الحضارة وفتحت العيون على ما يجري فى المحيط المغربي من تفاعلات اجتماعية وتمخضات فكرية التي كان لها الدور الفعال فى تهيىء الجواء المناسبة للجيل الصاعد حينذاك ليخوض هو الآخر الحياة الفكرية والسياسية من اجل تحرير البلاد من سيطرة الاجنبي .

وقد عرف شعرنا المغربي انطلاقا من هذه المرحلة وقبل مرحلة الاستقلال مدرستين اثنتين :

1 ـ المدرسة الاتباعية (الكلاسيكية) التي ترسمت النمط الشعري القديم شكلا ومضمونا وقد مثلها شعراء نجتزىء بذكر الشاعر الوزير محمد بن ادريس (ت عام 1264 هـ) الذي سجل فى شعره فيما سجل احتلال الجزائر فى قوله من قصيدة له :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم
الى الجهاد فما فى الحق من غلط

والشاعر الوزير محمد اكنسوس (ت عام 1294 هـ) الذي عالج فيما عالج فن النسيب فقال فى قصيدة له :

اذا عن تذكار الاحبة احياني
وان كنت اقضي منه فى بعض احيان

والكاتب ادريس بن محمد العمراوي (ت عام 1296 هـ) ومن الغزل عنده قوله :

علامة اضمار المحبة لا تخفى
ونار الهوى المحبوب فى القلب لا تطفى(2)

والشاعر ادريس السناني (ت عام 1319 هـ) ومن الوصف عنده قوله :

وروض يروق الناظرين بهيج
سيان فيه الزهر والزليج (3)

والشاعر محمد السليماني (ت عام 1344 هـ) ومن شعره فى الربيع :

بزغ الصباح فقم بنا
نقضي أويقات السرور

وبدت دواعي الانس فى الارجاء باهرة السفور (4)

والشاعر احمد المامون البلغيثي (ت 1929 م) من شعره قوله فى التشوف الى تونس :

شوقي الى تونس شوق قديم
قد طالما طارحت فيه النديم

---

(1) عبد الله كنون : احاديث عن الادب المغربي الحديث ، ص 37 ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة 1964 .
(2) عبد الله كنون : احاديث عن الادب المغربي الحديث ، ص 29 .
(3) المصدر نفسه الصفحة نفسها .
(4) انظر محمد بن العباس القباج : الادب العربي فى المغرب الاقصى ، ج 1 ص 41 ـ 42 ـ ط. 1 عام 1347 هـ ـ 1929 م .

وطول شوقي وامتحاني بـــه
لم يثنني عن نهجها المستقيم (5)

والشاعر محمد غريط (ت عام 1364 هـ) من شعره قوله عن أيام الصبا :

سقا عهد الصبا صوب العهـــاد
فما زال ادكاره في فــــؤادي

وان كنت اصبت بـه رســـادا
وراويت في علـم زنـــادي

والشاعر عبد الرحمن بن زيدان (ت 1946 م) من شعره في المولد النبوي على صاحبـــه افضـــل الصـلاة والسـلام :

نزه الطرف في رياض المعانـــي
وتنعم بنور تلـك المغانــــي

وأدر لاستماع صـب معنـــى
ذكر من فيهم جميع المعانـي (7)

ويسوغ القول بأن العصور المغربية القديمة كانت اكثر خصوبة في حلبة الشعر من هذه الفترة التي نتحدث عنها ، وكانت ايضا تشكل الطاقة الفنية للشاعر المغربي ، وآية ذلك اننا لا نكاد نجد في هذه المرحلة امثال عبد العزيز الفشتالي (ت 1032) وابي علي اليوسي (ت 1102 هـ) ومحمد بن زاكور (ت 1120 هـ) ومحمد بن الطيب العلمي (ت 1134هـ) من الذين استطاعوا ان يتبوأوا المكانة الممتازة ويتحفوا عصرهم بروائع الشعر .

وايا ما كانت الحال فالمدرسة الاتباعية ظلت تدور في فلك المضامين المعروفة في الشعر العربي من مدح ورثاء وهجاء واخوانيات ومساجلات ووصف الا اننا قد نعثر احيانا على مضامين تعتبر جديدة عند بعض الشعراء الذين تأثروا بحركة النهضة ، كالنشيد المدرسي الطويل الذي نظمه محمد غريط والذي يقول فيه :

يا بني العصر اجيبوا   داعي النصح المنير
واستجدوا ذكر قطر   كان ذا صيت شهير
كان للقطر جمال   وابتهاج وكمال
وازدهاء واحتفال   لم يضق فيه مجال
اذ بأهل العلم صال   وبهم فخره طال

وكقصيدة محمد السليماني (حماة الدين) التي يمكن لنا ان نعدها من الاغراض الجديدة ، لانها صيحة تدعو الى الالتزام بالقيم الاسلامية وتدعو الشعر الى ان يخوض المعركة ، ويدع الحديث عن مراشفة الرضاب والثنايا العذاب ، فما ذلك بمجد والامة فقدت صوابها ، والاوان ليس أوان الغزل يقول :

دعيني من مراشفة الرضاب
وعدي عن ثنايـاك العـذاب

وعاطيني صريح النصح صرفا
فعز الديـن آذن بانسحـاب

الى ان يقول مخاطبا حماة الدين :

حماة الدين هبوا من سبات
فمركزنا يئـول الى خـراب

تركنا الدين خلفا لا نبالي
ولم نترك لنا غير انتساب(8)

وكقصيدة له اخرى في الدعوة الى التعلم والاخذ بأسباب الحضارة يقول فيها :

ومقفل مل الجمود فـؤاده
ومهذب متضائل ومهـــدد

ومؤخر رضي الخمول لغاية
وموفـق لمعاده بتزهـــد

ب ـ المدرسة الاتباعية الجديدة التي سارت على غرار حركة البعث والتجديد في المشرق ، وقد

(5) نفس المصدر السابق ، ج 1 ص 15 ـ 16 وانظر ترجمته عند خير الدين الزراكلي ، الاعلام ج 1 ص 191 ط 3 ومخلوف محمد شجرة النور الزكية ص 437 ط مصر 1349 وكحالة عمر رضا معجم المؤلفين ج 2 ص 56 ـ مكتبة المثنى وعبد الحفيظ الفاسي معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة ج 1 ص 133 ـ 134 مطبعة فاس عام 1350 .
(6) محمد بن العباس القباج المصدر السابق ج 1 ص 1 .
(7) القبـاج المصدر السابق ج 1 ص 81 وما بعـدها .
(8) القباج المصدر السابق ج 1 ص 43 ـ 44 .

تميزت بالمضامين والصور القديمة ، كما تميزت فى الوقت نفسه بالتجاوب مع المرحلة الوطنية والسياسة التي تمخضت عن الاحداث الكبرى التي مر بها بالمغرب ونلاحظ فى هذه المدرسة انها تأثرت بمدرسة (الديوان) التي مثلها عباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكري وعبد القادر المازني ، ومدرسة (ابولو) التي مثلها الدكتور زكي ابو شادي ، وافادت منها من حيث المضامين الوطنية والمفاهيم الجديدة عن الحرية والرؤية الرومانسية للاشياء .

ومن الشعراء الذين طبعت اعمالهم الشعرية حركة البعث والتجديد فى الشرق الاستاذ الشاعر علال الفاسي رحمه الله (ت عام 1974 م) الذي يقول فى قصيدة له (الى الشباب الممثل) موجها الحديث الى الشباب ومستنهضا هممه وحماسهكي يأخذ مكانه فى الحياة كقوة دافعة الى المكرمات :

كل صعب على الشباب يهون
هكذا همة الرجال تكـــون

قدم فى الثرى وفوق الثريا
همة قدرها هناك مكيـــن (9)

الى ان يقـول :

يا شباب البلاد احييتمونـا
فلنا فيكم رجـاء متيـــن

ولنا فى الشباب خير ظنون
حققت فى الشباب تلك الظنون

اخبروا القوم اعلموهم بانـا
قد حيينا وانا سنكـــون

والشاعر محمد المختار السوسي (ت 1383 ه) الذي يبلور لنا بوضوح حالة الجهل التي كان يعيش عليها المجتمع المغربي ، فى حين ان غيره من الامم قد قطع اشواطا فى ميدان العلم والمعرفة وذلـك فى قصيدته (الهلاك ولا الجهل) يقول فيها :

حتى متى شعبي يعبده الجهل
كأن لم يكن قطبا للسيادة من قبل

كأن لم يكن يوما مديرا لتكلم الما
ليك يحمي ما يشاء ويحتل (10)

والشاعر عبد الاحد الكتاني الذي يؤكد لنا جليا تجاوب الشعر مع المرحلة السياسية والحضارية التي عرفها المغرب حينذاك ، وذلك فى قصيدته (فى معهد الدروس العليا بالرباط) يقول فيها :

صدق العلم للحقيقة وعـــدا
عقدته يد العدالة عقـــــدا

انما العلم آية الصدق تتلـى
ومثال الكمال بالحق يحـــدا

ثــم يقـــول :

ان روح الحياة ليس تديـا
انما العلم بالتعلم ينـــدا

وجدير اذا المعارف شاءت
ان يطير الجماد جما ووحدا(11)

اما فئة الشعراء الذين تأثروا بمدرسة(الديوان) و (ابولو) ــ ومنها شعراء الآنفو الذكر كعلال الفاسي والمختار السوسي فيما تحدثنا عنه من قضايا الوطن والاصلاح والحرية ــ ومن بين اولئك الشاعر محمد الحلوي حين يتغنى بحب وطنه فيقول :

يا بلادي وليس اشهى الى نفـ
ـــسي واحلى من ان انادي بلادي

انا ان فهت كنت أول مـا يجـ
ـري لساني وخير ما فى اعتقادي

ثـم يقـول :

قد سلوت الهوى ونجوى الغواني
والليالي الملاح فى شهـــر زاد

منذ هامت بقدس حبك روحـــي
واضاءت انواره فى فـــؤادي (12)

والشاعر عبد الكريم بن ثابت حين يقـول فى مـوشح غزلـي :

(9) المصـــدر نفسه ج 2 ص 8 .
(10) المصـــدر نفســـه ج 2 ص 64 .
(11) القبـــاج ج 2 ص 107 ـ 108 ـ 109 .
(12) انظر ديوانه انغام واصداء ص 285 ـ البيضاء 1965 .

يا فاتك الاحـــداق وساحـــر العيـــن

وفاتــن العشـــاق بالحســـن والطهـــر

ولعل عبد الكريم بن ثابت من أكثر شعراء هذه المدرسة اغراقا في الرؤى الرومانسية فلنسمعه حين يصف الطبيعة ثم ينتقل الى الحديث عن غد الوطن ومستقبله الجميـــل :

تلفت فارتاع بين الضلـــوع
فؤادي الحزين بفرط النحيب

ومن حولي القوم بعض هجوع
وبعض حبيب يناجي الحبيب

وبعد ابيات يقول :
وبعد زمان اطل الصبـــــاح

كطفل على مهده يبســـــم
كعذراء بين مروج البطـــاح

تتيه وترقـص أو تحلـــم
كثغر الورود كحد الاقـــاح

على حزن ضاحك يحلـــم
ونادى المنـادي الكفاح الكفاح

وداووا به باسكم تسلمـــوا
فما من سلام وما من نجـاح

بغير الجهاد فلا تسأموا (13)

بعد هذا العرض الموجز للمدرستين الشعريتين اللتين عرفهما شعرنا المغربي خلال هذه الفترة التي نؤرخ لها ، يطرح سؤال نفسه بالحاح هـــو الى أيـــة مدرسة ينتمي شاعرنا ابن موسى ؟ الجواب هـــو أن شاعرنا ابن موسى ينتمي الى المدرسة الاتباعيـــة (الكلاسيكية) ولا يمكن بحال ان نصنفه في اطـــار المدرسة الاتباعية الجديدة ، ذلك انه في تعامله مـــع الاغراض الشعرية لم يخرج عن النمط التقليدي الذي سارت عليه المدرسة الاتباعيـــة ، في معالجاتهـــا للمضامين المعروفة كالمدح والرثاء والغزل وغيره ، وفي طريقة تناولها الفني لهذه المضامين في الاخيلة والتصوير والقيم التعبيرية .

ومع هذا فاننا نعثر في شعره على مضمـــون جديد هو حديثه عن القضية الوطنية من خلال مدحه للمغفـــور له الملـــك محمـــد الخامس ، وبسطـــه الكلام عن أساليب المكر الاستعماري ، وثورة الشعب ضد دسائس العدو وذلك في قصيدته التي يفتتحها بقـولـــــه :

أبى المجد الا أن تقاد جنائبه
وتمرح في سوح المعالي نجائبه

بالرغم من ذلك فاننا لا نكاد نظفر في عمل ابن موسى الشعري بالمحتوى الوطني الذي يجسد بحق خصائص الوطنية ومميزاتها بالصورة التي نقع عليها عند من تناول هذا الموضوع بالدعوة الى الوحـــدة الوطنية واللغوية والاصلاح والتعليم والرجـــوع الى الفكرة الاسلامية الصحيحة ، ونبـــذ الخرافـــات ، والدعوة الى الجهاد ، ومقاومة المخططات الاستعمارية ، والكشف عن مكامـــن الادواء في الامـــة كالجهـــل والاستسلام للواقـــع دون العمـــل على تغييـــره ، والتكاسل عن اللحاق بالركب الحضاري كالاستـــاذ الشاعر علال الفاسي والشاعر محمد الحلوي وغيرهما من الذين عالجوا هذه المضامين الجديدة التي عرفها شعرنا الحديث بصورة واضحة نتيجـــة الظـــروف السياسية والاجتماعية والتفاعلات الحضارية التـــي اصبح المجتمع المغربي يرتبط بها ارتباطا وثيقا .

معنى هذا ان ابن موسى لم يفد من المدرســة الاتباعية الجديدة ، لذلك نبادر فنسأل لماذا لم يتأثر شاعرنا بهذه المدرسة ؟ ولماذا لم يكسر الجـــدار الذي احاط به شعره ، ويطل به على آفاق جديـــدة تجعله يتفاعل والظروف المجتمعية فتشده الى قضايا الحياة ومشكلاتها وأحداثها الكبرى وازماتها المتعددة ، ويعبر عن ذلك من خلال موقفه الشعوري ، ومن خلال التجربة والمعاناة التي تحفزه الى ان يحدد تصوراته ازاء كل قطاع من القطاعات التي تحتويها الخريطـــة الكبرى للحيـــاة .

ليس هناك عندي من تعليل او تفسير لهـــذا الحصار الذي ضربه حول شعره الا انه كان ينظر الى التراث الشعري نظرة الاكبار والاجلال ، وانـــه كان منجذبا اليه انجذابا قويا ، ومعتزا بتقاليده وطرائقـــه اعتزازا حال بينه وبين ان يستقي من غيـــره ، وان يستشرف معالم صوره وموضوعاته ، لذلك لم يشعر

(13) انظر ديوانه الحرية ص 12 ــ الرباط 1968 .

الشاعر ـ نتيجة لهذا التقديس للتراث الشعري ـ بحاجة الى تطعيم ادبه ورفده بالجديد .

ويبدو لي ان شاعرنا ، بما يملكه من اداة فنية طيعة وملكة شعرية خصبة وثراء فى اللغة ، لو حاول ان يتاسى حركة التجديد ويتمثلها ـ كما تمثل القديم ـ لاتى بما يبده الخواطر ، واسوق هنا مثالين على ذلك ـ على سبيل التدليل ـ الاول هو ان شاعرنا سمع من اذاعة طنجة فى برنامج رياضة الاصابع مساء يوم الاثنين الاربعاء ثالث ربيع الانور عام 1373 هـ موافق 11 نونبر سنة 1953 م قطعة نثرية لجبران خليل جبران فاعجب بها فحولها الى قصيدة (14) ومطلعها:

انا فى مسرح الحياة دليل الـ
ـحب فى غزوه وخمرة نفس

وبالمقارنة بين النصين النثري والشعري نجد ابن موسى قد تفوق على جبران بما ابرز فى قصيدته من انسياب فى التعبير ، وذوق فى اختيار اللفظة الشعرية الموحية ، وما كثف فيها من ظلال تعبيرية تتناسق مع موسيقا البحر ورويه السين بعيدا عن الفحولة التي عرفناه بها .

ومثال آخر هو موشح (15) قاله بمناسبة دخول الخليفة السلطاني حينذاك الى طنجة مترجما عن قصيدة الشاعر الاسباني (رافايل دوبوس جيورجيتة)

يقول فى أوله :

تحت شمس الربيع ذات الضياء
سرت فى عرشك الرفيع اللواء

فاستعارته من بديع السناء
ما جلت للمدينة الحسناء

وبالمقارنة ايضا بين النصين العربي والاسباني نجد ابن موسى تفوق على زميله الشاعر الاسباني بما اشاع فى الموشح من روح شاعرية شفيفة رفرافة وعذوبة لفظية مترقرقة تختلف عن النسق القديم الذي يعتمده فى عموم اعماله الشعرية .

وفى هذين المثالين ما يؤكد ان ابن موسى يملك طاقة فنية فذة لو انها استغلت امكاناتها الثرارة فى استيحاء الجواء الجديدة لقدمت لنا عملا شعريا مكثفا بالرؤى الحية الفنية المعبرة بحرارة عن مدلولات الحياة فى امتدادها عبر الاحداث المتنوعة وتواصلها عبر المواقف الكثيرة .

ـ يتبع ـ

تطوان : محمد المنتصر الريسوني

(14) القصيدة ضمن ديوانه الذي جمعته وحققته .
(15) الموشح ضمن ديوانه كذلك ، والقصيدة الاسبانية تحت يدي منشورة مع النص العربي فى كتاب طبعته عام 1361 هـ ـ 1942 م دار الطبع المغربية فى تطوان بمناسبة عيد الكتاب .

الاسلام والنصر

بين التدين والقيادة

للواء الركن محمود شيت خطاب

— 1 —

جاءني امس كبير مذيعي محطة اذاعة عربية كبرى وقال : « ان كاتبا كبيرا قال عنك بأن على ما تكتبه مسحة دينيــة » ! !

ومن الصدف أن يزورني قائد من قادة الفدائيين في ذلك اليوم فقال لي بالحرف الواحد : « لماذا تحرص على الناحية الدينية في كل ما تكتب » ؟

وبالطبع كان ما نقله المذيع الكبير الي ، وما قاله القائد الفدائي الكبير ، هو في معرض النقد فهمـا مؤمنان بأن القائد لا ينبغي أن يكون متدينا ! !

وكنت أحرص على صداقة أخ فلسطيني أعظم الحرص ، لانه من فلسطين التي خالط حبها قلبي ودمي ، ولانه مفكر المعي وعالم جليل ، ولكنني اضطررت الى نبذه الى الابد ، لانه زعم بأن التدين مظهر من مظاهر التخلف ، وان العرب لن يفلحوا مـا لم يتخلوا عن الديــن .

هذا الصديق يعمل في بلد عربي يتمسك معظم الشعب فيه بالدين الحنيف ، فزعم أن سر تخلف ذلك البلد العربي يكمن في تدين شعبه ، ولكن الذي يبشر بالخير — كما عبر ذلك الذي كان صديقي — هو ان طلاب الجامعة فيه يحتسون الخمرة ، لذلك فالبلد مقبل على التحرر والانعتاق من براثن الجهل والتقاليد الباليـــة ! !

واجتاحني الغضب الشديد ، وزجرته زجـرا عنيفا ، وقررت ان اقاطعه لانحرافه عن الطريــق الســـوي .

وتساءل امثال هذا الرجل : « هل يحارب الدين العلم ؟ هل يدعو الاسلام الى الجهل ؟ ماذا تعيب على العقيدة الاسلامية منهجا للحياة وسبيلا الى الحـق والفضيلـة والخيـر » ؟

لماذا اذن نتنكر للديـن ؟ ولمصلحة من هـذا التنكـــر ؟

ان الايدي الخفية التي لا تريد الخير للعـرب والمسلمين ، هي التي تعمل على اشاعة هذه المفاهيم الخاطئة ، حتى لا تقوم قائمة للعرب والمسلمين .

اني اتحدى كل من يستطيع ان يذكر قائدا عربيا واحدا منتصرا لم يكن يتحلى بالتدين العميق ولـم يكن يؤمن بالمثل العليا النابعة من صميم تعاليم الدين الحنيــف .

لن يستطيع احد ان يذكر قائدا عربيا واحـدا كان له في ميدان النصر تاريخ ، الا وهو متدين الـى ابعـد الحـدود .

سيد القادات وقائد السادات الرسول القائـد عليه افضل الصلاة والسلام هو نبي الاسلام . ولا أزيـــد . . .

وقادة الفتح الاسلامى العظيم كلهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن التابعين عليهم رضـــوان الله .

لقد احصيت عدد القادة الفاتحين ، فكانوا (256) قائدا عربيا مسلما ، منهم (216) من صحابة النبـى صلى الله عليه وسلم ، و (40) من التابعين عليهم رضوان اللــــه .

وتوقف الفتح الاسلامى العظيم عام اثنين وتسعين الهجرية ، وكانت خطط المسلمين العسكرية قبل هذا التاريخ هجومية ، فأصبحت بعده دفاعية : تصـــد هجوم المعتدين ، وتدافع عن دار الاسلام .

ومع ذلك ، فكل القادة الذين نجحوا فى صـــد المعتدين ، كانوا متدينين الى ابعد حدود التدين ، وكانوا امثلة شخصية لرجالهم فى التدين والعمل الصالح ، يكفى أن اذكر منهم نور الدين الشهيد وصلاح الدين الايـــوبـــى .

— 2 —

سجل لنا التاريخ العربى الاسلامى معـــارك دفاعية كثيرة خاضها العرب المسلمون دفاعا عـــن عقيدتهم وعرضهم وارضهـم .

ولعل اهم هذه المعارك معركتان : معركـــة (حطين) التى قادها البطل المسلم صلاح الديـــن الايوبى ، ومعركة (عين جالوت) التى قادها قطز صاحب مصر .

ومن الصدف ان تكون هاتان المعركتان فى الارض المقدسة فلسطين (1) : (حطين) قرية تقع غـــرب بحيرة (طبرية) على بعد اثنى عشر كيلومترا مـــن مدينة (طبرية) على طريق (طبرية ـــ الناصرة) ، و (عين جالوت) بليدة صغيرة تبعد خمسة اميال عن مدينة (العفولا) ، تقع بين (العفولا) ومدينـــة (بـيـســـان) .

ويمكن اعتبار هاتين المعركتين من المعـــارك الحاسمة ، لان معركة (حطين) ادت الى استعادة القدس من الصليبيين ، ولان معركة (عين جالوت) ادت الى انقاذ الشرق الاوسط ومصر من الغـــزو التتاري الكاســـح .

ولقد درست هاتين المعركتين دراسة مستفيضة ، فوجدت أن الفضل الاول لانتصار المسلمين علـــى الصليبيين فى معركة (حطين) يعود الى قيادة صلاح الدين الايوبى ، ووجدت أن الفضل الاول لانتصـــار المسلمين على التتار فى معركة (عين جالوت) يعـــود الى قطز والى الامامين الجليلين العز بن عبـــد السلام وأبى الحسن الشاذلى عليهما رضوان الله .

وبمعنى آخر ، أن الفضل الاول فى احراز النصر فى المعركة الاولى كان للقائد ، والفضل الاول فـــى احراز النصر فى المعركة الثانية كان للقائد والعلمـــاء والجنــــود .

وفى سنة (573) الهجرية اشتبك صلاح الدين بالصليبيين على مقربة من مدينة (الرملة) الفلسطينية، فهزم صلاح الدين ، وقتل واسر كثير من المسلمين .

وارتد صلاح الدين الى القاهرة ، وقد حزت فى نفسه الهزيمة ، واخذ يحشد الجيش ويعد العـــدة لحملة جديدة .

وغادر القاهرة على راس جيشه الى دمشـــق حيث أمضى هناك زهاء ثلاثة أعوام ، وهو مكب على الاعداد للحرب ماديا ومعنويا بحيث لم تذهب منه لحظة واحدة سدى . وفى خلال هذه الفترة إشتبك مـــع الصليبيين فى عدة معارك استطلاعية لاختبار قوتهم اولا، وفى معارك استنزافية لانهاك قوة العدو ثانيا ، وفى معارك تدريبية لتدريب جيشه على القتال عمليا ثالثا واخيرا ، فاستطاع فى هذه المعارك احراز انتصارات محلية فى (طبرية) و (صـــور) و (بيروت) ، وهزم الصليبيين فى (حمص) هزيمة شديدة ، واضطر بلدوين ملك بيت المقدس الى طلب الهدنة ، فعقدت بـــين الطرفين لمدة عامين .

وعاد صلاح الدين الى القاهرة فى منتصف عـــام (576) الهجرية ، فأمضى فيها عاما ونصف عام : يرسم الخطط ، ويعد العدة ، ويدرب رجاله ، ويكمل نواقصهم على هدي الدروس المستفادة من معاركه السابقة ، حتى اطمأن الى كفاية قواته القتالية ، ووثق بقابلياتهم العسكريـــة .

وفى الخامس من محرم الحرام سنـــة (578) الهجرية ، خرج صلاح الدين من القاهرة ، عاقدا العزم على خوض معركة حاسمة يستعيد بها القدس الشريف.

---

1) ما أجملناه هنا ، فصلناه فى كتابنا : بين العقيـــدة والقيادة ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 1972 .

وبقي فى دمشق اربعة اعوام ، يحشد المجاهدين من كل مكان ، ويستنفر القادرين على حمل السلاح ، ويعد الخطط العسكرية للقتال .

وفى اواخر المحرم من سنة (583) الهجرية ، خرج فى قواته من دمشق ، وسار منها الى (بصرى) ليحمى منها طريق عودة الحجاج ، اذ بلغه أن (رينو دي شاتيون) أمير (الكرك) ينوي الفتك بهم . ولما انتهى عودة الحجاج بسلام سار الى (الكرك) و (الشوبك) وعاث فى انحائهما .

ووافته جيوش مصر بقيادة اخيه العادل ، وكانت قوات الشام والجزيرة تتلاحق فى تلك الاثناء ، وتجتمع فى دمشق تحت قيادة الملك الافضل ولد صلاح الدين .

وسارت من هذا الجيش بأمر صلاح الدين حملة قوية الى ثغر (عكا) لاقتحامه وتخريبه ، فاشتبكت هناك مع الفرنج وفرسان الداوية (فرسان المعبد) والاسبتارية فى معركة طاحنة ، هزم على اثرها الفرنج وقتل مقدم الداوية وجماعة كبيرة من الفرسان ، واستولى المسلمون على كثير من الغنائم .

وسار صلاح الدين فى قواته جنوبا نحو مدينة (طبرية) فاستولى عليها ، ولكن حاميتها اعتصمت بالقلعة . وكان السلطان يهدف الى استدراج الفرنج لمقاتلته فى العراء ، ولكنهم لم يفعلوا ، فترك مدينة (طبرية) وعاد الى معسكره على مقربة منها .

وكان الفرنج قد اجتمعوا فى سهل قريب من (طبرية) ، وكان هذا السهل مقفرا فيه عيون ماء قليلة خربها الفرنج ليحرموا جيش صلاح الدين من الارتواء منها .

ولم يكترث صلاح الدين بمشكلة الماء ، لانه كان عازما على مقاتلة الصليبيين واثقا بنصر الله ، فسار فى اليوم الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول سنة (583) الهجرية نحو معسكر الفرنج .

ولكن الفرنج حرصوا على منع صلاح الدين من السير نحو مدينة (طبرية) وفتح قلعتها ، فتحركوا نحو مدينة (طبرية) يقصدون به الماء ، فوقف الجيش الاسلامى فى سبيلهم ، واشتبك الطرفان فى عدة معارك طاحنة ، قاتل الصليبيون فيها قتالا شديدا ، الا ان كفة المسلمين رجحت عليهم .

واستطاع صلاح الدين محاصرة الفرنج ، فارتدوا نحو تل بقرية (حطين) القريبة يعتصمون به . ولكن صلاح الدين هاجمهم هجوما صاعقا ، فاشتد القتال ، ودافع الفرنج دفاعا مستميتا ، وردوا المسلمين مرات ، ولكنهم هزموا فى النهاية هزيمة شنيعة ، واسر المسلمون سائر أمراء الفرنج .

هذه المعركة الحاسمة ادت الى استعادة فتح مدينة (طبرية) و (عكا) و (الناصرة) و (قيسارية) و (حيفا) و (صفورية) و (صيدا) و (بيروت) . وتم هذا الزحف المظفر فى اقل من شهر ! !

ولكن هدف صلاح الدين الحيوي كان استعادة بيت المقدس ، لذلك سار الى (عسقلان) ، لكى يتم عزل بيت المقدس عن البحر . وطوق صلاح الدين هذه المدينة من البر ، وضربها بالمجانيق ضربا شديدا ، حتى استسلمت بالامان فى آخر جمادى الثانية سنة (583) الهجرية ، ثم استعاد معظم الحصون والمدن المجاورة .

ويمم صلاح الدين شطر المسجد الاقصى ، فاشرف على بيت المقدس فى منتصف شهر رجب من سنة (583) الهجرية ، وكانت تموج بجموع زاخرة من الفرنج الذين قصدوها من سائر البلاد للدفاع عنها .

وحاصر صلاح الدين المدينة المقدسة ، وشدد عليها الحصار ، وتمكن المسلمون من نقب السور . فلما علم الفرنج بخطورة الموقف ، اوفدوا الى صلاح الدين وفدا من رؤسائهم يطلبون الامان .

ودخل المسلمون بيت المقدس فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب (583) الهجرية ، فرفعوا اعلامهم فوق الاسوار وفوق المسجد الاقصى ، وابدى صلاح الدين مع الفرنج منتهى التسامح كما تشهد مصادرهم التاريخية .

كان تعداد جيش المسلمين اثنى عشر الف مقاتل فى معركة (حطين) ، وكان تعداد جيش الفرنج خمسين الف مقاتل .

وكان تعداد جيش المسلمين فى معركة (بيت المقدس) اقل من اثنى عشر الفا ، وكان المقاتلون من الفرنج فى القدس ستين الفا .

وانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكبيرة باذن الله .

كانت أسباب النصر كثيرة على راسها قيادة صلاح الدين ، لانه وهب حياته للجهاد فى سبيل الله ، وكانت العقيدة الاسلامية تملأ نفسه ومشاعره يضطرم بها

ولا يؤمن بغيرها ، وكان وافر الحلم جم التواضع متقشفا فى ملبسه وطعامه ، ينفق كل ما تصل اليه يده فى اغراض الجهاد ومصالح المسلمين ، لا يهتم بشىء من اعراض هذه الدنيا من مال او قصور او غيرها ، حتى أنه لما توفى لم يخلف مالا ولا عقارا ، ولم يجدوا فى خزائنه شيئا من الذهب او الفضة سوى دينار واحد وسبعة واربعين درهما .

وكان صلاح الدين الايوبى يحمل صناديق مقفلة فى أيام جهاده ، يحرص عليها أعظم الحرص ، ويرعاها أعظم الرعاية .

وظن الذين من حوله من المقربين ، بأن هذه الصناديق تخفى فى بطونها جواهر ويواقيت ومالا ، ولكن بعد وفاته فتحت الصناديق ، فوجد الذين فتحوها انها تحتوي على وصية صلاح الدين وكفنه الذي اشتراه من كده ، وكمية من التراب .

وفتحت الوصية فكان مما جاء فيها : « اكفن بهذا الكفن الذي تعطر بماء زمزم وزار الكعبة المشرفة وقبر النبى صلى الله عليه وسلم » .

« وهذا التراب هو من مخلفات ايام الجهاد ، تصنع منه طابوق يوضع تحت راسى فى قبري » .

وصنع من هذا التراب اثنتى عشرة طابوقة كبيرة تستقر اليوم تحت راس صلاح الدين عليه رضوان الله فى رمسه ويلقى الله بها يوم الدين .

لقد كان صلاح الدين بعد عودته من كل معركة يخوضها جهادا فى سبيل الله ، يحرص على جمع التراب المتكاثف فوق وجهه وثيابه ويضعه فى صندوق من صناديقه السرية ، وقد استطاع جمع هذه الكمية الكبيرة من التراب التى صارت اثنتى عشرة طابوقة (الطوب) ، فكم عدد المعارك التى خاضها جهادا لاعلاء كلمة الله ؟ ! !

مات صلاح الدين فى السابع والعشرين من شهر صفر سنة (589) الهجرية ، اي بعد سنتين من معركة (حطين) وفتح بيت المقدس ، وكان عمره يوم مات ستة وخمسين عاما ، فقال عن موته شهاب الدين المقدسى صاحب كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين : « كان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى » .

هل كان ينتصر صلاح الدين ، لو صرف كل همه الى فرجه وجيبه ومسكنه ومأكله ؟

هيهات . . .

ان الفرق الكبير بين الانسان والحيوان ، هو أن الانسان له مثل عليا يؤمن بها ويضحى من اجلها ، وهذه المثل العليا هى العقيدة .

والانسان يؤثر مثله العليا على متاع الدنيا ، لان تلك المثل هى الباقية ولانها نابعة من الانسانية الحقة .

أما الحيوان فهو الذي يؤثر فرجه وعلفه واسطبله وهى متاعه فى الدنيا الفانية التى يعيش من اجلها الحيوان وبها اصبح حيوانا .

فكم من البشر اخلدوا الى الارض ، فاصبحوا حيوانات بل هم اضل سبيلا ؟ !

فما عبرة معركة (عين جالوت) التى تفيد العرب والمسلمين فى حاضرهم ومستقبلهم ؟

— 3 —

ما هى عبرة معركة (عين جالوت) لحاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم ؟

فى سنة (654) الهجرية احتل التتار سائر بلاد الروم بالسيف ، واحتلوا بغداد عاصمة العباسيين وقضوا على الدولة العباسية فى المشرق سنة (656) الهجرية ، واستولوا عنوة على (حران) و (الرها) و (ديار بكر) سنة (657) الهجرية ، ونزلوا مدينة (حلب) سنة (658) الهجرية واستولوا عليها ، ووصلوا الى دمشق فى نفس السنة واستولوا عليها ثم تعدوها الى (نابلس) و (الكرك) و (بيت المقدس) .

وقد كان من اهداف التتار الاستيلاء على فلسطين واجتيازها الى مصر ، وكان جيشهم يتقدم كالاعصار الشديد ، لا يبقى ولا يذر مدمرا كل قوة تقاومه ، ناشرا الرعب والخراب والدمار .

وكان على مصر حينذاك قطز ، وكان يخشى على وطنه أن يجتاحه التتار اليوم او غدا ، وكان التتار فى مسيرتهم الظافرة يتقدمون من نصر الى نصر ، وقد اصبحت مصر قريبة منهم ، وكانوا يطمعون فى ان يجعلوها ضمن ممتلكاتهم التى امتدت من اقصى الشرق الى البحر الابيض المتوسط .

وجمع قطز رجاله المفكرين ، وسألهم الراي فيما يصنع ، فأشاروا عليه بحرب التتار خارج الارض المصرية ، حتى يبعد عن مصر الخراب والدمار .

واقتنع قطز بهذا الراي ، وقدر انه اذا انتصر على التتار فقد كفى مصر مغبة الدمار ، واذا اندحر امامهم كانت له أرض الكنانة ملجأ وموئلا .

واستنفر جيش مصر ، وحث الناس على الجهاد ، فلبى نداءه كثير من المجاهدين ، كان على راسهم العز بن عبد السلام وابو الحسن الشاذلى رضى الله عنهما اللذان شحنا جيش قطز بطاقات معنوية لا تنضب .

وانضم المجاهدون الى الجيش النظامى المصري، وكان هذا الجيش حينذاك قليلا فى عدده ، ضعيفا فى عدده ، واجبه الاول حماية الامن الداخلى وجباية اموال الدولة ، ولم يكن من واجبه الحرب خارج البلاد .

وبدا الشيخان الجليلان العز بن عبد السلام وابو الحسن الشاذلى يأمران الجيش المصري قادة وجنودا بالمعروف وينهيان عن المنكر ، ويحثان على التوبة النصوح ، ويزيلان ما علق بالنفوس من ادران ، ويقومان ما أعوج ويصلحان ما فسد ، ويبرزان للمقاتلين فضل الجهاد ، ويظهران اجر الشهادة فى سبيل الله ، ويعلنان درجة الشهداء عند الله ، ويرفعان المعنويات ، حتى شحنا جيش مصر بشحنات معنوية بغير حدود ، بحيث صمم رجاله على أن ينالوا احدى الحسنيين : الشهادة أو النصر . . . ولا يغلب جيش يتحلى بمثل هذه المعنويات العالية .

— 4 —

وصل الجيش المصري (عين جالوت) وهى بليدة صغيرة تبعد خمسة اميال عن مدينة (العفولا) فى فلسطين ، وتقع بين (العفولا) ومدينة (بيسان) .
وتحفز جيش التتار للقضاء على الجيش المصري ، فنشبت المعركة بين الطرفين سنة (658) الهجرية .

ومن دراسة قوات الجانبين يظهر بأن التفوق الساحق كان الى جانب التتار على الجيش المصري فى كل النواحى العسكرية المادية .

ولكن التفوق المعنوي كان الى جانب المصريين على التتار ، اذ كان المصريون يملكون سلاحا سريا بالغ الخطورة لم يحسب له التتار اي حساب ، هذا السلاح هو الايمان العميق بالله والتصميم على النصر او الاستشهاد .

ان كل الحسابات العسكرية تجعل النصر الى جانب التتار بدون ادنى شك .

اولا : كان قادة التتار لهم تجربة طويلة فى الحروب ، ولم تكن لقطز اية تجربة عملية فى الحروب الكبيرة او الصغيرة .

ثانيا : كانت معنويات قادة التتار عالية ، لانهم تقدموا من نصر الى نصر ، ولم تنكس لهم راية منذ بضع سنين خلت .

وكانت معنويات قطز منهارة ، لانه لم يحارب أبدا على نطاق واسع ولم ينتصر فى حرب .

ثالثا : كانت معنويات التتار متفوقة على معنويات المصريين ، وكان الشائع بان جيش التتار لا يقهر ابدا .

وقد انتصر هذا الجيش بالرعب فى كثير من المعارك التى خاضها ، وكانت سمعته العسكرية قد ملأت الدنيا .

رابعا : كانت كفاية جيش التتار العسكرية متفوقة على الجيش المصري ، لان هذا الجيش خاض معارك لا تعد ولا تحصى ، لذلك كانت تجربته العملية على فنون القتال باهرة الى أبعد الحدود .

بينما لم تكن للجيش المصري كفاية قتالية نتيجة لتجاربه العملية فى الحرب ، اذ لم يسبق له خوض معركة حربية كبيرة ولم يحرز نصرا فى القتال .

خامسا : كان التتار متفوقين على المصريين فى العدد والعدد ، خاصة بالفرسان الماهرين فى حروب الفروسية ، وكانت شهرة فرسان التتار قد ملأت الآفاق اقداما وشجاعة وتمرسا على فنون القتال .

سادسا : كان التتار متفوقين على المصريين فى تسليحهم ، وكان لاسلحتهم معين لا ينضب نتيجة لما كانوا يملكونه من سلاح وما غنموه من اعدائهم فى حروبهم الطويلة .

سابعا : كان جيش التتار متفوقا على الجيش المصري فى قضاياه الادارية ، اذ كان يستند على البلدان الغنية التى احتلها فى أرض الشام ، بينما كانت قواعد المصريين الادارية بعيدة عنهم ، لانهم

كانوا يعتمدون على مصر وحدها ، والمسافة بين مصر و (عين جالوت) طويلة ، خاصة فى تلك الايام التـى كانت القضايا الادارية تنتقل على الدواب .

هذا التفوق الساحق الذي كان الى جانـب التتار ، له نتيجة متوقعة واحدة ، هى احراز النصـر على الجيش المصري أسوة بانتصاراتهم الباهرة على الروم والعرب ومختلف الامم والشعوب .

ولكـن الجيش المصري انتصر على جيـش التتار كما هو معروف ، فكيف حدث ذلك ؟

— 5 —

شن التتار على المصريين هجوما كاسحا ، وتقدم الهجوم فرسان التتار المتمرسون على حرب الصاعقة ، فتزعزعت صفوف الجيش المصري ، وتكبدت خسائـر فادحة بالارواح ، ثم تراجعت الى الخلف بغيـر نظـــام .

واوشك التتار ان يطوقوا المصريين ، واوشكوا ان يكتسحوا صفوفهم ، فلما رأى قطز ما حاق بالجيش المصري ، صرخ : « وا اسلاماه . . . وا اسلاماه » .

وكان العز بن عبد السلام وأبو الحسن الشاذلى قبل المعركة قد عملا عملهما البناء فى ايقاظ الشعور الدينى فى الجيش المصري ، فكانت لتلك الصرخـة المؤمنة القوية الامينة أثرها العميق فى استثارة القيادة والجنود ، وكان النصر المؤزر للمصريين خلافا لمباديء الحرب ولما كان يتوقعه المصريون انفسهم .

وبعد هذه المعركة لم يفلح التتار أبدا ، اذ تكبد التتار فيها خسائر فادحة بالارواح والاموال ، فولوا مدبرين ، وطمع فيهم الناس يتخطفونهم .

ودخل المظفر دمشق ، واستعادها من التتار .

وبعث لمطاردة التتار احد قادته المدعو بيبرس فطهر هذا القائد ارض الشام من التتار حتى استعاد مدينة حلب الشهبـاء .

وهكذا استطاع جيش مصر بالايمان الذي بعثه من جديد العالمان الجليلان والشيخان الكبيران العز بن عبد السلام وأبو الحسن الشاذلى عليهما رضوان الله أن يحرز انتصارات باهرة على التتار ، وكان النـاس قبل ذلك يظنون بأن هذا الجيش لا يهزم أبدا ! !

ولقد كان تعداد جيوش العباسيين فى بغداد اكثر أضعافا مضاعفة من تعداد جيش قطز .

وكانت بغداد محصنة تحصينا قويا ييسر الدفاع عنها والثبات فيها مدة طويلة كافية لصد المعتدين التتار عن اسوارها الشاهقـــة .

ولكن كان جيش العباسيين يومئذ فى شغل شاغل عن الحرب وعن متطلبات الحرب .

كان قادته قد شغلوا انفسهم بجمع المـــال والتطاول بالبنيان وحب الشهوات ، واعرضوا[1] عن واجباتهم العسكرية تدريبا وتسليحا وتجهيزا وضبطـا ونظـامـــا .

وكان قادته قد دب بينهم الفساد ، وشاعت بينهم الرشوة ، وهانت عليهم كرامة الناس واعراضهم : لا يعفون عن الحرام ، ولا يخافون الله .

وكان قد نشب بينهم الخلاف على المناصـــب والاموال واللهو ، فلجأ كل واحد منهم الى مجموعة من الجيش يركن اليها ويقاسمها المغانم والاسلاب .

وكان أولئك القادة لا يتسنمون مناصبهم لكفاياتهم العسكرية ومزاياهم الانسانية الرفيعة ، ولتجربتهـم الطويلة فى معاناة الحروب ، بل كانوا يتسنمونهـــا لاحسابهم وانسابهم ، أو لانهم من (شلـــة) أصحاب السلطة ، أو ممن يخشاهم أصحاب السلطة ، أو ممن يقدمون المال الحرام لاصحاب السلطة ثمنا لمناصبهم العسكـريـــة .

اما افراد الجيش ، فكانت كل مجموعة منهـم تنتسب لقائد من القادة : تحتمى به ، وتدافع عنه ، وتنال اجرها على اتعابها .

أصبح قادة الجيش رؤساء عصابات مسلحة ، واصبح افراد الجيش عصابات مسلحة ، تعمـــل لمصلحتها الشخصية بعيدة كل البعد عن مصلحـــة الدولة العليا .

بالطبع أمثال هؤلاء القادة لا يستطيعون اعـــداد جيوشهـــم للحرب .

فاذا وقعت الحرب ، لا يستطيعون قيادة رجالهم كما ينبغـــى .

1) انظر تفاصيل المعركة فى كتابنا : بين العقيـــدة والقيـــادة .

لذلك كان وجود امثالهم على راس الجيش العباسى ، من مصلحة اعداء هذا الجيش ، ما فى ذلك ادنى شك .

ولهذا كان عدد امثال ذلك الجيش وعدده مهما بلغت ضخامتها غثاء كغثاء السيل .

وجاء جيش التتار ، فواجه فى بغداد العباسية جيشا متفسخا : قادته يفكرون بما خلفوه وراءهم من متاع ولا يفكرون فى الدفاع عن بلدهم ، وجنوده غير مدربين وغير مستعدين للحرب ، والجنود والقادة ملوثون بالكبائر من الذنوب كأن احدهم جبل اسود كل ذراته وصخوره ذنوب : نسوا الله فانساهم انفسهم .

وبادر القادة بالاتصال المباشر وغير المباشر بالغزاة ، ليضمنوا حماية أرواحهم واملاكهم .

وبادر الجنود الى الهرب ، لانهم لا مصلحة لهم فى الدفاع عن مدينتهم العظيمة ومدنيتهم العريقة .

وهكذا اصبحت بغداد وقد غاب عنها حماتها ، فاستسلمت للمتوحشين الغزاة ، حيث قضوا على حضارتها العريقة التى انارت الدروب للعالم كله قرونا طويلة .

استسلمت بغداد ، لان حماتها تنكروا لعقيدتهم ، فخسروا كل شىء .

ولاقى المتوحشون الغزاة جزاءهم العادل فى معركة (عين جالوت) ، لان الجيش الذي قاتلهم هناك ، كان قد خرج من بلده الامين مهاجرا الى الله ورسوله ، ليست له غاية غير اعلاء كلمة الله والجهاد بالاموال والانفس فى سبيل الله .

— 6 —

الدرس الذي يفيد العرب والمسلمين هو : اهمية العقيدة فى احراز النصر .

ان الطائرات والدبابات والاسلحة المختلفة والعتاد والذخيرة ، كتل من الحديد صنعها الانسان ويستعملها الانسان فى الحروب دفاعا عن النفس او لتحقيق اطماع توسعية .

ولا يزال الانسان هو المسيطر على كل سلاح وعتاد ، وبدونه لا قيمة لكل سلاح ولكل عتاد .

ولكن الانسان بدون عقيدة تجمع شمله وترص صفوفه وتوحد كلمته وتشيع فيه الانسجام الفكري الذي بدونه لا يكون تعاون ولا اتحاد ، لا قيمة له من الناحية العسكرية .

وهذه العقيدة هى مثل عليا يؤمن بها الانسان ويضحى من اجلها بالاموال والانفس .

وروح الانسان اغلى ما يملكه الانسان ، فمن المستحيل ان يضحى بها الا اذا كانت له عقيدة راسخة واهداف سامية .

وكتل الحديد التى هى السلاح والعتاد ، لا جدوى منها ولا فائدة فيها ، اذا لم يستعملها انسان ذو عقيدة راسخة واهداف سامية .

وحين كان العرب قادة وجنودا وافرادا وشعوبا متمسكين بعقيدتهم السماوية ، فتحوا العالم وقادوا الحضارة العالمية .

وحين تخلى العرب عن عقيدتهم ، تداعت عليهم الامم كما تداعى الاكلة على الثريد .

ولم يكن ذلك من قلة ، ولكنهم يومئذ كثير ، بدون عقيدة .

ترى ! ! ايعقل للعرب اليوم هذا الدرس ، فيعودون الى دينهم الحنيف بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والفداء ، ليعود اليهم مجدهم وعزهم ؟

أم هم لا يزالون بحاجة الى كثير من النكسات والنكبات ! ؟

موقف الإسلام من التنمية الاقتصادية

للدكتور ابراهيم دسوقي أباظة

للعقيدة والمذهب دور له خطره في حياة البشرية . فالانسان منذ بدء الخليقة يواجه الحياة وفي قلبه عقيدة ويسعى الى اشباع حاجاته وفي راسه مذهب . . فلا يمكن تصور انسان بلا عقيدة .. ولا يمكن تصور نشاط انسانى بلا مذهب .

فالعقيدة والمذهب هما السلاح الذي استخدمه الانسان دائما في تفسير وجوده وتحديد طريقه . . ورسم أهدافه . . كل ما في الامر أنه كلما تقدم المجتمع في ميادين العلم والتقنية كلما تغلب دور العقل على العاطفة في توجيه العقيدة بحيث تبدو هذه الاخيرة وكأنها انحسرت وذابت في بوتقة التقنية الانتاجية الزاحفة .

وعلى ذلك فوجود العقيدة والمذهب المنبثق عنها لا يعتبر من قبيل الترف الفكري الذي يغشاه العقل للترويح أو المضاربة ولكنه ضرورة حتمية لكل جهد بشري يستهدف التقدم لان عمليات التغيير والارتقاء التى يستهدفها هذا التقدم تتطلب من الفرد نمطا سلوكيا وجهدا نفسيا وجسديا يرقى الى مستوى التضحيات التى تفرضها والمذهب هو الذي يتكفل بتوفير هذه العناصر وملاءمتها مع مقتضيات العملية الانتاجية . . وبغير المذهب لا يمكن أن نتصور للمجتمع انطلاقا على مسار التنمية والتقدم . وهناك منطلقات أساسية نرى ضرورة الاخذ بها للاحاطة بهذا الموضوع الحيوي :

1 ــ جوانب العملية الانتاجية :

فالعملية الانتاجية تنطوي على جانبين لابد من التمييز بينهما : جانب مادي تقنى وجانب معنوي انسانى . وعجلة الانتاج لا يمكن أن تدور وان تتقدم دون تفاعل ايجابى بين هذين الجانبين التقنية والانسان .

فالتقنية المادية وحدها لا تكفى لقيام الانتاج وتصعيده بل لابد أن تكون مدعمة بعمل الانسان الخاضع لظروف نفسية وذهنية معينة . . فالتنمية الشاملة اذن . . لابد لها من تركيب نفسى وذهنى خاص يطبع القائمين عليها . . ومن هنا يأتى دور العقيدة والمذهب في صياغة هذا التركيب بصورة تتلاءم مع الجانب المادي من العملية الانتاجية .

2 ــ التعارض بين المذهب والعملية الانتاجية :

والحق أن المذهب يؤدي في التطبيق الى دفع عجلة الانتاج أو تعطيلها تبعا لما اذا كانت المبادىء التى أتى بها قد حظيت بايمان الجماعة أو رفضها وتبعا لما اذا كانت ملائمة أو مصادقة لمقتضيات العملية الانتاجية .

فكم من مذاهب سقطت في التطبيق بسبب عدم ايمان الجماهير بها ورفضها لها ؟

غير أن الايمان بالمذهب لا يكفي في حد ذاته لاطلاق التنمية وتأمين استمرارها ، بل يجب أن يكون هذا الايمان مدعوما بتلاؤم كامل أو شبه كامل بين تعاليم المذهب والجانب المادي من العملية الانتاجية فكم من مذاهب ملكت على الجماهير قلوبها ولكنها سقطت في التطبيق بسبب عدم انضباطها مع الواقع التقني للعملية الانتاجية . وفي كل الاحوال قد يكون التعارض بين الجانبين جذريا او جدليا .

وحالة التعارض الجذري أن يصطدم المذهب في أصل من أصوله بقاعدة أو أكثر من قواعد العملية الانتاجية .

والتعارض الجذري على هذه الصورة لا يمكن حله الا على أساس التضحية ببعض اصول المذهب ؟

اما التعارض الجدلي فيكون عندما تصطدم تفسيرات المذهب وشروحه بقاعدة أو أكثر من قواعد العملية الانتاجية دون أن ينطوي صلب المذهب على نص صريح يؤدي الى هذا التعارض . وفي هذه الحالة الاخيرة يكون حل التعارض عن طريق تفسير المذهب بصورة تتلاءم مع مقتضيات العملية الانتاجية .

هذا ويعتبر التعارض الجذري في كل الاحوال اشد تعقيدا من التعارض الجدلي لان حله لا يكون الا على أساس التضحية بأحد امرين : اما أصل من أصول المذهب ، أو أصل من أصول العملية الانتاجية واما اعتداء على بعض القواعد الفنية للعملية وفي هذا اما اعتداء على بعض تعاليم المذهب واما اعتداء على بعض القواعد الفنية للعملية الانتاجية .

3 ــ المذهب والتركيب النفسي :

وعظم الدور الذي يقوم به المذهب يتجلى في عملية البناء النفسي التي يتيحها للفرد في مجتمع يستهدف التنمية . لان أخطر العقبات في ارتياد طريق التنمية هي ذلك الجمود النفسي الذي يعتري الفرد في المجتمع المتخلف . . وهذا الجمود يتمثل في كل موقف يرفض التغيير ويعارض التجديد في انماط المعيشة وأساليب الانتاج ، بينما تتطلب التنمية تركيبا نفسيا مرنا يدور في اطار من الاستقرار المشروط .

والتركيب النفسي المرن هو ذلك التركيب الذي يستجيب في سرعة لعوامل التغيير فيتفاعل مع هذه العوامل تفاعلا ايجابيا في اتجاه التقدم وبذلك يسمح بمولد ما اسميه بالسلوك الارتقائي عند الفرد اي ارادة الفرد الفاعلة في الارتقاء والتجديد .

اما الاستقرار النفسي المشروط فنعني به أن يعمل الفرد لغده مدفوعا بحافز المكافاة وخوف العقاب اذ بين اغراء المكافاة ومغبة العقاب يتحدد موقفه النفسي في موضع لا يعرف القلق الكامل ولا الركون الكامل .

4 ــ المذاهب الدنيوية والمذاهب الدينية :

والمذاهب . . كل المذاهب تنقسم الى نوعين ، مذاهب من صنع البشر ، ومذاهب من تنزيل السماء . والمتطلع لحقيقة المذهبين الكبيرين اللذين يسودان عالم اليوم . . . الليبرالية والماركسية ليتبين بما لا يدع مجالا للشك بأن كل منها قد أخطا موازين الكيل في الجماعة . فالراسمالية وليدة الليبرالية قد انتهت في العمل الى التضحية بالمساواة في سبيل الحرية فخلفت خللا اجتماعيا خطيرا بين من يملكون ومن لا يملكون . بينما انتهت الجماعية وليدة الماركسية الى التضحية بالحرية في سبيل المساواة فخلفت في العمل خللا خطيرا في توزيع السلط بين من يملكون كل سلطة (أعضاء الحزب الواحد) ومن لا يملكون أي سلطة (الغالبية الساحقة من الشعب) .

اما المذاهب الدينية فعلى الرغم مما استهدفت له من هجمات ، فلا يمكن انكار دورها الاساسي في بناء حضارات كبرى على مر التاريخ . وقد لعب الاسلام دورا خطيرا في تشييد حضارة عريقة لا زالت اصولها راسخة الى اليوم .

5 ــ الاسلام والتنمية الاقتصادية :

والمتطلع لحقيقة القيم الاسلامية كما وردت في كتاب القرآن والسنة ليدرك عمق الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه القيم في النهوض بالمجتمع المسلم من كبوة التخلف .

والنظرة الحركية للواقع الاقتصادي المعاصر لتؤكد ارتفاع كل تعارض جذري بين القيم الاسلامية والجانب المادي من العملية الانتاجية ، انما التعارض ان كان ثمة تعارض فهو من النوع الجدلي الناتج عن تفسير المجتهدين . وعلى ذلك يكون حل مثل هذا التعارض عن طريق الاجتهاد والتجدد للتلاؤم مع مقتضيات الواقع الاقتصادي والاجتماعي المتطور .

فقد حرص الاسلام على تهيئة الجانب المادي من العملية الانتاجية عندما حض على العلم ومجـــد العلماء كما حرص على تكوين الجانب المعنوي من هذه العملية عندما خص المسلم بمجموعة من الانمـاط السلوكية سمحت ببناء تركيبه الذهنى والنفسى بصورة تتلاءم ومقتضيات التنمية الشاملة .

وهكذا يرى الاسلام ان القيمة تكمن فى العمل . . فلا قيمة بغير عمل . . وان السعى والمجابهة فرض على الانسان . . وان المثابرة والاقدام شرط اساسى للتقدم والارتقاء . . وان التدبر والتفسير واجب عند الاقبال على مغالبة الصعاب . وفى كلمة فقد منح الاسلام الفرد تركيبا نفسيا مرنا يدور فى اطار من الاستقرار المشروط فاستقراره النفسى رهين بكده ومسعاه .

غير ان الاسلام لم يكتف فى تكوين نفسية المسلم بهذه التوجيهات الروحية ، بل دعمها من القواعـــد الموضوعية ، وذلك حتى تلتقى التهيئة الروحيـــة بالممارسة . ولعل اخص هذه القواعد من وجهـــة نظر التنمية الاقتصادية ما تعلق بحق الملكية .

فللملكية فى الاسلام وظيفة مزدوجة . اذ لها قبـل الفرد وظيفة ، ولها قبل المجتمع وظيفة اخرى .

ووظيفتها قبل الفرد تتحدد بالقدر من الاستقلال الذى تضمنه له والقدر من الاطمئنان الذى تحيطه به .

اما وظيفتها قبل المجتمع فتتحدد بالقدر مـــن المنافع التى تكلفها له والقدر من المضار التى تدفعها عنـــــه .

وفى كلمة ، فالمالك ليس سيدا لما يملك .. ولكنه موظف بما يملك فحق الملكية فى الاسلام اذن ليـس بالحق المطلق . انما هو حق مقيد بتحقيق منفعة الامة. فاذا ما كفت الملكية عن تحقيق منفعة الامة او انقلبت مضرة عليها ، كان لولى الامر أن يتدخل لردها الـى وظيفتها الاجتماعية . ومن هنا كان الاستقلال الذي تمنحه الملكية للفرد والاستقرار الذى توفره له مقيدا بحدود هذه الوظيفة .

تلك بايجاز مطلق ابعاد التركيب النفسى الذي كفله الاسلام،. وتلك بعض القواعد الموضوعية المدعمة لها . وما من شك فى ان هذا التركيب وهذه القواعـــد تسهم بنصيب وافر فى تحقيق أغراض الشارع مـــن ادراك العدالة بوجهيها .

فطبيعة الملكية على النحو الذى اوردناه تؤدي الى تحقيق العدالة بوجهيها . اي العدالة فى توزيع السلطات والعدالة فى توزيع الثروات . فهى تؤدي الى تحقيق العدالة فى توزيع السلطات عندما ترفض التركيز الكامل للسلطة الاقتصادية فى يد الدولة بالغاء حـق الملكيـــة .

وهى تؤدي من ناحية اخرى الى تحقيق العدالة فى توزيع الثروات عندما تمنع التكديس المفرط للثروة بتخويل ولى الامر حق التدخل للحد من سلطان الملكية واعادة توزيع ثمارها . وهكذا تبدو العدالة الاجتماعية الحقة فى ارفع صورها التطبيقية .

6 ـــ خاتمـــة :

اذا كان الواجب يفرض أن اضع امام القـارىء تلك الحقائق الكبرى عن موقف المذاهب من التنمية.. فان الواجب يفرض على ايضا أن اشير فى النهاية الى موجات الرفض التى تواجهها القيم الاسلامية من هذه الزاوية . ونحن نعتبر أن هذا الرفض ناتج عن جهـل مزدوج :

جهل بحقيقة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وجهل بحقيقة التراث الاسلامـــى .

وعلماء هذه الامـــة ومثقفوهـــا ، مسؤولون مسؤولية كاملة عن تبديد هذا الجهل ، ورد ابنائها الى طريق الاصالة فى البناء والارتقاء .

د. ابراهيم دسوقى اباظة

نفحات إسلامية

المرأة في سفر التكوين

للأستاذ صلاح الدين أدلبي

تعالت أصوات الكتاب والمفكرين الغربيين من أجل تحرير المرأة ، ولا زالت هذه الاصوات تتعالى مطالبة بتحرير المرأة رغم ما حققته المرأة الغربية من تنفيذ كثير من مطالبها العامة ، فيما يتعلق بحرية الخروج من البيت ، وحرية التعلم ، وحرية العمل ، وحرية التصرف بنفسها ومالها وجسمها كما تشاء أو كما يشاء لها الهوى .

لكن مسألة المرأة هي شيء أعمق من كل هذا .. تريد المرأة أن ينظر اليها المجتمع نظرته الى انسان ، انسان لا يختلف عن الرجل في المعنى الانساني ، والانسان مكرم ، فلابد من أن تكون النظرة للمرأة نظرة رفعة وكرامة ، لا نظرة ضعة وامتهان .

ومما لاشك فيه أن الفكر الاوربي والحضارة الحديثة متأثران تأثرا كبيرا بتعاليم اليهودية والنصرانية وهما ديانتان وان كانتا الهيتين بالاصل الا انهما محرفتان ومبدلتان ، وكتب الديانتين مكتوبة بأيد غير أمينة على الوحي الالهي لا يهمها في سبيل الحصول على عرض الدنيا وحطامها اي شيء آخر .

ومهما حاول الباحث ان يجد تفسيرا لتلك النظرة الازدرائية للمرأة عند اتباع الديانتين فلن يجد أصدق من اصل النظرة للمرأة في كتبهم الدينية ، ولا استطيع ان اسميها بالتوراة والانجيل بل هي أسفار العهد القديم والعهد الجديد .

ويرجع الباحث الى قصة أول امرأة في الوجود الانساني وهي زوج آدم .

وقصة آدم معروفة عند اهل الديانات ، وفيها ان الله سبحانه وتعالى اسكن آدم وزوجه الجنة وأباح لهما الاكل من جميع اشجار الجنة الا شجرة عينها لهما ، ولكن ابليس وسوس لهما بالاكل منها واغراهما بأنواع المغريات حتى نسي آدم انه عدوه وان الله حذره منه أشد الحذر ، فأكل آدم وزوجه من الشجرة ، وكان هذا سببا في اخراج الله عز وجل اياهما من الجنة .

ولكن كيف أغوى ابليس آدم ؟

يروي سفر التكوين اول اسفار العهد القديم ان ابليس اغوى زوج آدم عن طريق الحية ، ثم انها هي التي أعطت آدم من الشجرة فأكل منها ، وبذلك تكون المرأة هي سبب الخطيئة ، وهي سبب غضب الله على البشر وطرده من الجنة ، وهي سبب اللعنة الابدية .

وهنا أسوق من سفر التكوين فقرات من بعض الفصول لبيان نظرة سفر التكوين لاول امرأة من الجنس البشري من خلال اول مخالفة بشرية لنهي رباني .

جاء فى الفصل الاول (الفقرة 26) : « وقال الله لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا ، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الارض وكل الدبابات الدابة على وجه الارض » .

(27) فخلق الله الانسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكرا وانثى خلقهم .

وفى الفصل الثانى حديث عن خلق الاشجار واباحتها للانسان الا شجرة واحدة :

(9) وانبت الرب الاله من الارض كل شجرة حسنة المنظر وطيبة المأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر .

(16) وامر الرب الاله الانسان قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل ،

(17) واما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها فانك يوم تأكل منها تموت موتا .

(25) وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان .

ونقرأ فى الفصل الثالث كيف كان الاغراء والاغواء متجها لامرأته اولا عن طريق الحية ثم كيف اثرت المراة على زوجها حتى اكل من الشجرة المنهى عنها :

(4) فقالت الحية للمراة : لن تموتا ،

(5) انما الله عالم انكما فى يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة عارفى الخير والشر .

(6) ورات المراة ان الشجرة طيبة للمأكل وشهية للعيون وان الشجرة منية للعقل ، فاخذت من ثمرها واكلت ، واعطت بعلها ايضا معها فأكل .

(7) فانفتحت اعينهما فعلما انهما عريانان ، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما منه مآزر .

(8) فسمعا صوت الرب الاله وهو متمش فى الجنة عند نسيم النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله فيما بين شجر الجنة .

(9) فنادى الرب الاله آدم وقال له : اين انت ؟

(10) قال : انى سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لانى عريان فاختبأت .

(11) قال : فمن اعلمك انك عريان ؟ هل اكلت من الشجرة التى نهيتك عن ان تأكل منها ؟

(12) فقال آدم : المراة التى جعلتها معى هى اعطتنى من الشجرة فأكلت .

(13) فقال الرب الاله للمراة : ماذا فعلت ؟ فقالت المراة : الحية اغوتنى فأكلت .

(14 — 15) فقال الرب الاله للحية : اذ صنعت هذا فانت ملعونة ..

(16) وقال للمراة : لاكثرن مشقات حملك ، بالالم تلدين البنين ، والى بعلك تنقاد اشواقك ، وهو يسود عليك .

(22) وقال الرب الاله : هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر ، والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل فيحيا الى الدهر .

(23) فطرد آدم واقام شرقى جنة عدن الكروبين وبريق سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة .

***

لاشك ان هذه الصورة التى يقدمها سفر التكوين هى بذرة الكراهية من الرجل للمراة ، وخليق بكل يهودى او نصرانى وهو يقرأ هذه القصة فيما يسميه بالكتاب المقدس ان لا تبقى فى نفسه للمراة ذرة من تقدير او تكريم .

ولا بد من ابداء بعض الملاحظات فيما يتعلق بموضوع المراة وان كانت النصوص التى قدمتها تفصح عن نفسها بنفسها :

لا شك ان النهى عن الاكل من الشجرة كان موجها بالدرجة الاولى الى آدم ، شاملا له ولزوجه ، فلم يوجه اللوم كل اللوم للمراة حيث انها هى التى كانت السبب ويكاد آدم يعفى من المسؤولية ؟

وهنا نرجع الى الكتاب الالهى المحفوظ الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لنجد فيه النص الحق ، الا وهو القرآن الكريم ،فماذا يقول الله سبحانه فى القرآن ؟

قال تعالى فى سورة البقرة : « وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين **فازلهما الشيطان** عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » (1) فلم يجعل الله سبحانه وتعالى زوج آدم احبولة الشيطان ووسيلته الى ازلال آدم بل جعلهما سواء فى تلك الزلة حيث جاء التعبير عنهما بضمير التثنية « فازلهما الشيطان عنها» وجعلهما سواء فى تحمل المسؤولية وما يترتب على ذلك من نتيجة « فأخرجهما مما كانا فيه » .

وقال تعالى فى سورة الاعراف : « ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . **فوسوس لهما الشيطان** ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما **ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من** الخالدين ، وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفرلنا **وترحمنا لنكونن من الخاسرين** » (2) ، وفى هذه الآيات الكريمات بين الله سبحانه ان الشيطان وسوس لآدم وزوجه مستعينا بالقسم على انه لهما لمن الناصحين فاغترا به وذاقا الشجرة ، والله سبحانه وتعالى يجعل آدم وزوجه سواء فى تلقى وسوسة الشيطان وفى الاستجابة بذوق الشجرة المنهى عنها « فوسوس لهما الشيطان » « وقال ما نهاكما ربكما » « وقاسمهما » « فدلاهما بغرور » « فلما ذاقا الشجرة » .

وبعد تفهم كلام الله سبحانه فى هذين الموضعين ننتقل الى ثالث المواضع من كتاب الله تعالى التى ذكر الله فيها اهباط ابوينا من الجنة ، وذلك فى سورة طه حيث قال الله تعالى : « **فوسوس اليه الشيطان** قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فاكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (3) ، وهنا نجد ان الله سبحانه تحدث عن آدم بالانفراد ، انه عهد اليه ، وانه نسى ، وانه خوطب بان ابليس عدو له ولزوجه . ثم يخبر الله سبحانه عن الوسوسة والمعصية والتوبة : « فوسوس اليه الشيطان » ، « هل ادلك » ، « وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» كل ذلك بالانفراد وكأن آدم يتحمل المسؤولية كاملة .

ونلاحظ ان « سفر التكوين » يجعل الغضب الالهى منصبا على الحية حيث كانت هى مطية ابليس لدخول الجنة لمباشرة عملية الاغواء بزعمهم ، ولذلك حلت عليها اللعنة وضربت بينها العداوة وبين بنى آدم وجعلت تمشى على بطنها بعد ان كان لها قوائم . اما بالنسبة للمراة فجعل من عقوبتها ان الله يكثر مشقات حملها ويجعل ولادتها مقرونة بالالم ويجعل عاطفتها واشواقها منقادة لزوجها ويكون زوجها هو صاحب السيادة عليها ! !

جاء الاسلام فخلص المراة من هذه الوساوس والهواجس التى توحى للمراة بأن مشقة الحمل والم الولادة انما هى عقوبة الهية وان حب المراة لزوجها وشوقها اليه انما هو عقوبة كذلك ، وجعل علاقة المراة بزوجها علاقة تواد وتراحم اذ يقول سبحانه : « وجعل بينكم مودة ورحمة » ، كما نفى ان تكون للرجل على المراة مرتبة السيادة التى تعنى علاقة سيد بعبد ، بل جعل له عليها درجة هى درجة القوامة ، فهو القيم عليه بمعنى المسئولية عن كل ما فيه صلاح أمرها واستقامة شأنها ومئونتها وكفالتها والمحافظة عليها .

***

ولا بد لى فى آخر هذه الكلمة من اشارة سريعة الى اولئك الذين يظنون او يوهمون ان القرآن الكريم من كلام محمد صلى الله عليه وسلم وانه مقتبس من كتب اهل الكتاب فاقول : هل يمكن لبشر كائنا من كان عاش فى صحراء الجزيرة العربية قبل اربعة عشر قرنا ان يأتى بكتاب يصحح اغاليط أهل الكتاب ويتنزه عن تزييفاتهم دون تأثر بها ولا بروح عصره ويكون هذا الكتاب من عند نفسه ؟ اللهم لا .

ان القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى أوحى به الى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعله خاتمة كتبه الالهية لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . ولقد رفع الظلم والاضطهاد والحيف والشؤم عن المرأة لا لثورة قامت بها النساء أو تطور وقع في المجتمع ولكن لان الارادة الالهية العلية كرمت الانسان من حيث هو انسان ، قال تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (4) ، صدق الله العظيم .

التعاليق :

1) الآيات 25 — 27 .
2) الآيات 19 — 23 .
3) الآيات 120 — 122 .
4) الآية 1 من سورة النساء .

« فليكن شعبنا موقنا بأن الحسن الثاني يحمل اسم المواطن المكتوب في حالته المدنية الحسن بن محمد ، محمد الذي جند القرائح وحقق استقلال بلاده ووحدة ترابها . ولا يمكن أن يكون ابنه سائرا على طريقة مخالفة لما سار عليه ابوه وهو الذي قاسم منفاه وكل ما جاش بصدره من عواطف نحو شعبه ومستقبل بلاده ، والحسن ابن الملوك العلويين الذين جندوا انفسهم لتوحيد التراب لا للتخلي عنه ، ويستحيل أن يكتب في صحيفتي أن ابن العلويين سار على غير طريقهم ».

جلالة الملك الحسن الثاني

أهمية الجانب التربوي

في علاج جنوح الأحداث والمراهقين

للأستاذ محمد عبد العزيز الدباغ

ان انحراف الاطفال والمراهقين وحدوث الجرائم منهم ربما لا نحس بخطره الا بعد اكتشاف امرهم من طرف رجال الامن والقاء القبض عليهم واستنطاقهم وتقديمهم للمحاكم التي تحكم احيانا بادانتهم وبارسالهم الى الاصلاحيات لمحاولة تهذيبهم وتقويم سلوكهم. ولكننا لو فكرنا جديا لعلمنا أن الامر يكسب خطورته من الاستعداد للانحراف في طبيعة الطفل قبل ان يصبح الانحراف شديدا وقبل ان يتخطى اطاره العادى الى الاطار الاجتماعى العام الذى يهدد الامن ويفسد الاستقرار ويفوت فرص السلام على الفرد والجماعة .

وجدير بالآباء والمربين والاساتذة والمعلمين والمسؤولين عامة ان يعوا هذه الحقيقة وأن يحاولوا معرفة طبيعة الاطفال وكيفية استغلالها في تهذيبهم وتربيتهم وتوجيههم لما فيه الخير لهم وللبلاد .

ان اسباب الانحراف كثيرة جدا ولكن اغلبها يرجع الى الجهل بطبيعة الاطفال والى عدم القدرة على السيطرة على سلوكهم بطرق سليمة لا تعرقل النمو الطبيعي للطفل ولا تحد من نموه النفسي ولا من ابراز عناصره الشخصية التي لا تتنافى مع تلاؤمه الاجتماعى العام . ولهذا كان من الضروري مراعاة الامور التالية :

أولا — طبيعة الطفل في أثبات ذاته

ان أثبات الذات واظهارها صفة انسانية عامة لا مناص لنا من التخلص منها . وطريقة الاثبات هذه تختلف باختلاف المواقف وباختلاف الافراد في مستوياتهم البيئوية أو اختلافاتهم العمرية ؛ وقد يجد الذين يريدون اثبات الذات عوارض خارجة متصلة بالعادة أو القانون او عوارض ذاتية مرجعها الى امراض نفسية او جسدية وتتنوع مواقفهم بتنوع هذه العوارض أو تنوع هذه المستويات البيئوية أو العمرية ، وفرق كبير بين مواجهة الرجل الراشد لبعض العوائق ومحاولة التغلب عليها بتحليلها وربطها بالتكيفات الاجتماعية وبالحكمة

(1) اقامت جمعية رعاية الطفولة والاسرة مندوبية الحرية المحروسة بفاس تدريبا للمندوبين المتطوعين في شهر دجنبر 1976 واستدعت لهذه المناسبة عددا من الاساتذة لالقاء محاضرات في موضوع الانحراف ، فشاركت بمحاضرتين اما اولاهما فهاته وأما الثانية فموضوعها « انعدام الجو التربوي في الاسرة واثره في انحراف الاحداث » وسنوافي القراء بها ايضا في عدد آخر ان شاء الله .

العقلية وبالمقارنة بينها وبين المصلحة العامة وباستخدام عناصر الفكر ووسائل الاقناع والاقتناع وبين ذلك عند الطفل الصغير والمراهق اللذين يحتاجان الى عناية كبرى من المربين لخلق التوازن بين تحقيق رغباتهما وبين تعديل هذه الرغبات ، فكل عملية تدخل القسر والعنف فى الحد من اثبات الذات دون مراعاة الجانب النفسي ودون محاولة التفسير السليم لهذه النوازع ودون محاولة التبرير لتخفيف الرغبات او العمل على النكوص والاحجام قد تؤدى حتما الى انحراف خطير عند الطفل أو المراهق معا .

ولهذا غلبت ظواهر الانحراف عند الاطفال الذين لم تتعهد فيهم هذه الغريزة فاهملوا اما باعطائهم الحرية الى أبعد حدودها فعاشوا مدللين يعملون كل ما أرادوا أو بقهرهم وكبتهم ومنعهم من كل الوسائل التي يثبتون بها ذواتهم ويحققون بها شخصياتهم .

ومن هنا كانت طريقة الاعتدال فى التربية مهمة جدا لانها وسط بين طريقتين كل منهما ضار الا وهما طريقة الحرية المطلقة وطريقة القهر المطلق

ومن المفروض تربويا ان رعاية هذه الظاهرة النفسية يسأل عنها مباشرة الآباء والامهات ومن يقوم مقامهم من الاولياء فى البيت كما يسأل عنها المعلمون والمربون فى المدارس ثم سائر افراد الهيئة الاجتماعية فى المجتمع .

وبتوزيع هذه المسؤولية لا يهمل يتيم ولا فقير ولا عاجز ولا فاقد للرعاية فى البيت بسبب اهمال الوالدين او بسبب جهلهما او انحرافهما او بسبب وضع الطفل فى بيئة سلبية لا تستطيع توجيهه او تهذيب نوازعه الامارة بالسوء .

ثانيا — طبيعة الطفل فى ميله الى الاعتداء

هذه الطبيعة قد تكون مرتبطة احيانا بالظاهرة الاولى التي تتعلق باثبات الذات وهي غالبا ما تتصل بغرائز الطفل اللاشعورية قبل تهذيبها من طرف المجتمع . وقد حاول فرويد ابراز الجانب العدواني فى نفس الانسان وأبراز هذه العواطف اللاشعورية فى ظاهرتين عبر عنهما بغريزة الجنس وغريزة الموت وهذه الغريزة الثانية هي التي جعلها منشئة العدوان والعنف، فى نفس الطفل وخالقة المقاومة والمقاتلة فى سلوكه .

ومن الطبيعي أن هذه الغريزة العدوانية قد تصبح عنيفة الى أبعد الحدود وقد تعيش مع الانسان مراحل نموه فتنغص عليه استقراره فى ايام شبابه وفى ايام كهولته وبعد ذلك ويتعرض بسبب تعبدها الى أزمات نفسية خطيرة والى أمراض عصبية والى انحرافات ومخالفات قد تصل الى حد الاجرام .

ولهذا لا يمكننا ان نتناسى قيمة هذه الغريزة فى تهذيب الفرد وتوجيهه وخلق المناسبات الصالحة لتبديد بعض مظاهر العنف والعدوان وتوجيهها توجيها سليما يتعاون فيه المربون مع الجانب المتعلق باثبات الذات وتوكيدها تعاونا يستطيعون به الا يجعلوا بعض الافراد الذين يحملون بذور العدوان يتصرفون فيه تصرف الساديين Sadiques الذين لا تحلو لهم الحياة الا مع العنف الصاخب والعدوان المدمر للاشخاص والاشياء .

ويمكن استهلاك هذه الطاقات فى تنظيم الالعاب الرياضية وتوزيع المسؤوليات على التلاميذ داخل الفصول وتهيىء الجمعيات المهتمة بالنشاط الجسمي والفكري واستغلال الاندية الاجتماعية والثقافية لابراز المواهب وتحقيق المعطيات الطبيعية وتمكينها من الظهور فلا تتلاشى ولا تكبت كبتا يؤدى الى الانفجار .

وقد حاول رجال التربية فى العصر الحاضر ربط الدراسة بانشطة موازية للتعليم يحاولون فيها مراقبة هذه النوازع النفسية وتوجيهها توجيها سليما يبعد الاطفال من الانحراف ولا يترك لهم مجال الاندفاع الحاد الذى يؤدى فى بعض الاحيان الى استعمال العنف والتدمير .

ثالثا — ميل الاطفال الى الاستقرار النفسى وتعطشهم للحب والحنان

ان عدم الاستقرار فى حياة الطفل وفقده للرعاية الكاملة وحرمانه من الحب والحنان يحدث فيه عقدا شتى تجعله مضطربا قلقا لا سلطة له على التمكن من زمام نفسه ولا على التصرف فى توجيه ارادته نحو ما يريد . ولهذا لو بحثنا عن أسباب الانحراف

فنجد من بينها انعدام هذه الرعاية أو فقدان هذه المودات .

ومن هنا جاءت المسؤولية الكبرى على الاباء والامهات ثم على المربين ثم على المجتمع بكل هيآته

ان دور الاسرة هنا يقتضي الاهتمام بالطفل واشعاره بوجوده وبانه كائن حي مرغوب فيه له قيمته فى الحياة ويتوصل الى ذلك عن طريق المحبة وحسن الرعاية فاذا شعر الطفل بأنه عالة على من يتولون مراقبته وبأنه مشكلة من مشاكلهم او بانهم لا يأبهون به ولا يقدرون وجوده فهو يتحدى هذا الواقع ويرد اثبات ذاته بكل الوسائل التي تشعر هؤلاء الذين عاملوه بفتور واهمال ولو ادى الحال الى استعمال العنف والتخريب واذاية الآخرين .

ان الطفل اذا عدم الرعاية يسلك مسلك الجانحين ويصب جام غضبه على ما حوله وعلى من حوله وحينئذ يصعب اصلاحه لانه يكون قد فقد الموجهين الموفقين الذين يبثون فيه مسالك الخير ومهايع الفضيلة .

وهذا هو السر فى ان التربية الدينية تجعل مسؤولية الرعاية مسؤولية جسيمة سواء من الآباء او الاولياء وتنص على حفظ معنوية اليتيم لئلا يشعر بفراغ فى حياته التربوية وما احكم قول الله تعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بالآيات التالية (2) : « والضحى والليل اذا سجا ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فاغنى فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .

ففي هذه السورة نهي عن قهر اليتيم لئلا يحس بسبب هذا القهر بفراغ روحي يجعله بعيدا عن مناهل الحب ويدعه قلقا متبرما وفي ذلكم من العواقب الوخيمة على التكوين الاجتماعي ما هو ظاهر .

ولعل هذه الظاهرة اي ظاهرة الاهمال وعدم الاشعار بالحب هي التي دفعت الشاعر احمد شوقى فى بعض قصائده الى ان يقارن بين الطفل المهمل الذي يفقد رعاية والديه بسبب انشغالهما عنه وبين اليتيم فقرر بأن فقدان الرعاية أشد ضررا على الطفل من اليتيم الحقيقي فهو الذي يقول :

ليس اليتيم من انتهى ابواه من
هم الحياة وخلفاه ذليلا

فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما
وبحسن تربية الزمان بديلا

ان اليتيم هو الذي تلقى له
اما تخلت او ابا مشغولا

ان رعاية الاطفال ومواساتهم وابراز ملامح المحبة فى معاملتهم لمن الضرورات التربوية والاجتماعية التي يجب ان تصاحب المربين فى كل حين .

وكم كان يؤسفني وانا استاذ بثانوية مولاي ادريس سنة 1960 م ان ارى احد تلامذتي يقدم للمجلس التاديبي بسبب اهماله لدروسه وبسبب مشاكسته لبعض اساتذته دون ان يبحث هذا المجلس عن اسباب هذا الاهمال وهذه المشاكسة .

وكنت حينئذ واثقا من ان هذا التلميذ لا ارادة له فى تلك النتيجة وذلك السلوك فأحببت ان اعرف السبب بنفسي فقدمت موضوعا انشائيا آنذاك طالبت فيه من تلامذتي ان يكتبوا رسائل لبعض اقاربهم يتحدثون فيها عن نتائجهم ودرجاتهم بكل صراحة فوجدت من خلال تلك الموضوعات هذه الرسالة التي كتبها ذلك التلميذ المعني بالامر (3) .

« استاذي لا أجد لي قريبا اكتب اليه رسالتي الا اخا لا اريده ان يطلع على حقيقة امري ولذلك اوثرك عليه وابوح لك بحقيقة نفسي .

ان نتيجتي فى الامتحان سيئة جدا ومرجع ذلك الى ظروفي وامكانياتي فانا طفل يتيم فقد ابويه فى حادثة سير وكفلني من بعدهما اخ احسن الي واعانني على متابعة دروسي الابتدائية حتى اذا انتقلت الى القسم الثانوي وجدتني اواجه امرا جللا ذلك ان اخي تزوج بامراة تحسن الدهاء واطمأن اليها فى

(2) هذه الآيات مكية وتمثل سورة الضحى وعددها احدى عشرة آية .
(3) اصل الرسالة مكتوب بأسلوب يتلاءم مع مستوى ذلك التلميذ .

معاملتي فأسات وظن انها تعاملني بالحسنى فظلمت الشيء الذي ادى الى اضطرابي وقلقي وشكي في قيمة الحياة فصرت من حين لآخر اهيم في التفكير واذهل عن متابعة الدروس واصبحت نتائجي متدهورة ودرجاتي عند الاساتذة ضعيفة وعاملني اكثرهم معاملة قاسية وصرت اوازي بيني وبين نفسي فعلمت ان اخلاقي تبدلت وسلوكي كاد يصبح شاذا .

اني اصبحت أكره من حولي . ان الكراهية التي تحملها زوجة اخي الي وانا برىء لم تحل بينى وبين كراهية الآخرين وان كانوا ابرياء .

اني لم اعد قادرا على ضبط نفسي ولا على التحكم في زمامها وان ادنى ملاحظة من أساتذتي الي جعلتني أثور واتمرد واواجهها بالعنف العنيف وكانت النهاية ان قدمت الى المجلس التاديبي لضعف نتائجي وسوء سلوكي حسب ما جاء في بعض الملاحظات المسجلة في الدفتر المدرسي .

استاذي اني لاخشى ان يصبح ما قالوه امرا واقعا فانا قلق مضطرب سريع الغضب بطيء الرضا خشن المعاملة اتوقع عما قريب ان اطرد من المدرسة وان يصبح زمام مصيري بيد العنف والذى سيوجهني نحو الخراب والتدمير » .

ان هذا الاعتراف من طرف هذا الطفل متلائم مع قوانين علم النفس وعلم الاجتماع وهو في الحقيقة مدعاة الى اثارة الانتباه من طرف المربين والآباء والاولياء تعلينا جميعا تقع المسؤولية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصحه الا لم يجد رائحة الجنة (4) » .

فلننشر الاوية المحبة على اطفالنا وعلى كل من نتولى رعايتهم لنخلصهم من العقد ولنبعدهم عن مزالق الضلال .

وليس المراد بالحب ان نكون ضعافا ازاء سلوكهم وان ندع لهم الحرية المطلقة يعملون كل ما ارادوا وانما المراد بالحب ان يشعر الطفل بالاطمئنان وان يحس بالحنان وان يعلم ان مواقفنا في تربيته ليست ناتجة عن حقد دفين او عن كراهية متفجرة او عن دوافع انتقامية ، فالحب رعاية والرعاية تقتضي ان نعد الطفل للحياة السعيدة وان نجعل منه انسانا سويا .

رابعا ــ ترك الفرصة للطفل لمراقبة أعمالنا الصالحة

ان الطفل يقلد بطبيعته وهو سريع التاثر بمن يجاوره وغالبا ما تشكل شخصيته بشخصية من حوله ونحن مسؤولون عن اثارة المخاوف في نفسه وعن زرع بذور القلق والاضطراب في سلوكه فاذا اردنا منه ان يكون متزنا مستبشرا بمستقبله فلنكن نحن متزنين مستبشرين ولنمارس تربيته بصبر واناة ولنبعد عنه مظاهر انفعالاتنا الحادة فلا نعامله بسوء ولا نرتكب السوء امامه في معاملة بعضنا لبعض .

ان المربي اذا قدر قيمة ضبط النفس في معاملة الاطفال والمراهقين وعرف قيمة الصبر امامهم فانه لا محالة سيطبعهم بسلوكه وسيعودهم ايضا على التمسك باخلاقه وسيجعلهم شاعرين بمسؤولياتهم عارفين قدر انفسهم متحكمين في غرائزهم ولقد تنبه المربون الى ذلك في جل قوانينهم واحكامهم .

ففي مقاطعة الينوى بامريكا توجد مؤسسة لتقويم سلوك الاولاد المنحرفين كان يترأسها الاستاذ شازوليونارد الذي اكتسب تجربة من تسيير هذه المؤسسة ادت الى ان يؤلف كتيبا قيما عن اسباب الانحراف (5) . قال في كتابه هذا : « يعرف الآباء والمدرسون الذين يفهمون الاطفال ان الصبر في معاملتهم فضيلة فالمدرس الذي يضطرب اضطرابا

---

(4) يوجد الحديث بهداية الباري في ترتيب احاديث البخاري لعبد الرحيم الطهطاوى الجزء الثاني صفحة 177 .

(5) اسم الكتاب المذكور لماذا ينحرف الاطفال ؟ ترجمه الى العربية الدكتور محمد نسيم رافت واشرف عليه وقدمه الدكتور عبد العزيز القوصي ونشر في العدد الثاني من سلسلة الدراسات السيكولوجية المسماة كيف نفهم الاطفال اخذ النص من صفحة 52 .

ظاهرا عند ما ينتقده تلاميذ النصل والاب الذي يتغيظ كلما حاد الاطفال عن جادة الصواب هؤلاء يعملون فقط على زيادة تعقيد مشكلات أطفالهم ويكون رد فعل هؤلاء الاولاد والبنات على نفاد صبر الكبار هو التبرم منهم والكره الشديد لهم .

لا يستجيب الاطفال استجابة طيبة الى المعاملة الخشنة ، والعقاب الصارم والتأديب لا يحل المشكلة لانه لا يزيل اسباب الانحراف بل يزيد المشكلة تعقيدا » .

ومن خلال هذا النص نعلم ان ضبط النفس فضيلة تعين على التخفيف من عقوبة الاطفال وتسيير سبيل التحكم فى طبائعهم وفى توجيههم ولا يستطيع المربي تحقيق ذلك اذا كان جاهلا بأصول علم الاخلاق وبقوانين أصول التربية ولهذا كانت العناية بتربية المربين واجبة لان فاقد الشيء لا يعطيه .

مما تقدم نعلم ان جل أسباب الانحراف ترجع اما لجهل الكبار بطبيعة الصغار واما لفساد سلوك الكبار انفسهم او لفساد الاوضاع الاجتماعية .

ولهذا يمكننا ان نضيف الى ما تقدم اسبابا اخرى للانحراف كاهمال الاطفال وعدم اتاحة الفرصة لهم فى تلقي التربية السليمة لضعف مستوى أسرهم أو لانفكاك هذه الاسر بسبب انتشار الطلاق او انتشار الخصومات العائلية .

اذن يجب أن تكون العناية بتربية الاسرة ذات اعتبار فى المفاهيم التربوية ورحم الله احمد امين الذي يقول : « ليست الامة الا عدة أسرات وليست المدينة الا عدة بيوت والسلوك الذى يسلكه الناشىء فى بيته ليس الا صورة مصغرة لسلوكه بعد فى امته واذا كان منبع النهر ملوثا تلوث النهر فصلاح الامة وصلاح البلاد دائما هو بصلاح الاسرة » .

ومن الاسباب عدم تيسير التعليم الكافى وترك مجال البطالة فى المجتمع مع اكتظاظ بعض الاسر بالاطفال دون ان تجد الوسائل الكفيلة لحماية هؤلاء الاطفال ماديا وتربويا فيكثر التشرد والضياع والاهمال .

ان الفقر مشكلة عويصة جدا تلعب دورها فى انتشار اسباب الانحراف . وعلى الامة التى تريد الابتعاد عن التخلف ان تفكر فى الوسائل الاقتصادية الكفيلة بابعاد شبح الفقر اللعين عنها لانها بذلك ستيسر المجال الصالح لبناء دولة مجهزة أحسن تجهيز مشتملة على مؤسسات العلم والمعرفة والصحة عاملة على نشر الفضيلة واتاحة تكافؤ الفرص للمواطنين على اختلاف طبقاتهم وحيثياتهم .

ومن اسباب الانحراف عدم انتشار الوعي الكافي بين المواطنين وعدم تحملهم مسؤولياتهم على احسن وجه .

ان المواطنين الذين يحملون هذه المسؤولية يعرفون كيف يستغلون المواقف ويساعدون بما لديهم من امكانيات فيساهمون فى انجاح المشاريع الاجتماعية البناءة ويشاركون فى التنمية والتوجيه ويعملون على وضع المخططات السليمة وعلى تطبيقها وفق الاختصاصات التي يمثلونها فى البيت أو المدرسة أو المجتمع او على صعيد المسؤولية الادارية والقانونية فى تسيير البلاد .

هذا وليعلم الآباء والمربون ان الاطفال غالبا ما تتشكل تربيتهم حسب البيئة التي ينشؤون بها وان دور الكبار عظيم جدا فى تهذيب الصغار أو فى الاطاحة بهم نحو الرذيلة والانحراف .

ان علماء النفس وعلماء الاجتماع ابدوا فى دراساتهم وجود علاقة وثيقة فى التربية بين الطفل والبيئة مرجعها الى الالتقاط المعنوي الذى يتلقاه الطفل مما حوله وممن حوله ؛ هذا الالتقاط الذي يصير امتصاصا لسلوك الآخرين فيطبع الشخصية بالخير او الشر .

وان الخطر لا يكمن فى هذا التقليد اللاشعورى الناتج عن العادة والملاحظة والمراقبة ولكن الخطر يكمن حينما تكون القدوة سيئة ويريد الطفل تقمص شخصية عن ارادة وسبق أصرار فيتعذر حينئذ الاصلاح ولا ينفع وعظ ولا ارشاد ولا وعد ولا وعيد . وفى هذه الحالة يصبح العلاج صعبا ويصير الانحراف مرضا اجتماعيا خطيرا ما كان اجدرنا ان نتوقاه قبل الوقوع فيه فالوقاية أفضل من العلاج والحذر خير من الوقوع فى المزالق ولهذا يمكننا ان نحدد بعض وسائل الوقاية فيما يأتي :

اولا — نشر وعي كاف بين المواطنين يذكرهم مسؤولياتهم ويوضح لهم حدودها

ثانيا ـ العمل على تعميم التربية الجماعية للكبار ، وذلك عن طريق الجمعيات الدينية والاخلاقية وعن طريق المرشدين التربويين ويجب ان نستغل فى هذا المجال المساجد والاندية والاذاعة والتلفزة وكل الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الاهداف خصوصا المسرح والسينما لما لهما من التأثير السمعي المباشر الذي يقوم مقام الارشاد المكتوب فدورهما فى الدول التى تنتشر فيها الامية عظيم .

ثالثا ـ الحرص على ابعاد المجتمع عن كثير من المظاهر العبثية التي اصبحت مسيطرة فى بعض الفلسفات والتي دعت الى التحلل من القيود الاخلاقية والدينية بدعوى تحرير الفرد من الخنوع والذلة وجعله مثبتا لذاته عن طريق شعوره بوجوده لا عن طريق مثاليات فرضت عليه من الدين او المجتمع .

رابعا ـ ربط المناهج التعليمية ببعض الدراية العملية الصالحة لمسايرة التقدم الصناعي المعاصر حتى اذا لم ينجح التلميذ فى دراساته النظرية استطاع ان يعوض ذلك بتلك الدراية الصناعية فيكتسب بها رزقه وييسر بها عمله وحينئذ لا يكثر العاطلون الذين لا يعرفون كيفية ملء فراغهم وتقل الخطورة التي يحدثها الفراغ مع الجهل والبطالة . ان البطالة والجهل وسوء التكوين اعشاش الرذيلة وبذور التخلف والانحطاط .

خامسا ـ العمل على ايجاد مدارس المنحرفين وتوجيههم فتساعدهم على التخلص مما يعانونه من ازمات نفسية او عصبية .

سادسا ـ مساهمة جميع المسؤولين فى التخفيف من اعباء هذا الانحراف كل فى واجهته التي يدبر فيها اعماله وخير مثال لذلك هذه الالتفاتة التي دعت الى اقامة هذا المهرجان التربوي والذي شاركت فيه هيآت مسؤولة رسميا عن توجيه النشء المنحرف كما شاركت فيه هيآت تربوية حرة تسعى من ورائه الى ابراز خطر الانحراف ووضع الخطط السليمة للعلاج .

سابعا ـ العمل على التكثير من هذه الندوات التربوية التي تضم رجال التعليم وعلماء النفس والاجتماع والمسؤولين عن القوانين المتعلقة بالجنح والجرائم والمكلفين بالوعظ الديني وبعض الادباء لتكون الدراسة شاملة ولنستطيع تحديد المشاكل ووضع الحلول لها فى اطار العلم والدين والقانون .

ثامنا ـ أن تنشر النتائج الكفيلة بالتخفيف من الجنح وان تتعاون على تطبيقها وتنفيذها واذاعتها كل الهيآت لا فرق بين المسؤولين الرسميين وغيرهم

وانا على يقين ان هذه المجهودات المتنوعة اذا ادخلناها فى عنصر التربية فسنصل بحول الله الى التخلص من اعباء هذه الاضطرابات النفسية المؤدية الى جنوح الاطفال والمراهقين والى اجرام غيرهم من المتخلفين علما واخلاقا وستقل بفضل هذه العناية كثير من المخالفات والجرائم وسنساعد على وضع اسس متينة لمجتمع فاضل آمن وسنمهد لاطفالنا فى المستقبل ما نرجوه لهم من الاستقرار والرخاء وسلامة الاخلاق .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ

إعداد الشباب

للأستاذ محمد حمادي العزيز .

كل انسان يكتب الله لـه أن يعيـش عمـرا مديدا يعرف الشباب حق المعرفة ، ويقدر قيمته ، ويسعد بالاستمتاع به ، وينعم بالسعي والكد والجد والتفاني في العمل والانتاج في سنواته ليقيم أسسا متينة لهنائه واطمئنانه وراحته .

والانسان الذي يعيش شبابه قويا ونشيطا ومتفائلا ومرحا يحظى بحياة هادئة ، وصحة موفورة ، وحيوية ايجابية ، وهو اذا عرف كيف يحافظ على شباب روحه وفكره و « جسمه » لا يشيخ ابدا بل يظل دائما شابا ، وان أصاب جسمه ما أصاب من تطورات وضعف ووهن ، ويموت وكأنه ما يزال في رشد الشباب ، متمتعا بكامل وعيه ، وصفاء ذهن ، وروعة هدوئه .

اما من يستهلك شبابه استهلاكا سيئا فانه غالبا ما يعيش كهولة وشيخوخة تعيستين كئيبتين .

ان الشباب هو الامل ، وهو العمل ، وهو الدعامة الاساسية لوصل مجهودات الحياة الانسانية في كل حاضر بكل ماض وبكل مستقبل كي يستمر وجود النوع الانساني ، وتترابط حلقات تراثاته الحضارية والثقافية ، وتتلاحم تلاحم الاجيال والعصور .

لهذا كان لا بد أن يحظى الشباب باهتمام زائد ، ورعاية دائمة من طرف كل المسؤولين عن اعداد الشبان للحياة اعدادا علميا فلسفيا وروحيا وتنظيميا ورياضيا .

ويعني اعداد الشباب للحياة تهيئة ورعاية الشبان ليعيشوا في كل عقد من عقود أعمارهم شبانا راشدين ، واعين ، أقوياء ، نشيطين ، عاملين مستعدين لتحمل اعباء المسؤوليات والمهام في كل حين ، وبخاصة عندما يكون الوطن في أوضاع حرجة تحفه الاخطار ويناديهم لردها ودحر المعتدين!

ومن غير الشبان يستطيع أن يرد الاخطار عن الوطن ؟ !

ويشهد التاريخ ، وبخاصة في القرن العشرين، أن المواطنين الذين دافعوا عن الوطن وناضلوا من أجل حريته واستقلاله وسيادته كانوا شبانا في ريعان الشباب وعنفوانه .

ان تاريخنا المعاصر الذي سجل صفحات ناصعة البياض لشبابنا في هذا القرن العشرين — الذي مازال لم ينته بعد — يؤكد لنا أهمية الاعتناء باعداد الشبان ليكون كل شاب مستعدا لتحمل المسؤوليات الوطنية بالاضافة الى اعباء حياته اليومية والتزاماتها .

وما دام هذا الاعداد يستهدف تحمل المهام والمسؤوليات الوطنية، فانه يجب أن يجعل من كل

شاب مواطنا وطنيا روحا وفكرا ودما لينصب بكليته على اداء واجبه الوطنى .

اجل ان « الوطنية » شرط اساسى فى برامج ومناهج اعداد الشبان لتحمل المسؤوليات اثناء قيامهم بتقديم الخدمات للوطن .

ان اداء الواجب الوطنى ينجز بروعة عندما يكون الحافز الذاتى والجماعى هو « الوطنية » والالتزام بها .

والاعداد الجيد للشبان يجب أن يتوخى توعيتهم ليتمسكوا « بالوطنية » مهما كانت مغريات الايديولوجيات التى يقرأونها او قد يمكن أن يتأثروا بها .

— ولماذا ؟

— لان التمسك « بالوطنية » يعنى الاعتزاز بأصالة « الوطن » والتشبث بشخصيته ، والعمل الدائم الدائب على الحفاظ على كيانه ووحدة ترابه ، اما التأثر بالايديولوجيات الاجنبية فانه قد يعنى التورط التدريجى فى الانجراف الى التبعية السياسية التى تبدأ اول ما تبدأ اعجابا ثم تبعية فكرية ، وهو الامر الذى يستوجب الحذر والحيطة .

وخليق بالفكر الوطنى ان يبدع ! وان يبتكر ! وان يخترع ! وان يأتى بالافكار والآراء الجديدة ، والاجتهادات العصرية الحديثة ! لا ان يقلد « كالقرد » او « كالببغاء » فكرا آخر — مهما بلغت عظمته ، مع احترامى لكل فكر وحريته — لمجرد التقليد ، او لمجرد الاعجاب ، او لمجرد الانجذاب مع « الموضة » الوقتية العابرة .

ان الواجب الوطنى يقضى علينا ان نلقن الشبان ونحن نعدهم ان يجتهدوا ليأتوا بمذاهب جديدة ، ونظريات واختراعات وابتكارات حديثة مثل غيرهم من اصحاب المذاهب والنظريات والاختراعات والابتكارات السابقين والحاضرين والآتين لانهم بشر واناس مثلهم لا يمتازون عنهم فى اى شىء ما عدا بالاجتهاد !

والشبان هم المفكرون الوطنيون الذين يجب على الكبار اعدادهم فى اطار مفاهيم الفكر الوطنى ومبادئه ، وفى احضان الاصالة الحضارية الوطنية العريقة لينشأوا احرارا مستقلين فكريا محصنين ضد التأثر بمغريات الايديولوجيات الاجنبية البراقة ، الطامعة فى ايجاد موطىء قدم لاستغلال وطننا ، واجتناب الوقوع فى حبائلها مهما بلغت درجات اغرائها .

وعليه ؛ فان فكرنا الوطنى الحر المستقل الاصيل هو حصنتنا الروحية والمعنوية التى نسهم بها فى اغناء التراثات الحضارية الانسانية العالمية .

وبدونه — اى بدون فكرنا الوطنى الحر المستقل الاصيل — تصبح مساهمتنا صفرا ولا شىء بالنسبة لمساهمات غيرنا .

ولكى نبقى ونستمر كما كنا حقيقة فى الحياة وفى الوجود الانسانى ، ولئلا نضحى مجرد صفر ولا شىء ، او مجرد تابعين وامعات فيهما يجب أن نختار دائما فكرنا الوطنى الحر المستقل الاصيل ونتمسك به !

واذا كان فكرنا الوطنى الحر المستقل الاصيل قد كون فى العهود التى خلت حضارة امتدت اشعاعات اشراقاتها الى جميع انحاء كوكبنا المعمور ، وبخاصة تلك التى كانت تغط فى سبات الجهل والجاهلية ولم يكن لها آنذاك اى قسط من التمدن والعمران والعرفان فانه مدعو فى كل آن من كل يوم من ايام حاضرنا الى أن ينشىء حضارة وطنية اصيلة عصرية حديثة جديرة بنبوغه ، وعبقريته .

لقد اقام الاسلاف حضارتنا التليدة فى ظروف حياتية اذا قيست بظروف حياتنا الحاضرة يمكن ان توصف بأنها ظروف « تقشفية » فهل يصعب على الاخلاف اقامة دعائم حضارة وطنية اصيلة عصرية حديثة فى ظروف حياتية تزداد سهولة ويسرا ورفاهية كل يوم ؟ !

والاجابة على هذا السؤال تخص الشبان الكبار والشبان الناشئين الصغار ، واعتقد انها يجب أن تكون ايجابية !

ان فكرنا الوطنى الحر المستقل الاصيل ينبغى أن يكون وسيلة غائية لرسالتنا الحضارية التمدنية العمرانية ، الروحية والاجتماعية فى حاضرنا .

وما دمنا نحيا الحياة ، ونوجد فى الوجود الانسانى فلا بد أن تكون لنا رسالتنا الحضارية التمدينية العمرانية الروحية والاجتماعية الوطنية الخاصة بنا والمنبثقة من فكرنا الوطنى الحر المستقل الاصيل الذى هو الوسيلة الغائية لتربية شباننا واعدادهم للحياة ، ومواجهة صروف الايام ، وتحمل المسؤوليات والمهام .

وان رسالتنا الحضارية التمدينية العمرانية ، الروحية والاجتماعية ، ينبغى ان تشمل كل ركن من أركان وطننا لينعم بها كل انسان فيه .

ولهذا فان الشبان مدعون الى بذل الجهود المتظافرة ليستوعبوا أسباب الاعداد التى تقدم لهم ليكونوا قادرين على توصيل الحضارة والتمدين الى كل انسان وكل ركن ومكان فى التراب الوطنى .

وبدون الالتزام بهذه الرسالة فان حياة الشبان تكون مجرد جرى ضال فى متاهات السراب !

وخلاصة القول ؛ يجب ان يكون شبابنا نـدا لجميع شباب العالم ، وأن يقف على قدميه عملاقا فى كوكبنا الذى لا يبقى ويستمر فيه الا العمالقة الاقوياء !

« كونوا على يقين بأنكم ستجدون دائما فى ملككم وفى خادمكم الحسن الثاني ذلك الشاب الذى عرفتموه منذ نعومة أظفاره ، فى قسمه ، وعرفتموه فى الشارع ، وفى طائرة المنفى ، وفى موكب الرجوع من المنفى ، عرفتموه دائما سائرا وراء نهج أبيه ، وملكا دستوريا وجنديا على رأس جنوده ، وستجدون فى الحسن الثاني وبفضل معونة الله وبالتفافكم حوله ذلك الرجل الذي أبى على نفسه أن يخون الامانة ، وأن يكون دائما عند حسن ظنكم وقبل كل شيء عند حسن ظن روح والده الذي لم يدخر رحمه الله وقتا لا من ليله ولا من نهاره فى سبيل تكوينه حتى يكون الخادم الوفى للشعب الامثل ..

اللهم انى لا أسألك نفسى ولا مريم ابنتى وانما أسألك شعبى ».

جلالة الملك الحسن الثانى

كتب الزواجر والعظات

للوزير لسان الدين ابن الخطيب. (1)

تحقيق : دكتور محمد كمال شبانة

سبق أن بدأت بالتعرض لهذه الرسائل من « الزواجر والعظات » بالتحقيق والدراسة ، وذلك بنشر الرسالة الاولى منها على صفحات مجلة « الثقافة المغربية » بالعدد الثالث منها، وكانت تلك الرسالة من ابن الخطيب الى معاصره وصديقه الشيخ ابن مرزوق ، وهي الكتاب الوحيد الذي أفصح فيه المؤلف عمن بعث به اليه ، وبقيت الرسائل الثلاث تحت التحقيق والدراسة منذ ذلك الحين ، حتى أشار بعض الزملاء الافاضل بالمضي فى استكمالها ، فاستجبت رغبة فى أن يجد طلاب المعرفة ما يشوقهم نحو هذا اللون من التراث الاندلسي ، لا سيما من كاتب بارز مثل ابن الخطيب.

ولما كنت قد قدمت للرسالة الاولى آنفة الذكر بما اقتضاه الحال ، من بسط لفن أدب الحكمة، وما يستتبع ذلك من تزهيد فى تصرف الدنيا ، وترغيب فى الحياة الباقية ، وما كان من سوق لهذا فى الادب على مر العصور الاسلامية ... لذلك لا أرى مدعاة لأعود مرة أخرى لهذا التقديم، لا سيما وأن فحوى الرسائل الثلاث الباقية كاف للتعريف بقصد المؤلف ، وما نهجه من سبيل تبيانا لكل ما تنطوي عليه حكمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وابتغاء وجه الحق فى كل ما يصدر عن المؤمن من قول أو فعل.

فها نحن نقدم اليوم على صفحات « دعوة الحق » الرسالة الثانية من « كتب الزواجر والعظات » لابن الخطيب ، تلك التي ضمنها مؤلفه الكبير الادبي التاريخي « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » وجاءت خاتمة له كما سيتضح من « الرسالة الاخيرة » التي سننشرها مع التتابع بمشيئة الله تعالى .

وجدير بالذكر أن « كتب الزواجر والعظات » هذه تنشر لاول مرة ، وقد اعتمدت فى التحقيق على النسخة الكتانية المخطوطة (331 ك) بالخزانة العامة بالرباط للكتاب نفسه « الريحانة » .

وها هي الرسالة الثانية نصا :

« ومن ذلك (1) ما صدر عني في هذا الغرض بما نصــه ...

الحمد لله الولي الحميد ، المبدي المعيــد ، البعيد في قربه من البعيد ، القريب في بعده ، فهو اقرب من حبل الوريد (142.ب) محيي القلـوب للعارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومغنـي نفـوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار الى الغرض الزهيد، ومخلص خواطر المتقين من سجون حجون التقييد الى فسيح التجديد . نحمده وله الحمد المنتظمـة درره في سلوك الدوام وسموط التأبيد ــ حمد من نزه احكام وحدانيته واعلام فردانيته عن مرابـط التقليد ، في مخابط الطبع البليد . ونشكره شكر من افتتح بشكره ابواب المزيد . ونشهد أنه الله الذي لا الاه الا هو شهادة تتخطى بها معالم الخلق الى حضرة الحق على كنز التفريد . ونشهد أن محمدا عبـده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفذلكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنشور الادلال، واقطاع الكمال ، ما بين مقام المراد ومقام المريد ، الذي جعله السبب الاوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد ، وخاطب الخلائق على لسانـه الصـادق بحجتي الوعد (143.أ) والوعيد . فكان مما أوحى به اليه ، وانزل الملك به عليه من الذكر الحميـد ، ليأخذ بالحجز والاطواق من العـذاب الشديـد ، « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس بـه نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ في الصور ذلك يـوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطـاءك فبصرك اليـوم حديـد (3) » .

صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الاكيد ، وتسري الى تربته الزكية من ظهور المواجد الحبية على المريد . فعدت لتذكيري ولو كنت مبصرا لذكرت نفسي ، فمن أحوج للذكر اذا لم يكن منـي لنفسي ذاكرا . فيا ليت شعري كيف يفعـل في أي وعظ بعد موعظة الله يا احبابنا يسمـع وفي ما ذا وقد تبين الرشد من الغي يطمع ، يا من يعطي ويمنع، ان لم تتم (143.ب) الصنيعة فماذا تصنع . اجمعنا بقلوبنا يا من يفرق الجمع ، ولين حديدهـا بنـار خشيتك فقد استعاذ نبيك من قلب لا يخشع ، ومن عيـن لا تدمـع .

اعلموا ــ رحمكم الله ــ أن الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها من الاقوال والاحوال ، ومن الجماد والحيوان، والسنة الملوان ، فان الحق نور لا يضره ان يصدر من الخامل ، ولا يقصر بمحموله احتقار الحامـل ، وانتم تدرون انكم في اطوار سفر لا تستقر لهـا دون الغاية رحلة ، ولا تتأتى معها اقامة ولا مهلـة ، مـن الاصلاب الى الارحام ، الى الوجود ، الى القبور ، الى النشور ، الى احدى داري البقاء ، افي الله شك ؟ ! فلو ابصرتم مناشرا في البريد يبني ويعرش ، ويمهد ويفرش ، الم تكونوا تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركالة عقله ، ووالله ما أولادكم وشواغلكم عن الله التي فيها اجتهادكم الا بناء بسفر في قفر ، واعراس في ليلة نفر ، كأنكم بها مطرحة تعثر فيها المواشي ، وتنبـو العيون عن حفيرها (144.أ) المتلاشي .

« انما اموالكم واولادكم فتنة ، والله عنده اجر عظيم (4) » . ما بعد المقيل الا الرحيل ، ولا بعـد الرحيل الا المنزل الكريم أو المنزل الوبيل ، وانكـم تستقبلون اهوالا ، سكرات الموت بواكر حسابها ، وعتب ابوابها ، فلو كشف الغطاء منا عن ذرة لذهلت العقول وطاشت الاحلام ، وما كل حقيقة يشرحهـا الكلام . « يا أيها الناس ان وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور (5) » . أفـلا اعددتم لهذه الورطة حيلة ، لو اظهرتم للاهتمام بهـا مخيلة ، تعويلا على عفوه ، ــ مع المقاطعة ــ وهـو القائل « ان عذابي لشديد (6) » . أأمنا من مكـره

---

(1) اي مما تضمنه كتابه « ريحانة الكتاب » .
(2) الغرض : هو بات « الزواجر والعظات » .
(3) سورة ق ، آيـة : 16 ــ 20 .
(4) التغابـن ، آيـة : 15 .
(5) فاطـــر ، آيـــة : 5 .
(6) ابراهيـــم ، آيـــة : 7 .

ـ مع المنابذة ـ « ولا يأمن مكــر الله الا القــوم الخاسرون (7) » . اطمعا في رحمته ـ مع المخالفة ـ وهو يقول : « سأكتبها للذين يتقون (8) » . أو مشاقة ومعاندة « ومن يشاقــق الله فــان الله شديــد العقاب (9) » . أشكا فيه ؟ فتعالوا نعــد الحساب ، ونقرب العقد ، ونتصف بدعوة الاسلام أو غيرها مــن اليوم (144.ب) تفقدوا عقد العقائد عند التساهــل بالوعيد ، فالعامي يدهن الاصبع الى جهة ، والعارف يضمد لها مبدأ العصب .

هكذا . هكذا يكون التعامي !! هكذا . هكــذا يكون الغرور !! « يا حسرة على العباد ، ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون (10) » . وما عدا عما بدا ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم « الكيس من دان نفسه هواهــا ، وتمنــى على الله الاماني (11) » ، فعلام هذا المفعــول ، وبماذا يتأول ؟ اتقوا الله في نفوسكم ، وانصحوها ، واغتنموا فرص الحياة واربحوها « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ، وان كنت لمن الساخرين(12) » وتستغيث أخرى « هل الى مرد مــن سبيــل » !!! فرحم الله من نظر لنفسه قبل غروب شمسه ، وقدم لغده من امسه ، وعلم ان الحياة تجر الى الموت ، والغفلة (145.أ) تقود الى الفوت ، والصحة مركــب الالم ، والشبيبة سفينة تقطع الى ساحل الهــرم . وان شاء ، قال بعد الخطبة ..

اخواني ، ما هذا التواني ، والكلف بالوجــود الفاني عن الدائم الثاني ، والدهر يقطع بالامانــي ، وهادم اللذات قد شرع في نقض المباني . الا معتبر من معالم هذه المعاني ، الا اذن تصغي الى سميعه، أحدثها بالصدق ما صنع الموت . مددت لكم صوتي بأواه حسرة على ما بدا منكم فلم يسمع الصوت ، هو الغروب الآتي على كل دمنة ، فتوبوا سراعا قبل أن يقع الفوت . يا كلفا بما لا يدوم ، يا مفتونا بغــرور القدوم ، يا غريقا في بحار الالم ما عساك تقــوم ، يا مشتغلا ببنيات الطريق قد ظهر المنــاخ وقــرب الموجود المعدوم ، يا صريع جدار الاجل المهدوم ، يا معلل الطعام والشراب ولمع السراب ، لا بــد أن يهجر المشروب ويترك المطعوم . دخل سارق الاجل بيت عمرك فسلب النشاط وانت تنظــر ، وطــوى البساط وانت تكذب ، واقتلع جواهــر (145.ب) الجوارح وقد وقع بك البيت ، ولم يبق الا ان يجعل الوسادة على أنفك ، وتقول ..

لو خفف الوجــد عنــي
دعوت طالــب ثــاري

« كلا ، انها كلمة هو قائلهــا (13) » ، كيــف التراخي والفوت مع الانفاس يرتقب وينتظر !! كيف الامان وهاجم الموت لا يبقي ولا يذر ! كيف الركون الى الطمع الفاضح وقد صح الخبر .. من فكــر في كرب الخمار تنغصت عنده لذة النبيذ ، من احس بلغط الحرس فوق جداره لم يصغ بسمعه الى نغمة العود ، من تيقن بذل العزلة هان عنده عز الولاية !!

ما قام خيرك يا زمان بشــره
اولى لنا ما قل منك وما كفى

أوحى الله الى موسى ـ صلوات الله عليــه ـ ان ضع يدك على متن ثور فبعدد ما حازته من شعرة تعيش سنين ، فقال : يا رب ، وبعد ذلــك ؟ قال : وتموت .. فقال : يا رب ، فالآن ! !

راى الامر يفضي الى آخر ، فصير آخره اولا .

اذا شعرت نفسك بالميل الى شــيء فاعرض عليها غصة (146.أ) « ليهلك من هلــك عن بينــة ، ويحيى من حى عن بينة (14) » ، فالمفروح هو المحزون عليه !! اين الاحباب مروا ، فيا ليــت شعــري ان استقروا ، واستكانوا ، ولله اضطروا ، واستغاثــوا

---

(7) الاعــراف ، آيــة 99 .
(8) الاعــراف ، آيــة : 156 .
(9) الانفــال ، آيــة : 13 .
(10) يــس : آيــة : 30 .
(11) رواه الشيخــان .
(12) الزمــر ، آيــة : 56 .
(13) المؤمنــون ، آيــة : 100 .
(14) الانفــال ، آيــة : 42 .

بأوليائهم ففروا ، ليتهم اذ لم ينفعوا ما ضـــروا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والغروس ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل متشابهة متساوية، والمساكن تندب في أطلالها الذئاب العاوية !!

صحت بالربع فلم يستجيبوا
ليت شعري اين يمضي الغريب
وبجنب الدار قبـر جديد
منه يستقي المكان الجديـب
فاض فيه قلبي عند التماحي
قلت : هذا قبر الحبيــــب
لا تسل عن وجعتي كيف كانت
ان يوم البين يـوم عصيـب
باقتراب الموت علت نفسي
بعد لقنـا ، وكل آت قريب

اين المعمر الخالد ، اين الولد ، اين الوالد، اين الطارق ، اين التالد ، اين المجادل ، اين المجادل ؟؟!!

« هل تحس منهم من أحد ، أو تسمـع لهم ركزا (15) » ، وجوه علاهـن الثرى ، وصحايـف (146.ب) تنض ، واعمال على الله تعرض . بحث الزهاد والعباد والعارفون والاوتاد ، والانبياء الذين

هدى بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذي لا سعادة بعده ، فلم يجدوا الا البعد عن الله ، وسبب حب الدنيا « لن تجتمع امتي على ضلالة (16) » .

هجرت حياتي من اجل ليلى
فما لي بعد ليلى من حبيـب
وماذا ارتجي من حب ليلـى
تسحرني بالقطيعة عن قريب

وقالوا ما أورد النفس الموارد ، وفتح عليها باب الحتف الا الامل ، كلما قومتها مثاقف الحدود فسح لها أركان الرخص ، كلما عقدت صوم العزيمة اهداها طرف الغرور في اطباق ، متى ؟ واذن . . ولكن . . ورب !! فأفرط القلب في تقليبها حتى افطر .

ما أوبق الانفس الا الامـل
وهو غرور ما عليه عمـل

يقرض منه الشخص وهما ماله
حال ولا ماض ولا مستقبـل
ما فوق وجه الارض نفس حية
الا قد انقض عليها الاجـل
لو انهم من غيرها قد كونـوا
لامتلأ السهل بهم والجبـل
ماثم الا لقم قد هيئت للمـ
ـوت وهو الآكل المستعجـل
(147.أ) والوعد حق،والورى في غفلة
قد خدعوا بعاجل وضالـوا
اين ذوو الراحات راحت حسرة
اذ جنبوا الى الثرى وانتقلوا
لم تدفع الاحباب عنهم غير أن
بكوا على فراقهم واعولـوا
الله في نفسك اولى من ادخـ
ـرت نصحا وعتابا يقبـل
لا تتركنها في عمى وحيـرة
عن هول ما بين يديها يعقـل
حقر لها الفاني وحاول تهـ
ـدها فيه ، وشوقها لما يستقبل
وقد الى الله بها مضطـرة
حتى ترى السير عليها يسهل
هذا الفناء والبقاء بعـده
والله ـ عن حكمته ـ لا يسئل
يا قرة العين ويا حسرتها يـ
ـوم يوفى الناس ما قد عملوا

يا طرداء المخالفة، انكم مدركون، فاستبقوا باب التوبة ، فان رب تلك الدار يجير ولا يجار عليـه ، « فاذا امنتم فاذكـروا الله كما هداكـم (17) » ، يا طفيلة الهمة ، دسوا انفسكم في زمر التائبين ، وقد دعوا الى دعوة الحبيب ، فان لم يكن اكل فلا اقل من طيب الوليمة . قال بعض العارفين : اذا عقد التائبون الصلح مع الله انتشرت رعايا الطاعة في (147.ب)

---

(15) مـريـم ، آيـة :98 .
(16) رواه الشيخـان .
(17) البقـرة ، آيـة : 198 .

عمالة الاعمال « واشرقت الارض بنور ربها ووضـع الكتـاب (18) » .

معاني المجلس ـ والحمد لله ـ نسيم سحر ، اذا انتشقه مخمور الغفلة افاق ، سقوط هذا الوعظ ينفض ان شاء الله ـ زكمة البطالة ، ان الذي انـزل الداء انزل الدواء ، اكسير هذا العتاب يقلب بحكمة جابر القلوب المتكسرة عمن كان له قلب . « انمـا يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله (19) » .

(18) الزمـــر ، آيـــة : 69 .
(19) الانعـــام ، آيـــة : 36 .

• الهي يا لها من حيرة يضل فيها ! الا ان هديت الدليل ، واجلها من غمرة ، وكيف ـ الا باعانتـك ـ السبيل ، نفوس صدأ ـ على مـر الازمان منهـا ـ الصقيل ، ونبا بجنوبها عن الحق المقيل ، امضهـا القول الثقيل ، وعثرات لا يقبلها الا انـت يا مقيـل العثار يا مقيل .. انت حسبنا ، ونعم الوكيل .

(يتبـع)

د. محمد كمال شبانة



الدّولة السّعديّة

في كتاب

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي

للأستاذ أحمد تسوكي

■ من المؤرخين الذين أرخوا للدولة السعدية ابو فارس عبد العزيز الفشتالى فى كتابه : « مناهل الصفا فى مآثر اهل الشرفا » ومحمد الصغير اليفرانى فى كتابه « نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي » اما مناهل الصفا فقد طبع ونشر منذ سنوات وقام بدراسته وتحقيقه الدكتور عبد الكريم كريم وطبعته وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة وهو يقع فى 307 صفحة من الحجم الكبير عدا الفهارس الملحقة بـــه .

واما نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي فقد طبع مرتين :

ــ الطبعة الاولى تقع فى جزئين ، طبعت فى انجي بفرنسا سنة 1888 اي منذ حوالى تسعين سنة ضمن « منشورات معهد اللغات الشرقية الحية » صحح عباراته التاريخية السيد / هوداس استاذ اللغة العربية بباريس . والحق بالنص العربى ترجمة بالفرنسية للكتاب ، فجاء « نزهة الحادي » فى جزئين .

ــ **اما الطبعة الثانية ــ وهى التى بين ايدينا ــ** فتقع فى 315 صفحة من القطع المتوسط ، قام بطبعها السيد عبد القادر المكناسي ، وقد بذل وانفق مالا من عنده لاعادة طبع نزهة الحادي عونا للمؤرخين خاصة فى هذه الفترة النشطة التى كثر فيها الرجوع الى كتب التراث واشتدت الحاجة فيها الى مراجعة التاريخ وتصحيحه وتصويبه . ولا ينبغى أن تفوتنا اشارة تقدير وتنويه الى السيد / عبد القادر المكناسي الذي ــ كما يقول الدكتور ممدوح حقى فى تقديمه للكتاب : مارس مهنة التضحية فى معارك النشر قرابة نصف قرن ، يخسر فلا يبالى الخسارة ، ويربح فلا يغره الربح ، ويعادل هذا بذلك فيتقبله بايمان المخلص لله وللثقافة ويعيش هانئا راضيا بما قسم الله له . لا يضيق ولا يتبرم » . ونحن نشاطره هذا الراي ونشاركه هذا التقدير على شجاعة صاحب مكتبة الطالب فى الاقدام على اعادة نشر هذا الكتاب وهو ليس فى حاجة الى التشجيع فى خدمة العلم .

ونزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي من اهم واوفى المصادر والمراجع التاريخية الوثيقة عن الدولة السعدية وسير واخبار ملوكها الذين حكموا المغرب من سنة 915 الى 1069 هـ . ــ 1511 ــ 1670 م . وهى كما نرى الاسرة التى حكمت المغرب لفترة لا تزيد عن مائة وتسعة وخمسين سنة ، يمكن ان نعتبرها فى الواقع تمهيدا لحكم الاسرة العلوية الشريفة . واذا استثنينا فترة حكم احمد المنصور الملقب بالذهبى لم يتبق لنا من عصر هذه الدولة الا مجموعة من الاضطرابات والتناحر على الحكم والسلطان ومحاولة الاستئثار بهما الى درجة طلب احد ملوكها النجدة من البرتغال لمقاتلة عمه . وقد عصف وادي المخازن ومعركته الشهيرة بالطالب والمطلوب كما سيأتى ذكر ذلك فى عرضنا لصورة المغرب السياسية والعسكرية كما يقدمها لنا مؤلف كتاب نزهة الحادي .

يمهد محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الافراني النجار المراكشي الوجار لكتابه بفذلكة عن « علم التاريخ » ومكانته وفرائده ، ثم يقول : واني لم ازل منذ علقت تميمة التمييز في عضدي . وجعلت سوار الطلب في زندي . متشوفا الى اخبار الدولة السعدية . وسائلا : « هل استنشق احد نفحات اخبارها الوردية . . . » الى ان يقول : « وقد كنت بدالي ان الم بدولة بني وطاس . واواخر بني مرين . بما يكون ذيلا لروض القرطاس ، وروضة النسرين . فرايت الدولة السعدية عناية اهل زماننا بها اكثر . والاقتصار عليها لا يكون بها تاريخ الملك ابتر . وسميت هذا الموضوع . الذي حديثه حسن صحيح غير موضوع . نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي . وهذه الدولة السعدية وإن كان ابتداؤها عام ستة عشر من القرن العاشر ، لكن انما ظهرت واتسعت اياالتها في آخر العاشر وأول الحادي . فلذلك أدرجناها في الحادي وما قارب الشيء فهو له في الحكم محادي » .

الى ان يقول : « واعلم اني الفت هذا التصنيف ، من عدة كتب تزري بزهور الروض المنيف . وسوف اعين لك في الآخر اسماءهم . وانصب مدارج الامالة لمن اراد أن يرقى سماءهم » . ولكننا لا نعثر في آخر النزهة على اسماء الكتب التي استعان بها الافراني في تصنيفه . ومما ورد في غلاف الطبعة : صحح عباراته التاريخية السيد هوداس ، ولا ندرى ما نوع هذا التصحيح ، وهل تصرف السيد هوداس في النص الاصلي تصرفا اسقط فيه مصادر النص كما اشار الى ذلك المؤلف نفسه . ونضيف دهشتنا من هذه المفارقات وهذه التناقضات الى التساؤل الذي طرحه الدكتور ممدوح حقي في المقدمة حين قال : « على ان الامر الجلاب للنظر أن المؤلف مغربي والناشر فرنسي والمصحح للعبارات التاريخية فيه فرنسي كذلك . وقد اشار الى ذلك في صدر الكتاب ، فما هو مدى هذا التصحيح التاريخي يا ترى ؟ » .

ثم يخلص المؤلف بعد تقديمه الى صميم كتابه وموضوع تأليفه فيبداه بذكر الخبر عن نسب السعديين الشريف وما قيل من تنكير وتعريف وعلى هذا النسق ينسج الافراني خيوط تاريخه للدولة السعدية ، متتبعا السياق التاريخي للاحداث ، مستشهدا باقوال الادباء والمؤرخين والكتاب والفقهاء والشعراء في حادثة من حوادث العصر السعدي .

لقد تفرد تاريخ السعديين بعدة احداث تاريخية هامة ، غير أن ثلاثة منها تبرز لنا ملامحها ساطعة لامعة :

1 — الانتصار البين على ملك البرتغال دون سباستيان وجيشه في معركة وادي المخازن ومن تواطا معه ومهد له الطريق الى ذلك سنة 1578 .

2 — ظهور السلطان احمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي ، وكان درة في عقد هذه الدولة الشريفة .

3 — الفتوح الواسعة التي قام بها السلطان احمد المنصور مثل فتحه السودان الغربي — سنغاي ودخول جيشه ظافرا مدينة تمبكتو .

وهي أحداث لا يمكن عزلها عن بعضها ، بل انها مشدودة بعضها الى البعض ، كالسلسلة الذهبية ذات الحلقات لا يمكن كسر حلقة منها دون ان تتأثر باقي الحلقات بهذا الكسر .

حين يبدأ المؤلف كتابه بالتعريف بنسب السعديين يعزو نسبهم الشريف الى خاتم الخلفاء الراشدين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة رضي الله عنهما بنت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، واتفق على هذا النسب عدد من الاعلام النسابين . وكان الاشراف السعديون يتيمنون بدرعة ، نشأ منهم ابو عبد الله محمد القائم بأمر الله ، وكانت نشأته نشأة عفاف وصلاح ، حج الى بيت الله الحرام وكان مجاب الدعوة ، لقي جماعة من العلماء الاعلام والصلحاء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين ، ثم رجع الى المغرب الذي كان يحكمه آنذاك الوطاسيون الذين تنازعوا في هذه الفترة على السلطان والملك في الوقت الذي كانت هجومات البرتغاليين والاسبان لا تفتر على ثغور المغرب على المتوسط والاطلسي مثل سبتة وطنجة وغيرهما . فقام ابو عبد الله القائم بأمر الله على راس جند من انصاره فانتصر على البرتغاليين واجلاهم عن اصيلا وآسفي وازمور وغيرها من الثغور ، وكان ذلك عونا له وسندا مهما للقضاء على الوطاسيين . وبذلك اقام الملك السعدي بالمغرب الذي كان بداية لمجد هذه الدولة به .

وخلف ابا عبد الله ابو العباس احمد المدعو بالاعرج الذي صرف همته الى تمهيد البلاد واقتناء الاجناء وتعبئة الجنود الى الثغور ، فاستكثر من شن الغارات على الغزاة الطامعين من الاسبان

والبرتغاليين ، فطردهم من عدة نواحي بالمغرب ؟ بيد ان أسباب الملك وعوامله لم تتهيا كاملة لتأخذ طريقها القويم الى الاستقرار ، فقد تقاتل الاعرج مع اخيه محمد الشيخ ، نتيجة الدسائس والوشاية ، وكان محمد الشيخ : ثاقب الذهن ، نافذ البصيرة ، مصيب الراي ، حازما في أموره » . فسجن الاعرج بمراكش وتعرض الاتراك لمحمد الشيخ فقتلوه بالسوس الاقصى ، فبايع الناس زيدان بن ابى العباس بسجلماسة ، الا انه لم يمارس الملك والحكم ، فخلفه ابو عبد الله محمد الشيخ ابن ابي عبد الله القائم بامر الله الذي : « نشأ في عفاف وصيانة ، وعنى بالعلم في صغره ، وتعلق باهله ، فاخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ في العلم درجة الرسوخ حتى كان يخالف القضاة في الاحكام ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه ، وكان ممتع المجالسة والمذاكرة ، نقى الشائبة ، عظيم الهيبة ، وكثيرا ما كان ينشد من الشعر هذا البيت :

الناس كالناس والايام واحدة
والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

وكان حافظا للقرآن ويحفظ ديوان المتنبي وصحيح البخاري عارفا بالتفسير وكانت له آراء صائبة في الحكم والملك » .

وبع بمراكش سنة 951 هـ ، فما جاشه وجد جنده فتوجه به الى تادلا ووادي نول ودخل مكناسة وطلب فاس فتم له ذلك ، ومنها اتجه الى تلمسان فاجلى عنها الاتراك وحررها منهم ، فانتشر حكمه في اعمالها ونواحيها الى وادي شلف ، ثم عاد الى مدينة فاس وقد اتسعت له مملكة المغرب ودانت البلاد كلها . فانصرف بعدئذ الى ترتيب ديوان الملك وتحسين شارة السلطنة وضبط أمور الخدم والعبيد الى ان جاءه ابو حسون فاخرجه من فاس وهو من المرينيين .

قال ابن القاضي يصف أبا عبد الله محمدالشيخ الملقب بالمهدي : كان رحمه الله ماضي العزيمة ، قوي الشكيمة ، عظيم الهيبة ، كثير الحركة ، ذاهمة عالية واحيا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة ، وشهامة غالية ، حتى قعد قواعد الملك واسس مبانيه وكان ذا سعد وبخت عظيم الرغبة في الجهاد » . وقد قتل غدرا من طرف الاتراك لما بلغهم ان ابا عبد الله محمد الشيخ : تاقت همته العلية الى بلاد المشرق فكان يقول : لابد لى ان اذهب الى مصر واخرج منها الاتراك من اجحارهم وانازلهم من ديارهم » .

وخلفه ابو محمد مولانا عبد الله ابن السلطان ابى عبد الله مولانا محمد الشيخ وكان : ادعج العينين ، مستدير الوجه ، متسعه ، أسيل الخدين ، متشرف الوجه ، ربعة للقصر » . لقب بالغالب بالله ، بايعه اهل فاس ، وكان ذا سياسة وخبرة بالملك ، لين العريكة ، ولما استبد بالخلافة الان الجانب ، وخفض الجناح وسار سيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا وانتعش الناس . توفى في رمضان عام 981 هـ وخلفه في الملك ابو عبد الله مولاي محمد الملقب بالمتوكل وعرف عند العامة بالمسلوخ ولم تطل خلافته كثيرا وسبب ذلك انه استنجد بالبرتغاليين على عمه ابي مروان عبد المالك ، واستجاب له البرتغاليون نظير شروط ، وكانت هذه مقدمة لمعركة وادي المخازن وارهاصات لها . ووجد ملك البرتغال دون سباستيان في هذه الاستغاثة فرصة سانحة للانقضاض على المغرب والاستيلاء على ثغوره فيه ، فزحف ملك البرتغال بجيش قدروه بمائة وخمسة وعشرين الف مقاتل ، واستدرجه أبو مروان الى ناحية القصر الكبير ، فامر بهدم جسر وادي المخازن حتى يقطع خطالرجعة على ملك البرتغال وجيشه المتوكل . قال الافراني يصف المعركة : « فالتقت الفئتان وزحف بعضهم الى بعض وحمى الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان مدافع البارود واشتد القتال وكثر الطعن واستمر النزال ، فلما قامت الحرب على ساق والتفت الساق بالساق توفى عبد المالك عند الصدمة الاولى منه وكان مريضا في محفته ، فكتم سر وفاته عن الجند والجيوش المناصرة له ، ولم يعلم بوفاته الا حاجبه وأخوه المنصور ، ولم يزل كذلك والناس في المناضلة ومداناة التواضب واحتساء كؤوس الحمام الى ان هبت على المسلمين ريح النصر وساعدهم الدهر واثمرت كمايم رماحهم زهور الظفر . فولى المشركون الادبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف في رقابهم ففروا ولات حين فرار وقتل الطاغية البرتغالى غريقا في الوادي وقصد النصارى للقنطرة فلم يجدوا لها اثرا ، فكان ذلك من اكبر الاسباب في هلاكهم واعظم الحبايل في اقتصامهم » . وبحث في القتلى فوجد من بينهم المتوكل الذي استصرخ ملك البرتغال ، فذهب الطالب والمطلوب ، وابو عبد الله محمد بن عسكر صاحب « دوحة الناشر » وكان من بطانة المتوكل ، وقد تكلم عنه الناس كثيرا ، ونظم الفقيه العلامة سيدي محمد ابن الامام الشهير سيدي عبد الله الهبطى منظومة اشار فيها الى مسالة ابن عسكر وتواطئه مع المتوكل فقال :

ومنهم الشيخ الذي لا ينكر
محمد اخو الدهاء عسكر

فان يكن اتى بذنب ظاهر
فقلبه من الشكوك طاهر

رايته فى النوم ذا بشارة
وهيئة حسنة وشارة

قال المؤلف : وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى عام ستة وثمانين وتسعماية » ثم قال : « ولما بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم بعث الى المنصور بعد استبداده بالملك ورجوعه لفاس . . . يلتمس منه الفداء لمن بقى فى يده من الاسارى ففداهم وجمع فى ذلك اموالا سنية وذكر بعضهم ان الاسارى الذين وقع فداؤهم لما توجهوا الى بلادهم ووصلوا لملكهم قال لهم الطاغية : لم لم تاخذوا القصر والعرايش وتطاون قبل ان يصل ملكهم اليكم ؟ فقالوا امتنع من ذلك الامير الذي امرته علينا فامر بهم فاحرقوا جميعا . غريبة وفيها مضحكة . ذكر بعضهم أن النصارى دمرهم الله لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم راى اساقفتهم قلة الروم وخلاء البلاد اباحوا للعامة فاحشة الزنى ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم وراوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم ملتهم ! ! »

وعقب المعركة بويع احمد المنصور الذي كان خليفة لاخيه عبد المالك على مدينة فاس وما والاها . وكان احمد المنصور كما يصفه المؤلف : طويل القامة ، ممتلىء الخدين ، واسع المنكبين ، تعلوه صفرة رقيقة ، ادعج ، اسود الشعر ، اكحل العينين ، ضيق الفلج، براق الثنايا ، جميل الوجه ، مليح الصورة ، ظريف النزع ، لطيف الشمايل ، حسن الشكل » . كانت ولادته بفاس سنة 956 هـ . ونشا فى عفاف وصيانة . وكان والده المهدي — يقول المؤلف — ينبه على انه واسطة عقد أولاده » .

ويخصص المؤلف محمد الافرانى من كتابه النزهة ازيد من مائة صفحة للحديث عن سيرة الملك السلطان احمد المنصور الملقب بالذهبى بداه بالكلام عن صفاته واخبار عنه ويختمه بالخبر عن وفاته رحمه الله وكيفيتها . فابوابه وفصوله عن احمد المنصور تعتبر بحق كتابا قائما بذاته ، فقد تتبع حياته وسرد سيرته تتبعا وسردا دقيقين لا يغفل عن حادثة صغيرة أو كبيرة من الحوادث التى عاشها احمد المنصور . وقد كانت حياة هذا السلطان العظيم حافلة ومثيرة لا يمكن الاحاطة بها ونحن هنا انما نلم ببعض جوانبها فقط وباختصار شديد :

توجه احمد المنصور الى فاس بعد واقعة وادي المخازن فجددت له البيعة ثم سار الى مراكش ، ولم يخالفه فى البيعة الا ابنه محمد الشيخ المامون خليفته بفاس ، فلما علم بذلك المنصور سار اليه بجيشه ، فتراجع المامون وترجل عن فرسه واقبل حافى القدم فعفر وجهه بين يدي والده المنصور ثم قبل رجله والمنصور على فرسه . فرجع المنصور بعد ذلك الى مراكش يستعد ويعد جيوشه للفتوح وضم الاقاليم والولايات الى المملكة واخضاعها الى سلطنته ، فاستولى على بلاد توات وتيكرارين واعمالهما ، فتاقت همته لبلاد السودان فهيأ جيشا عظيما فتح به السودان الغربى (سنغاي) . قال الفشتالى فى مناهل الصفا : فكلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من ناحية المغرب ، وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله والله يؤتى ملكه من يشاء . ولما فتح عليه ممالك البلاد السودانية حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى والدينار الوافى وكانت ببابه كل يوم اربعة عشر ماية مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ولاجل ذلك لقب بالذهبى لفيضان الذهب فى زمانه » وانشد الفشتالى قصيدته :

جيش الصباح على الدجى متدفق
فبياض ذا لسواد ذلك ممحق

وكانه رايات عسكرك التى
طلعت على السودان بيضا تخفق

لاحت وافقهم ليال كله
كعمود صبح فى الدجى يتدفق

نشرت لتطوي منه ليلا دامسا
اضحى بسيفك ذي الفقار يمزق

ارسلتهن جوائحا وجوارحا
فى كل مخلبها غراب ينعق

وسرت فكان دليلهن اليهم
مشحوذ عزمك والسنان الازرق

له من الليالى قد جلا احلاكها
نور النبوة من جبينك يشرق

ومنهـــا :

بشـــر ملوك الارض انــك فاتـــح
بالمشرفـــى علـــى الولامـــا اغلـــق

ويعاصل لـــك ذو الفقـــار ففـــرق
مـــا جمعـــوه وجامـــع ما فرقـــوا

دامت طيور السعد وهـــى غوادر
بالمشتهـــى لـــك والمسرة تنطـــق

مـــا دام ذكر علاك فى صحف الثنـــا
اصل الفخار وكـــل ذاك ملحـــق

ثم شرع المنصور فى بناء قصر البديع بمراكش عام 986 هـ. واتصل العمل فيه الى عام 1002 هـ. وقد كتب فيه وعنه شعراء عديدون خاصة منهم عبد العزيز الفشتالى وابن الابار قيل فيـــه :

كـــل قصـــر بعـــد البديـــع يـــذم
فيـــه طـــاب الجنى وفيـــه يشـــم

منظـــر رائـــع ومـــاء نميـــر
وثـــرى عـــطـــر وقـــصـــر اشـــم

ان مراكشـــا بـــه قـــد تـــباهـــت
مفخـــرا فهى للعلـــى الدهر تسم

وكتب الفشتالى فيه قصائد عديدة تبرز جماله وتناسقه وروعة بنائه واساقه فى الاعمدة والاستار والاحواض وغير ذلك . ونورد هنا مطالع قصائـــد الفشتالى فى قصر البديع . ومنها :

سموت وخر الدهر دونى وانحطـــا
واصبح قرص الشمس فى اذنى قرطا

وهى قصيدة فى خمسين بيتـــا :

ومنهـــــا :

جمـــال بدائعـــى سحـــر العيونـــا
ورونق منظـــري بهـــر الجفونـــا

ومـــن ذلـــك :

للـــه بهـــو عـــز منـــه نظيـــر
لما زهـــى كالروض وهو نظيـــر

وقولـــــه :

معانـــى الحسن تظهر فى المبانـــى
ظهـــور السحر فى حـــدق الحسان

وقـــولـــــه :

باكـــر لدي مـــن السرور كؤوسها
وارض النديـــم اهلـــة وشموســـا

ومن الاشعار المنقوشة فيـــه :

متـــع جفونـــك فى بديـــع لبـــاس
ودر علـــى حسنـــى حمى الكـــاس

وقال بعض الكتاب مما نقش فى عضادتى باب من ابواب البديـــع :

يـــا ناظـــرا باللـــه قـــف وتأمـــل
وانظر الى الحسن البديـــع الاكمل

واذا نظـــرت الى الحقيقـــة فلتقـــل
السر فى السكـــان لا فى المنـــزل

ومن اشعار الشاعر الفشتالى المنقوشة ببعـــض الابـــــواب :

هذي وفـــود السعد نحوي تنتمـــى
وطلائع البشرى لبابـــى ترتمـــى

وسمـــت الى عفان عرفك مثل مـــا
يسمـــو الحجيج الى سقايـــة زمزم

حطت بمصراع السعـــود بشائـــر
لاحت علـــى الشرفاء مثل الانجـــم

اولـــى بصنع ان تقـــول ولا تبـــل
فبديـــع احمـــد جنـــة المتنعـــم

وهى قصائد ومقطعات شعرية كثيرة .

وقد اعتنى المنصور بالاحتفال بالمولد النبـــوي الشريف والاعياد الاخرى على السنن السنى ، وانشا عددا من المآثر والعمائر بمراكش وفاس والعرائش وذكر الفشتالى أن المنصور الف عدة تآليف كلها حسنة تدل على براعة قلمه ومن ذلك كتابه « السياسة » ونص خطبة لـــه شهيـــرة .

وتوفي المنصور الذهبي بفاس ودفن بها لمرض الم به نتيجة تأثره بوباء استطال وطال . وبوفاته بدات الدولة السعدية في التفكك ، فتنازع أولاده على الملك والسلطان ووقع بينهم في ذلك تهالك وهلك ادى ذلك كله الى انقسام الدولة وانفراط عقدها ووقوعها في دوامة من الاضطرابات والفتن ، فتهيأ الجو لظهور عدد من رجال الاصلاح والدعوة الى الوحدة ، فبرزت الزاوية الدلائية وظهر محمد العياشي والفقيه ابو العباس احمد بن عبد الله المعروف بأبي محلي .

كانت وفاة المنصور الذهبي بداية النهاية للدولة السعدية ، فلم يحسن خلفاؤه من ابنائه استغلال وتسيير شؤون الدولة الوطيدة التي بناها المنصور ودعم أركانها وعزز دعائمها ، ونتج عن ذلك — بالاضافة الى ما ذكرنا — تذمر الناس من الاحوال المضطربة السائدة ، فظهرت الحاجة ملحة الى قائد محنك يلم شمل ما تفرق وتصدع من امور البلاد وشؤونها في الداخل والخارج ، ويجمع شتات ما انفرط من عقد الدولة والحكم والسلطان ، ويدرأ الاخطار المحدقة بالدولة والبلاد والعباد خاصة وان اطماع الاجانب بدأت تتجه صوب المغرب في محاولة جديدة للاستيلاء على الثغور ومنها يمتد الى باقي النواحي والبقاع والاصقاع ، فظهر محمد بن الشريف راس الملوك العلويين الاماجد وسطع نجمه في الافق واتجهت اليه الانظار كقائد يخلص البلاد من الغزاة والاطماع ويقضي على الفتن والاضطرابات والدعوات الانقسامية الاقليمية التي شاعت وانتشرت واستشرت في طول البلاد وعرضها . فعقد محمد بن الشريف عزمه الوطيد على توحيد البلاد وضم الاقاليم والولايات وتحرير الثغور ورد الاعداء واطماعهم . . . فكتب الله له ذلك واعانه وايده .

ان « نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي » صور وصفية صادقة ودقيقة لتاريخ الدولة السعدية منذ ظهورها على مسرح الملك والحكم الى افول نجمها فيه مع تفاصيل دقيقة — سياسية وعسكرية وادبية — ولو أن المؤلف في كتابه التزم منهجا تاريخيا صرفا يعتمد على السرد والرواية والوصف دون الدخول في التحليل ، ولكن هذا مما لا ينبغي محاسبته عليه لانه اتبع منهج معاصريه من المؤرخين والكتاب والادباء والنزهة على اي حال بيان وتبيين لجهود ملوك الدولة السعدية وجهادهم ليسترد المغرب في فترتهم عزه ومجده .

الرباط — احمد تسوكي



في الشباب...

للأستاذ عبد القادر القادري

كان الشباب وما زال موضوع اهتمام الفلاسفة والمصلحين والمفكرين والزعماء والادباء والشعراء .

غير ان اللذين راعيا الشباب وركزا اهتمامهما عليه هما الجنرال الانجلزي لورد رو رت الملقب ببادن باول مؤسس جمعية الكشافة سنة 1908 والهر هتلر زعيم المانيا النازية . فعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حذت الدول الاوربية التي خرجت منهوكة القوى من تلك الحرب حذو المانيا النازية فاهتمت بشبابها لاعادة بناء بلادها فانشات وزارات خاصة بالشباب كما حذت المحميات والمستعمرات الاوربية التي حصلت على استقلالها عقب تلك الحرب الضروس حذو مستعمريها السابقين فانشات وزارات خاصة بشبابها فاصبحنا نسمع وزارات يطلق عليها اسم وزارات الشبيبة والرياضة .

فمنذ قضى العصر الحاضر على الفكرة العتيقة فكرة ان المسؤوليات الجسام والاعمال الناجحة يجب ان لا يضطلع بها غير الشيوخ بحجة ان الخبرة والتجربة وفهم اسرار الحياة لا تتوفر للشبان . ومهما يقول علماء الاجتماع على اثر الكهول والشيوخ فى حالة الوطن من الوجوه الاقتصادية والسياسية والادبية وغيرها فان للشبان فى كل ذلك أثرا يبدو فى كل منحي من مناحي الحياة . واقرب دليل على ذلك ما لشبابنا من الاثر فى تسيير أمور وطنهم والهيمنة على مصالح ذلك الوطن .

ولعل بلادنا العزيزة هي البلد الوحيد الذي يضطلع بمسؤولرته الجسام ملك شاب ووزراء شبان .

واذا قلبنا صفحات التاريخ تجلت لنا ابلغ الامثلة على نصيب الشبان من الاعمال العظيمة والمآثر الخالدة .

هذا محمد الخامس قد ارتقى العرش المغربي وهو دون العشرين من عمره ، وقاوم الاستعمار وهو ما زال فى سن الشباب وارتقى الاسكندر الكبير العرش فى العشرين من عمره فلم يكد يبلغ الثلاثين حتى كان قد حمل المدنية اليونانية الى أطراف الهند . وهذا يوليوس قيصر أعظم قياصرة الرومان فانه كان لا يزال شابا حديث السن حين اضطر بومباي وكراسوس الى مشاطرته السيطرة على العالم وجل قادة الفتح الاسلامي كانوا من الشباب الناهض . وكافح جلالة الملك الحسن الثاني ضد الاستعمار الفرنسي وهو فى ريعان الشباب . وقاوم علال الفاسي سلطات الاستعمار الفرنسي وهو فى سن الشباب . واعلن محمد بن عبد الكريم الخطابي الحرب على اسبانيا وهو فى سن الشباب فأحرز أبهر الانتصارات عليها .

ولنتحول الآن من ميادين السياسة والقتال الى ميادين العلوم والفنون ، فان نيوتن كان فى الثالث والعشرين من عمره حين اكتشف قانون الجاذبية

الذي قلب كيان العلوم . ويتهوفن الف اجمل قطعه الموسيقية وهو دون الثانية والثلاثين ، ومثله موزار. واغرب منهما مندلسهن الذي الف قطعة موسيقية خالدة وهو فى السابعة عشرة من عمره .

اما بين الادباء فيجدر بنا أن نذكر بيرون الذي اشتهر فى عالم الادب وهو فى الرابعة والعشرين وبدأ عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني وعلي أمين ومصطفى أمين يكتبون في الصحافة المصرية وهم فى ريعان الشباب .

ومثلهم من هذا القبيل كثيرون يضيق عنهم المقام .

وانه ليكفينا ان نذكر ان جل محرري الصحافة المغربية من الشباب الناهض .

هذا وقد قيل الشيء الكثير عن الشباب ولا يستطيع مؤرخ أو كاتب ان يجمع كل حكم الاقدمين واقوال الحكماء فى الشباب غير اننا اخترنا الاهم فيما قيل فى ذلك ونسرده هنا بمناسبة عيد الشباب.

● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اغتنم خمسا قبل خمس :

شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل مرضك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

● وقال سيدنا علي كرم الله وجهه :

راي الشيخ خير من جلد الشباب.

● وقال امير الشعراء احمد شوقي :

الشباب ايام آذار ودولة العذار واعنة الاوطار. وليلة العرس فى هذه الدار . سنه كالطيف سراها وكقبلة الخلس حلم كراها ونشوة يتلفت المستفيق لا يراها . وجنة لو خير المقبل (المجنون) بالعقل اشتراها . العشق فى غير جناحه طائر لا ينهض به جناح . والكأس من غير راحة غيبة الساقي بليدة الراح . والمال فى غير خزانته غريب ويتحول عن قريب . رؤيا الوارث فى نومه وشغله فى يومه وملك يده فى غده . السلطان والدولة والامكان والصولة والملك وكل ما حوله ..

● وقال ايضا :

يا شباب الديار مصر اليكم
ولواء العرين للاشبال

كلما روعت بشبهة يأس
جعلتكم معاقل الآمال

هيئوها لما يليق بمنف
وكريم الاثار والاطلال

● وقال ايضا :

ويا وطني لقيتك بعد يأس
كأني قد لقيت بك الشبابا

● وقال الفيلسوف الالماني جوته :

أن مصير اية امة فى اي دور من أدوار حياتها ليتوقف على افكار شبابها الذين تقل أعمارهم عن خمس وعشرين عاما .

● وقال كولريدج :

ما اظلم هذه الدنيا واشد كآبتها اذا خلت من الشباب وما آلمها واشد عقوتها اذا خلت من الشيب .

● وقال ريختر :

شباب الروح خالد والابدية هي الشباب .

● وقال شيشرون :

يسرني ان يكون عند الشباب شيء من رزانة الكهول ووقارهم ، واغتبط للكهول اذا توافر فيهم من صفات الشباب قدر محمود ، لقد افلح من اتبع هذه القاعدة ! ؟ انه سيهرم جسده اما عقله فيظل فتيا .

● وقال عمر الخيام :

اطفىء لظى القلب ببرد الشراب
فانما الايام مثل السحاب

وعيشنا طيف خيال فنل
حظك منه قبل فوت الشباب

وقال ابو نواس :

ولقد انهزت مع الغواة بدلوهم
واسمت سرح اللهو حيث اساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فاذا عصارة كل ذاك اثام

وقال ابن حازم الباهلي :

ويسلبه الشيب سرخ الشباب
فليس يعزيه خلق عليه

وقال مسلم بن الوليد :

الشيب كره وكره ان يفارقني
اعجب بشيء على البغضاء مردود

يمضي الشباب ويأتي بعده خلف
والشيب يذهب مفقودا بمفقود

وقال الشريف الرضي :

الا اين ذاك الشباب الرطيب
أم اين لي بيض أيامه لا

مشى الدهر بيني وبين النعيم
ظلما وغير من حاله

وقال البحتري :

خلق العيش فى المشيب وان كا
ن نظيرا فى الشباب جديده

وقال أيضا :

وارى الشباب على غضاره حسنه
وجماله عددا من الاعداد

وقال أيضا :

شرخ الشباب أخو الصبا واليفه
والشيب تزجيه الهوى وخفوفه

وقال الشريف المرتضى :

لا تطلبي مني الشباب فما
عندي شباب والشيب قد وفدا

اين شبابي وقد انفت على الستين
سنا وجزتها عددا

فمن يفى عندي البشاشة والله
و وبعض النشاط ما وجدا ...

وقد مضى من يدي وفارقني
ما لا أراه براجع ابدا ...

وقال أيضا :

سقى الله أيام الشبيبة ربها
ورعيا لعصر بان عني من عصر

ليالي لا يعدو جمالي منيتي
ولم تردد الحسناء نهيي ولا امري

وليل شبابي غارب النجم فاحم
ترى العين عسري فيه دهرا بلا فجر

واذا انا فى حب القلوب محكم
وافئدة البيض الكواعب فى اسري

وقال ابن الرومي :

لا تلم من يبكي لشبيبته
الا اذا لم يبكها بدم

عيب الشبيبة غول سكرتها
مقدار ما فيها من النعم

لسنا نراها حق رؤيتها
الا زمان الشيب والهرم

كالشمس تبدو فضيلتها
حتى تغشى الارض بالظلم

ولرب شيء لا يبينه
وجدانه الا مع العدم ...

وقال ابو تمام :

لو راى الله فى الشيب فضلا
جاورته الابرار فى الخلد شيبا

وقال الشاعر المصري محمود غنيم :

مانت ان فى الحمى شبابا
ينتزع الثناء والاعجابا
ويسمع الصم اذ اهابا

شاهدته وقد مشى اسرابا
يقتل للصناعة الاسبابا
مرتديا من طهره جلبابا
منتضيا من عزمه قرضابا

● وقال أمين نخلـــة :

كنـــا الغصون الخضـــر فى
وكانـت الدنيـــا لدينـــا

كنـــا الغصـــون الخضـــر فى
روض الملاحة والتوينـــا

● وقال علال الفاسي :

كل صعب على الشباب يهون
هكذا همة الرجال تكـــون

● وقال الرئيس الامريكي السابق كندي :

ان الشباب الامريكي مائع منحل مترف غارق فى الشهوات وانه من سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم فى الشهوات وانذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا .

ورحم الله الشاعر الذي يقول :

جل من قلد الفرنجة منـــا
قد أساء التقليد والتمثيـــل

فاخذنا الخبيث منهم ولم نقتـ
ـــبس من الطيبات الا قليلا

يوم سن الفرنج كذبة ابريـ
ـــل غدا كل عمرنا ابريـــلا

نشروا الرجس مجملا فنشرنا
كتابا مفصـــلا تفصيـــلا

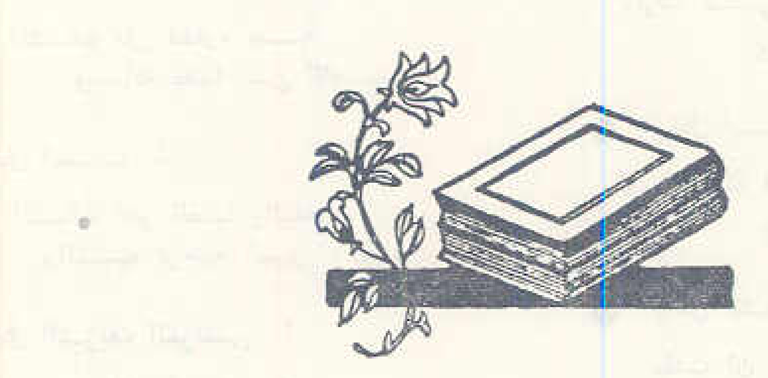
● وقال آخـــر :

شبابنـــا من طيشـــه
فى كل واد قـــد سلـــك

أن لـــم نوجـــه ســـيره
أهلكنـــا كمـــا هلـــك

وقانا الله جميعا الحادثات فى سواد الشباب وبياض الشيب على السواء .

عبد القادر القادري



تربية الشباب في الإسلام

للأستاذ محمد بن محمد العلمي

الشباب فى جميع المستويات والاوضاع ، احوج ما يكون محتاجا ، اكثر من سواه ، الى التوجيه السليم ، والتربية المتزنة المتناسقة ، وذلك سعيا وراء تهذيب المتناقضات فى نفسه ، وارشاده الى الطريق السوي القويم .

وهذا الظمأ الى الاستقامة ، يكون اكثر الحاحا فى الشباب ، لانه فى ربيع العمر ، فهو اكثر تفتحا على نور الحياة بما فيها من مغريات ومفاتن ، وهو كالمرآة الصافية تنعكس على صفحتها شتى الصور والمشاهد بكل دقة وامانة . ولعله من اللائق بالشباب ان يشاهد نفسه فى تلك المرآة بالشكل الذي يروقه ، ويحسن به ان يكون عليه ، وهذا يقتضى من الشباب الرياضة البدنية والروحية فى آن واحد . فالرياضة البدنية تقوية للجسم ، وتنشيط للعقل ؛ والرياضة الروحية وسيلة للتغلب على الهواجس والمغريات والمتناقضات . والموازاة بين هاتين التربيتين تتعهد الجسم فلا يفنى ولا يذبل ، كما تتعهد الروح فلا تهون ولا تخور ولا تنهار . والجمع بين المزيتين فيه من الوجاهة والفائدة الشيء الكثير . فاذا قوي العقل فتغلب على شيطان الشهوة ، وقويت الروح فكبحت جماح الجسم ، فاذ ذاك يتم التعاون بين الجسم والروح على انتهاج الخير وتفهمه والعمل به ، والحث عليه . وهذا هو راي الاسلام فى التربية القويمة للنشء ، تلك التربية التى قوامها الاتزان ، والسيطرة بالعقل على الشهوة ، بحيث ينال الجسم حظه من العناية والصيانة والفتوة والاشراق ، وتاخذ الروح نصيبها من التوجيه الصالح ، فتصبح وفيرة الزاد للسير فى موكب التقدم والازدهار . وبدون الجمع بين الجانبين الايجابيين من التربية ، من حيث النظرية والتطبيق ، تصبح التربية فاشلة فى تأدية الامانة المنوطة بها ، وتصير نتيجتها سلبية ، فارغة المدلول من جميع المناحي .

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا »

فالانسان ليس ملاكا معصوما اي روحا لا شهوة فيها ، وليس حيوانا مجردا لا عقل له ولا تمييز ، وليس جمادا لا يتحرك ولا يعي ما حوله. بل انه روح وجسد معا . وكثيرا ما يكون الانسان طائشا فى تصرفاته ، او متقاعسا كسولا متخوفا مما عسى ان تلده الايام . ولهذا اصبح لا مناص من التربية القويمة المتزنة المتناسقة المنسجمة روحيا وبدنيا ، حتى تكون الامشاج والامزجة فى الانسان ذات تآلف وذات التحام وتكامل فيما بينها ، لا تضطرب ولا تختلط بدون توافق فيها

بين وظائفها الطبيعية . وهذا ما دفع بعلماء التربية والاجتماع فى كل الاجيال والعصور الى تكريس جهودهم وطاقاتهم من اجل استجلاء السر فى الانسان ، ذلك المخلوق العجيب الغريب ، وتربيته وتاديبه وتهذيبه ، والتلطيف من غلواء المتناقضات فيه ، ليكون سلوكه سويا قويما رشيدا .

فالرياضة البدنية لا تخلو من فائدة ومزية ، لانها تتغلب على السجايا المتنافرة والمتناقضة عند الانسان ، نظرا لكونها تملأ فراغ الوقت الثالث ، وتقوى الجسم وتنشط العقل . الا انها لا تكفي لما يتطلبه الانسان من تغذية الروح ، تلك التغذية التى تواكب فطرته وتهذبها وتصقلها ، والا لصار أشد بطشا وضراوة فى المجتمع من الوحوش والاسود والسباع .

فاذا نظمنا سير الجسد والروح فى درب واحد ، بحيث يصبح العقل كابحا للشهوة ومتعاونا مع الجسد ، وتصير الروح هي الاخرى معيارا لاستقامة سلوك الاعضاء فى البدن ، فاذ ذاك تكمل الفائدة كما يتوخاها الاسلام فى تربية النشء وتوعيته ، ذلك النشء الذي نريده رزينا ثابتا متعقلا رصينا . فالاتزان يقتضي من النشء الاسلامى ان يكون عقله مسيطرا على شهوته ، حتى ياخذ الجسم والروح كلاهما نصيبه من الزاد حتى يساير ركب الحياة من دون تخلف او ادنى تقاعس . وبقدر اهمال الجسم او الروح فى مضمار التربية ، نرى احدهما عاجزا عن مواكبة الآخر فى معركة الحياة الحسية والمعنوية .

ومع الاسف ، نلاحظ فى اجيالنا الحاضرة انحرافات لها ما بعدها من آثار عميقة فى المستقبل القريب او البعيد . ذلك ان الانحلالات والميوعات لم تشمل شبابنا فقط ، وانما عمت شباب العالم بصورة تبعث على الكثير من القلق والتساؤل عن المصير ؟ وكما يشهد بذلك عمالقة الفكر البشري ، والساسة الكبار الذي يديرون دفة شؤون الدنيا باسرها ؟ فان الشباب قد انجرف حقيقة فى اتبع دوامة من الاستهتار والاستخفاف بالقيم والمثل العليا التى تعتز بها الانسانية كافة فى مشارق الارض ومغاربها فخذ ما شئت من عجز او تملص ، وخذ ما شئت من شذوذ جنسي كاسح للفتيان والفتيات ، وخذ ما شئت من قوانين صالحة لجنس القرود ، وخذ ما شئت من تيه وضلال واباحية لا تحدها حدود ، ولا يتملكها حياء ولا خجل ، ولا تزداد مع الايام الا عتوا وتفشيا وطغيانا ، كأن المجون واللا اخلاق والفسوق والفجور اصبح كل ذلك امرا طبيعيا لا لوم فيه ولا استخفاء ولا غضاضة . اما المصلحون والمرشدون والوعاظ والمربون ، فقد باتوا حيارى كأنهم ايتام ، لا حول لهم ولا قوة امام هذا الداء الذى يستفحل ، والمصيبة التي تستشري ، والتيار الذي يجرف كل ما هو امامه ، والاعصار الذى يأتي فى كل مكان على الاخضر واليابس ! فكيف يتقومون اذن بوضع حد لهذه الحالة المزرية من الانزعاج والقلق والانهيار ؟ !

ان الدواء الناجع ، والترياق الشافي ، والاكسير الوحيد ، والبلسم الفريد ، هو الاسلام ، وهو فى متناولنا اجمعين كبارا وصغارا . الا اننا ننفر منه او نتجاهله ، لاسباب نحن ادرى بها من سوانا . فما علينا الا ان نشمر عن ساعد الجد ، ونسد الطريق على كل اعوجاج وانحراف ، ونعود الى الذات والاصل ، ولا نكون كمن قال فيهم الشاعر :

ومن العجائب والعجائب جمة ،
قرب الدواء ، وما اليه وصول

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما ،
والماء فوق ظهورها محمول

فكيف يوجد الدواء قريبا منا ، ونقضي الحياة كمدا والما ، وتحسرا وابتئاسا ؟ وكيف يكون السر فينا ، والكوثر منبجسا من ديننا الذى هو اقوم الاديان ، ومن مذهبنا الذى هو مذهب الفطرة ، ثم نهيم على وجوهنا فى بيداء المتاهات ، ومفازات المهالك والموبقات ، كالجمال التى تحمل الماء ، وهي تموت عطشا ؟ ! ابدا ! هذا ما لا يكون ، ولن يكون !

ان الاسلام هو دين الخطة المثلى ، والتربية القويمة ، والمنهج الرشيد ، وفيه النجاة من الآفات. وهو الحصن الحصين والسد المنيع ، والضمانة الكبرى للنظافة الحسية والمعنوية ، وتعزيز الخلق الرفيع ، وتهذيب الروح . وهو الضامن للمزيد من العافية الشاملة للعقل والجسم معا ، وهو الذى يجعلنا نتشبع بعزة النفس ، حتى لا نكون عبيدا للنزوات والشهوات والمغريات والسموم اللذيذة ،

وهو الدين الذى اعتنى بالانسان وتربيته عناية خاصة ، منذ نشاته الاولى ، وواكبه فى شتى اطوار حياته ، حتى يصبح رجلا سويا يضطلع بشؤونه ، فينفع نفسه وامته ، ويؤدى الدور الموكول اليه فى حظيرة الانسانية كافة .

ان المدرسة الاولى والاساسية فى الاسلام هى المسجد ، فهناك تنفتح نفس الطفل ، وتتهذب روحه حتما يدخله مرارا وتكرارا لاداء الصلاة ، فتصير النظافة والطاعة والنظام من ابرز عاداته ومقوماته وتنأى روحه عن الاخباث كيفما كانت ، فيتحسس مواطن الاستقامة وحسن السلوك ، ويتحاشى مواطن الزلف والعثرات والهنات ، ويتجنب الثلم والشفرات ، لانه متصل بمولاه المتصف بكل كمال ، والمنزه عن كل نقص . والمقام يقتضى النظافة والطهارة والوضوء ، ويقتضى النظام والطاعة واستواء الصف خلف الامام ، ويقتضى تلبية نداء المؤذن عندما ينادي لاداء الفريضة خمس مرات كل يوم ، ويقتضى لتعود على كل مناهج الخير منذ السن المبكرة ، لان من شب على شيء شاب عليه ، والعادة طبيعة ثانية ، كما يقال .

جاء فى الحديث الشريف : « مروا اولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر . » والاستقامة المتاصلة تقتضى ذلك فى المنطق السليم . والضرب نوع من الزجر والتاديب البدنى الذي يلجا اليه المربى حينما لا يفيد الاقناع ، وتكون المعاملة باللين غير ذات فائدة وجدوى ، واذا كان الضرب مؤديا الى النفور والتعقيد ، فانه لا مناص منه لردع بعض النفوس التى لا تنصاع للخير والفلاح والصلاح بسهولة . فهناك قوم لا يدخلون الجنة الا بالسلاسل فى ايديهم وارجلهم واعناقهم . وما دامت الغاية هى تقويم ما اعوج من الاخلاق ، واصلاح ما فسد من الطبائع والغرائز ، فكل الوسائل حسنة على قدر الامكان . والشدة والحزم والصرامة طرق ضرورية فى بعض الاحيان عند الاقتضاء .

والمسلمون الاولون لم تكن لهم من مدارس سوى المساجد التى كان الطفل ينهل من عرفانها ويكرع من معينها ، ويستفد كثيرا من علومها وآدابها . وهناك يتعلم القراءة ، والكتابة التى تمكنه من حفظ القرآن . ولا تكون صلاته صحيحة الا بقراءته باتقان وبدون لحن ولا خطا ولا نسيان ، وهناك يتعود على النظافة والطاعة والنظام ، وينفتح ذهنه ، وتتنور بصيرته فيلمس عن كثب ماهي روح الجماعة ، وما معنى الاتحاد والتضامن والائتلاف حول كلمة الله والامتثال لاوامره واجتناب نواهيه . كما يتعود على الآداب العامة كما ورد فى الحديث الشريف : « البسوهم السراويل ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » ، خصوصا وان الطفل يتأهب لولوج مرحلة عنيفة شديدة من حياته ، وهى مرحلة البلوغ والمراهقة . والطفل يدرج على ما كان عليه ابواه ، اذ السلوك ينبعث منا نحن الآباء ، وينعكس على تصرفات ابنائنا الذين هم نسخة طبق الاصل منا ، لاسيما وهم فلذات اكبادنا تمشى على الارض .

ولله در من قال :

وينشا ناشىء الفتيان منا
على ما كان عوده ابوه

ولا يريد الانسان أن يكون احد احسن منه ، الا ابنه ، خلقا وخلقا على جميع الاصعدة والمستويات .

ومرحلة المراهقة مرحلة صعبة جدا ، يكتنفها الكثير من الاضطراب النفسي والقلق العصبى ، وهى بداية الهياج والانحراف وتمزيق جميع القيود ، ومحاولة اجتياز جميع الحدود . فالمراهق لا يقيم وزنا للامور وعواقبها ، فتراه لا يلوى على شيء ، ويستهين بالقيم المثلى والفضائل العليا ، وتلك نتيجة حتمية للقلق المضطرم فى النفس ، والصراع المحتدم فى أصعب مرحلة للشهوانية البهيمية ذلك الصراع الذى يستعر اواره، ويبلغ ذروته عندما يكبت الانسان انفعالاته ، او عندما يرتكب خطيئة او يقترف اثما . وفى خضم ذلك الصراع وتلك الانفعالات ، تاتى التربية الاسلامية لتنقذ الموقف ، وتتناول بالعلاج موطن الداء .

واذا كان الانسان يعانى الكثير من الكبت النفسى والجنسى ، فان الاسلام هنا لياخذ بيده حتى لا يتعقد وينحرف وتصبح حياته عذابا اليما وجحيما لا يطاق ، وينظر الى نفسه وكأنه قد صار عبئا على اسرته وعلى المجتمع الذى يعيش فيه .

فالكبت النفسى هو عيب الانسان الجبان الخوف الضعيف الرعديد ، الميال للانعزال

والانطواء والانكماش والاختفاء عن الانظار ، فتراه لا يغشى المجالس ، ويتهيب من قول كلمة الحق ، ويخشى البوح بما في طوية نفسه وخبايا ضميره ، وحاشا للاسلام ان يرضى لذويه نقيصة الكبت النفسي ! فانه على النقيض من ذلك حث اتباعه على الشجاعة الادبية ونماها في نفوسهم . وقد نص الحديث الشريف على ان افضل الشهداء كلمة حق عند سلطان جائر .. وان سيد الشهداء هو حمزة بن عبد المطلب ، وهو ايضا رجل قام الى امام جائر ، فأمره ونهاه فقتله ... ويروى انه لما ولي سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة — رضي الله عنه — جاءته وفود المهنئين ، فتقدم غلام ، فقال له : تأخر أنت ، وليتقدم من هو اكبر منك سنا . فأجابه الغلام بكل صراحة : يا امير المؤمنين ، لو كانت الخلافة تعطى بموجب التقدم في السن ، لكان في الجماعة من هو اولى بها منك .. انما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ! فتقدم الغلام ، وتأخر الباقون ... وحينما كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد تولى الخلافة خطب في الناس مهيبا بهم ان يؤيدوه اذا كان على صواب ، وان يقوموه اذا كان على خطأ . فنهض اعرابي وقال له بكامل الشجاعة : والله لو انحرفت عن الصراط المستقيم لقومناك بسيوفنا ! فقال عمر : الحمد لله الذى جعل في المسلمين من يقومني بسيفه ! وهكذا، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وطاعة العباد لا تكون الا في طاعة الله . اما ان كان الامر يتعلق بمعصية الله ، فلا طاعة ولا اذعان ، ولكنه تنبيه وردع وجهاد لاعلاء كلمة الله ! ... ويروى ان سيدنا عمر الفاروق خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر في الطريق ، والصبيان يلعبون ويمرحون ، ففروا ، الا صبي واحد بقي مكانه ، لم يتحرك . فسأله عمر : لماذا لم تفر كبقية اصحابك ؟ فقال الصبي بكل ثقة وصدق : لم اقترف ذنبا فأخافك ، وليست الطريق ضيقة فأوسعها وافسحها لك . فسر عمر من اجابته ، وفرط ذكائه ، وسرعة بديهته ، ورباطة جأشه ... ووقف عمر يخطب ذات يوم قائلا : أيها الناس ، اسمعوا واطيعوا ، فوقف اعرابي وقال : لا سمع ولا طاعة يا ابن الخطاب ! فسأله عمر : ولماذا ؟ فقال الاعرابي : وزعت علينا الغنائم ثوبا ثوبا ، واراك تلبس ثوبين ، فمن اين لك الثاني ؟ فالتفت عمر الى ولده عبد الله ، وطلب منه أن يوضح الحقيقة ، فقال عبد الله : رأيت ثوب أبي قصيرا ، فاعطيته ثوبي يصنع منه ازارا . فاقتنع الاعرابي وصاح قائلا : اما الآن ، فنحن نسمع ونطيع !

هذه بعض الجوانب المشرقة من التربية الاسلامية القويمة التى لا تحابي ولا تداري ، فتقول للمحسن : احسنت ! وتقول للمسيء : اسأت ! من دون موارية ولا نفاق ولا تصنع ! وبهذا الاسلوب الناجع حارب الاسلام الكبت النفسي ، واستأصله من جذوره ، ومنح الفرد فرصة التعبير بصراحة عما يجيش به وجدانه من خواطر وملاحظات ، من غير فزع ولا وجل ولا خوف .

اما عن الكبت الجنسي فانه اشد وقعا واعظم خطرا على النفس ، لانه صراع حاد وعنيف بين اشباع الشهوة والرغبة ، وبين الخوف من الوقوع في الاثم وارتكاب الفاحشة واقتراف الجريمة . ولا تتوقف تلك الحرب ، ولا يخبو اوارها ، ولا يخمد سعيرها ، حتى تتغلب الشهوة على الخوف ، او ينتصر الخوف على الشهوة . فاذا ما تغلبت نزعة اشباع الرغبة الجنسية ، كان الانحراف المخرب المدمر الذي يكتسح كل الحدود والقيود ، واذا ما تغلبت نزعة الخوف من ارتكاب الجريمة ، كان الكبت والقلق والاضطراب . ولذلك سارع الاسلام الى علاج هذا المشكل الخطير ، فأمر الشباب بالزواج المبكر ، فقال النبى (ص) : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فان ذلك اصون للعين ، واحفظ للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم ، فانه له وجاء » (بكسر الواو) اي وقاية . واول سبب من اسباب تسهيل الزواج وتيسيره ، خفض المهور ، لان المغالاة فيها ينفر الناس من الزواج ويزهدهم فيه . فالشارع الكريم جعل الصداق خاتما من حديد) او آيات من القرآن يحفظها الزوج لزوجة ، أو حفنة من شعير، او ما في مقابل ذلك من الاشياء الزهيدة التي ترمي الى ابعاد شريفة وغايات نبيلة . وكلما كان الصداق قليلا ، الا وكان الزواج اكثر بركة ويسرا في المؤونة ، لان قلة التكاليف تسهل الزواج في الشباب المبكر . واذا كان الشارع الحكيم قد وصف الدواء للعاجزين عن الزواج ، وذلك بحضهم على الصوم ، فلان الشيطان اللعين يجري من الانسان مجرى الدم . والجوع والعطش يضيق المجارى

على الوسواس الخناس الذي يوسوس فى صدور الناس . ثم ان الاسلام قد أمر بغض البصر والحياء، لان العينين نافذتان من نوافذ الشيطان ، وهما صلة الوصل بين القلب والشهوة التى تضطرم نيرانها فى النفس . واذا كان الاسلام قد حرم الاختلاط بين الجنسين ، فلاجل الحيلولة دون تهييج نار الشهوة وتأجيجها . ولم تغفل ملتنا السمحاء بالجانب الخلقى والتربوى الروحى لملء اوقات الفراغ عند الشباب . بل ان اهتمامها البليغ بهذه الناحية ذو فائدة قصوى، ما دام الكبت الجنسي هو التعقيد النفسانى بعينه ، لانه صراع داخلى خطير ، له مقدماته واسبابه ونتائجه ، فلا تعالج الامراض النفسية الا نفسانيا . ولهذا نرى الاسلام يعد من يحفظون فروجهم بالجنة وما فيها من حور عين ، ونعيم مقيم . ويعد من امسك لسانه عن السوء والزور والفحش باحسن الجزاء عند الله تعالى . فقد جاء فى الحديث الشريف قول المربى الاعظم سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من ضمن لي ما بين فكيه ، وما بين فخذيه ، ضمنت له الجنة . » ويتجلى من هذا ان الرجل لا يكون تام النضج وكامل الرجولة ، الا اذا كان شجاعا يسيطر على شهوته ، ويكبح جماح نفسه ، ولا يكون عبدا لنزواته وشهواته ، ولا آلة مسخرة او دمية يلعب بها شيطانه .. ان درجة الانسان ارفع واسمى بكثير من الحيوان المجرد . والغاية التى نشأ من اجلها ، فوق الحيوانية الصرفة . فهو خليفة الله فى الارض ، وانما اودعه الشهوة ليعمر بها الارض بالنسل الحلال ، لا ليعيث فيها فسادا وفسوقا وفجورا وتخريبا . والله طيب لا يأمر الا بالطيب وهو منزه تنزيها مطلقا عن الخبث والخبائث ، والنقص والنقائص ، والعيب والمعايب . ان الشارع الحكيم قد أخذ بيد الانسان وهداه الى النور والهداية ، الى الملأ الاعلى ، لينقذه من شوائب الارض ، وليخلصه من اخلاط الاثم والرذيلة ، وليسير به الى الاستقامة والفضيلة ، فاهتم اهتماما خاصا بالروح ، من دون ان يهمل حقوق الجسد الذي هو وعاء الروح . فليس خيرنا من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، بمعنى انه لا خير فيمن تتغلب روحه على جسمه حتى يكون راهبا — اذ لا رهبانية فى الاسلام — ، ولا خير فيمن يتغلب جسمه على روحه حتى يصير وحشا ضاريا ، وحيوانا عشوائيا ، فانت انسان بروحك، لا بجسمك فقط . وان لروحك عليك حقا ، كما ان لبدنك عليك حقا ، وان لاهلك عليك حقا ، وان لامتك عليك حقا ، فلا بد من العدل والاعتدال فى كل شيء ، حتى تتحقق الفائدة المرجوة .

ولعله من الاجدى والافيد ملء الفراغ بالمحافظة على الصلوات فى اوقاتها ، او بالقراءة المفيدة ، أو ممارسة الالعاب المباحة ، او مجالسة الاصدقاء الصالحين وملازمتهم . فالصلاة صلة الوصل بين العبد ومولاه . فاذا حافظ عليها المؤمن واداها فى اوقاتها ، نال ربح الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » وقال : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر » وقال : « ان الصلاة كانت على المومنين كتابا موقوتا » .. والصلاة تأخذ مكانتها العظيمة فى النفس ، ولا شك انها تملأ اعمق فراغ فى الحياة ، وهي تصرف عن الشر ، وتغري بالتأمل والتدبر ، والانابة والخشوع، ولها حلاوة واية حلاوة فى القلب ! فهى تعوض عن لذة الشهوة العابرة ، وتسوق المؤمن فى درب المتعة الباقية . . فاذا ترك المؤمن اللذات الآثمة خوفا من الله تعالى وابتغاء مرضاته ، فانه يزداد تقربا منه ، وخصوصا اذا ازدادت صلته بخالقه توثقا بالنوافل التى يتقدم بها اليه .

قال تعالى فى حديث قدسى : « ما تقرب الي المتقربون بشيء احب الي مما افترضته عليهم ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لاعطيته ، ولئن استغفرنى لاغفرن له . »

هذه بعض فوائد الاشتغال بالصلاة والاكباب على أبعادها وخلفياتها القريبة والبعيدة فى تهذيب النفوس وصقل الارواح وتطهير القلوب ، ورياضة الجوارح . ويزداد ذلك قيمة وشأنا عند الشباب المسلم المستقيم ، خصوصا وان من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله ، شاب نشأ فى عبادة الله ، لانه يعتاد فيما يعتاد من السجايا والفضائل، صون السمع واللسان عن الغيبة والنميمة والخوض فيما لا يعنى ، وحفظ البصر من النظر الى المحارم ، وتقصى عورات الناس وزلاتهم وعيوبهم ، الى غير

ذلك مما تنطوى عليه الصلاة من آداب نابعة من خشية الله ومراقبته فى السر والعلن ، لان الصلاة سلوك مع الله ومع العباد . وانما الدين المعاملة .

ومن بين الوسائل الناجعة كذلك للحد من انعكاسات الكبت النفسانى ، القراءة المفيدة ، فهى من اهم الاساليب لملء الفراغ عند الشباب ، اذ يسدون بها ثغرة عظيمة ، وتقيهم من السوان الزلق والانصياع للتفاهات والمتاهات . ولا بد ان تكون القراءة بعيدة كل البعد عن الادب الرخيص التافه الماجن المبتذل ، لان المراد بها الصلاح لا الفساد . فالى جانب انماء الرصيد اللغوى والانشائى وتوسيع آفاق الافكار وازدياد رأسمال المعلومات العامة والمعارف من شتى الاصناف والمستويات ، نرى القراءة المفيدة خير جليس واحسن انيس . فالكتاب المفيد يبعد عنك الوحدة والوحشة والغربة ، وهو اخلص صديق واوفق شقيق ، وهو محدث صريح ، ومنادم مليح وكثيرا ما تزينه الصور التوضيحية . فاذا سألته اجابك عن كل ما يريبك او تحتاج الى معرفته . وهو الناطق بلا لسان ، والمحتوى لالوان البلاغة والبيان . فكم يروى من رواية ! وكم يقص من حكاية ! وكم يروي من آداب واشعار ، وكم فيه من بدائع الجوهر المختار ! فالعلم فيه ينتقل من السطور الى الصدور ؛ وكم فى الاوراق من تهذيب وبعث للاذواق !

ومن اجل تركيز وترسيخ القراءة المفيدة فى نفوس شبابنا ، علينا أن نبعد عنهم الكتب الهزيلة المسمومة التى قد انتشرت ــ للاسف ــ انتشار النار فى الهشيم ، اذ نرى التهافت عليها ممن يقراونها بكل نهم وشغف ، والحقيقة انها سم فى دسم ، فبدلا من أن تهذب الشباب وتربيه تربية صالحة ، نراها تحبب اليه الجانب الجنسى الخطير ، وتغريه بالانحراف بشتى الطرق والمناهج ، وتستغل جانب الفراغ فيه لتاخذه اخذا الى الرذيلة والفسوق والعصيان . وذلك ما يقضى على كل المعانى الخيرة والقيم الانسانية المثلى التى نتوخاها من القراءة المفيدة ... فلماذا لا نرغب شبابنا فى تلاوة القرآن الكريم ؟ ولماذا لا نبين لهم بأن الله اعد لقارىء القرآن اجرا عظيما ، وان كل حرف منه بعشر حسنات ؟ فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : « لا اقول (الم) حرف ، بل اقول : الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . والسؤال المحير حقا هو : لماذا ينصرف الشباب عن تلاوة القرآن وفيه كل ما يحبون ويشتهون ؟ فان أرادوا قصة الغرام والحب والهيام ، فما عليهم الا ان يقرأوا سورة سيدنا يوسف عليه السلام ... حتى يتعلموا كيف يكبح الانسان جماح غرائزه ، ويتحكم فيها بشجاعة وثبات ، ويترفع عن العبودية والخنوع للشهوات ، وحتى يتعلموا ايضا المدلول الحقيقى للعفة والشرف والفضيلة والوفاء وطهارة الضمير ، والاعتراف بالمعروف والجميل . قال تعالى : « ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين . وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب ، وقالت هيت لك ! قال : معاذ الله ! انه ربى احسن مثواي . انه لا يفلح الظالمون . » فكل من قرأ بامعان هذا القصص السماوى الرفيع ، فانه يتراجع عن كل نية سوء او انحراف فى القول او العمل ، يقينا منه بأن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يهدي كيد الخائنين .

وان اراد شبابنا المسلم القصص التاريخية ، فليقرأوا فى القرآن قصة نوح وابراهيم عليهما السلام ، وقصة موسى وهارون عليهما السلام ، مع فرعون ، وقصص أصحاب الاخدود ، وما جرى للانبياء والرسل مع اممهم واقوامهم ، وما لاقوا من عنت ومضايقة ، وما بذلوا من تضحيات بالنفس والنفيس فى سبيل تبليغ الدعوة واعلاء كلمة الله ، وان اراد شبابنا كذلك ان يطلعوا على العلوم ، فليقرأوا ما شاءوا عن الاقتصاد ، والاجتماع ، والتنظيمات الحربية ، وتخطيطات الاسرة ، والاكتشافات الطبية ، والسياحة فى الآفاق ، والمغامرات فى اعماق المحيطات وفى الاجواء الفضائية العليا ، وغزو الكواكب الاخرى ، الى غير ذلك من الموضوعات التى تناولها القرآن الكريم فى غير ما آية ، والتى له قصب السبق فيها . وتلك من معجزاته الباهرة ! وان اراد شبابنا الجانبين الادبى والفنى ، فليقرأوا ما شاءوا من القرآن ، فانهم سيجدون فى كل كلمة من كلماته ، وفى كل سطر من سطوره ما تهفو اليه اذواقهم ، وتهواه افئدتهم ، وتصبو اليه نفوسهم .

والاضافة الى هذا وذاك ، ها هي السيرة النبوية العطرة بين ايديهم مشحونة بمواقف

البطولة ، ومملوءة بقصص للشهامة والكرامة ، والبطولة والرجولة والاخلاق العالية . ولا يرى الاسلام اي مانع من قراءة اي كتاب فيه استفادة للخير والحق . فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها . وعليك ان تأخذ الحكمة ، ولا يضرك من اي وعاء خرجت .

واما عن ممارسة الالعاب المباحة ، فقد صب الاسلام اهتمامه على الجانب الجسمي من الانسان ، كما اولى عنايته السابقة للجانب الروحي ، لانه لا خير فيمن تغلب روحه على جسمه حتى يصبح راهبا منكبا انكبابا كليا على العبادة ، ولا خير فيمن يتغلب جسمه على روحه ، فيصبح كالحيوان الاعجم لا عقل له ولا ذوق . ولا بد من التكامل بين الروح والجسم حتى يصبح الانسان انسانا بكل ما فى الكلمة من معنى . ولذلك اجاز الاسلام وأباح كل الالعاب التى تقوى جسم الانسان ، وترجع على نفسه بالتهذيب والتأديب والتربية القويمة . فقد ثبت فى الحديث الشريف أن المؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف . وورد فى الحديث الشريف ايضا : « علموا أولادكم السباحة والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا . » كما أباح الشارع الكريم المسابقة سواء للرجل او المراة على القدمين او باية وسيلة من وسائل الفروسية ، واشار اليها بكل ذي حافر كالخيل ، او ذي خف كالبعير . ولقد سابق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم زوجه عائشة رضى الله عنها فسابقتها فسبقته بعد ان سبقها فى المرة الاولى . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : هذه بتلك . وصارع النبى (ص) ركانة ثلاث مرات ، وصرعه صلى الله عليه وسلم ، حتى اضطر ركانة الى الاسلام .

وعليه ، فالدين الاسلامى الحنيف قد أباح للشباب ان يملأوا فراغهم بكل ما يعود عليهم بالخير والنفع جسمانيا ونفسانيا .

وأما عن اختيار الاصدقاء ، فان الصديق هو المرآة الصافية التى تعكس صورة صديقه . فقد قيل : « قل لى من تصاحب ؟ اقل لك من انت » لان من خالط الطيبين كان طيبا ، ومن انتسب الى الخبثاء كان خبيثا . . ومن خالط العطار نال من طيبه ، ومن جالس الحداد نال السواد ولفح النار . وعلى كل حال ، فالاخيار لا يشقى بهم جليسهم ابدا ، بل حتى الحديث عنهم يهذب الاذواق ، ويعطى القدوة الحسنة ، ويهدى الى السلوك القويم . ولله در من قال :

عن المرء لا تسال ، وسل عن قرينه
فكل قرين للمقارن ينسب

والصديق الحق ، هو من قال فيه بعضهم :

ان اخاك الصدق من كان معك
ومن يضر نفسه لينفعك
حتى اذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك !

فاختيار الصديق وانتقاؤه واجب ، فما كل الناس يصلحون للصحبة والمعاشرة ، فاربما كانت الوحدة خير من جليس السوء :

الزم الوحدة تسلم ، لم تعد فى الناس خلة
ان ود الناس اضحى لنفاق او لعله
فانبذ الاصحاب الا صاحبا يدعوك لله

وهذا مصداق للحديث الشريف الذي ورد فيه قول المربى الاعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : « خير الاصدقاء من اذا ذكرت الله اعانك ، واذا نسيت ذكرك » .

وكثيرا ما يتحول الصديق الى عدو مبين ، اذا لم تكن الصداقة قائمة على صفو السريرة ونقاء الضمير وطهارة القلب ، لان ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل . وكل شيء فى الحياة آئل الى فناء ، الا الحب فى الله ، وفى كل ما مصدره غير المادة الزائلة . ومهما يكن من امر ، فان الصديق الوفى كنز ثمين فى الحياة ، حلوة كانت ام مرة .

فقد قال بعضهم :

المرء فى زمن الاقبال كالشجره ،
والناس من حولها ، مادامت الثمره
فاذا غاب عنها حملها انصرفوا ،
وخلفوها تقاسى الحر والغبره !

ولطافة المعشر ، وحسن الخلق ، والسعي فى نفع الناس وقضاء اغراضهم فى الحق لا فى الباطل ،

والتعاون معهم على البر والتقوى ، لا على الاثـــم والعدوان ، كل ذلك مجلبة لصداقة الناس وحبهم وعطفهم ومودتهم . واذا كان لـيس من الممكن أن يكون الانسان صديق الجميع ، ــ لان ارضاء الناس كلهم غاية لا تدرك ــ ، فمن الاجـدى والانفـع أن يكون صديقا للاخيار حتى يعد منهم . فان التشبـه بالكرام رباح ، كما قيل :

فالصديق الذى يعينك على الطاعة والاستقامة، والصديق الذى يذكرك بالله ، ويردك عن المعصية ، ويصدك عن الانحراف والعصيان ، ويغلق دونـك ابواب الشيطـان ، هو الذي تلزمـك مصاحبته ، لانه يؤنس وحشتك ، ويملأ فراغك ، ويدلـك على الخير ، ويبعدك عن الشر ، ويرشدك الى الصراط المستقيم .

على ان الشباب المسلم يجب أن يبقى دائم الحذر واليقظة والتـبـصر والاناة فى اصطفـاء اصدقائه ، فقد قال ابن الرومى :

عـدوك من صديقـك مستـفـاد ،
فـلا تستكـثـرن مـن الصحـاب

فـان الـداء اكـثـر مـا تـــراه
يـحـول من الطـعـام او الشراب

اذا انقلـب الصديـق غـدا عـدوا
مبيـنـا ، والامـور الى انـقـلاب

ولـو كان الكثـير يطـيـب ، كانـت
مصاحبـة الكثـير مـن الصـواب

ولكـن ، قلـمـا استكـثـرت الا
عـثـرت علـى ذئـاب فى ثيـاب

فـدع عنـك الكثـير ، فكـم كثـير
يعـاف ، وكـم قليـل مستـطـاب

فمـا اللجـج المـلاح بمرويـات ،
وتلقى الـرى فى النطـف العـذاب

واذا لم ينجح المرء فى اختيار اصدقائه ، لانهم لم يبادلوه وفاء بوفاء ، ومحبة بمحبة ، فالدواء عند الامام الشافعى رضى الله عنه ، حيث قال :

اذا المـرء لا يرعـاك الا تكـلـفـا
فدعـه ، ولا تكـثـر عليه التأسفـا

ففى الناس ابـدال ، وفى الترك راحة ،
وفى القلب صبر للحبيب ولـو جفـا

فما كل من تهـواه ، يهـواك قلبـه ،
ولا كل من صافيتـه لـك قـد صفـا

اذا لم يكن صفـو الـوداد طبيعـة ،
فـلا خـير فى ود يجيء تـكـلـفـا

ولا خير فى خـل يخـون خليـله ،
ويلقـاه من بعـد المـودة بالجفـا

وينـكـر ودا قـد تقـادم عهـده ، ــ
ويظهـر سرا كان بالامـس قـد خفـا

سلام على الدنيـا اذا لم يكـن بهـا
صديق صدوق ، يصدق الوعد ، منصفا !

هذه بعض المناهج والطرق التى تقضى بهـا الاسلام على الكبت والفراغ الذي هـو شر مستطير ، وداء خطير . قال الشاعر :

ان الشبـاب والفـراغ والـجـده
مفـسـدة للمرء اي مفـسـدة !

واذا ما ترتب على ارتكاب ذنب ، أو اقتراف جريرة ، أو اجتراح مخالفة ، أدنى عقدة نفسانية ، فان الاسلام قد عالجها بما يضمن للنفس خلوها من الارتباك والاضطراب ، لان الله عفو حليم ، غفور رحيم ، يقبل التوبة عن عباده . وهو يحب التوابين، ويحب المتطهرين . فرحمته سبقت غضبه ، وعفوه اربى على عقوبته . فقد جاء فى الحديث الشريف : « ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهـار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل . » واللـــه الخالق البارىء المصور أعلم من الانسان بما يصلح نفسه ، وهو يفسح له المجال دائما اذا نسي أو اخطأ . « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين مـــن قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنـا به . واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا . انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » ــ « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب الا الله . ولم يصروا على ما فعلـوا وهم يعلمـون . »

وكل انسان لا يخلو من خطا . فلكل جواد كبوة ، ولكل سيف نبوة . والكمال لله وحده دون سواه . فقد بشر الله المؤمنين على لسان نبيه سيدنا محمد (ص) الذي قال : « كل بني آدم خطاؤون ، وخير الخطائين التوابون » وقد جاء في الحديث القدسي : « وعزتي وجلالي ان لم تذنبوا وتستغفروا لاذهبن بكم ، ولآتين بقوم يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم . » وعليه ، فالاسلام يمنح الاطمئنان والثقة والامل الرحب ، كما يمنحنا القدرة والشجاعة على مواجهة المشكلات بعزم وصبر واحتساب ، من دون ارتباك ولا تعقيد . والاسلام يجب ويمحو ما قبله . ان الحسنات يذهبن السيئات . والاسلام يجعل لصاحبه مخرجا وتوبة مما عمل من سوء ، ويحل عقدة الجريمة من نفس الانسان ، حتى يصير قويا قادرا على افادة وطنه ودينه ، نافعا للمجتمع الذي يعيش فيه . وبذلك يبني الاجيال القادرة على الوقوف في وجه الصعوبات ، وقهر المعوقات والمثبطات ، وصد الاعداء ، والانتصار على الاهواء ، وتحقيق ما تصبو اليه الامة من عزة وكرامة ومجد وسؤدد .

ان الاسلام راعى بدقة مراحل تكوين الانسان وتربيته بمنطق سليم . فاذا ما اجتاز المرء مرحلة المراهقة التي هي اصعب واخطر مراحل التكوين العقلاني والنفساني في الحياة ، فانه يصبح في طور النضج والاعتدال الفكري الذي تتهذب فيه الغرائز ، ويتأتى التصرف بالاناة والحكمة والاتزان . اذ يصبح الانسان بحكم عقله وبصيرته وادراكه الباطني ، ويتمعن في الظروف والملابسات التي تحيط به ، ويتأمل ويجيل الفكر في عجائب الكون وغرائبه وما فيه من مخلوقات واسرار . جاء في كتاب الله عز وجل : « قل انظروا ماذا في السماوات والارض »، — « ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون . » — « الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلف الوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك . انما يخشى الله من عباده العلماء . ان الله عزيز غفور . »

بهذه التوجيهات السماوية التي يطفح بها القرآن الحكيم ينفتح للعقل البشرى كتاب الكون الفسيح ، ليتدبر ويتمعن ويتأمل ، ويستنبط السر والمغزى والدرس الذي ترمز اليه تلك الآيات الكريمة ، ليستفيد منها الانسان ما يغمره بالرشاد والخير ، والتوفيق والهداية . لان مجرد النظرة العابرة الى الاشياء لا تكفى . فالكون العظيم يستوجب النظرة الفاحصة المنقبة المستوعبة ، حتى يدرك عظمة الله ، وكمال قدرته ، واتقانه لتدبير الكائنات ، ان النظرة الواعية هي احسن وسيلة واقوم طريق للوصول الى الحقائق ، لان الاكوان لها اسرار وخلفيات وابعاد تكمن وراءها . والمؤمن المتدبر يستشف ويستخلص منها ما لا يحصى من العبر والآيات .

ولنا في اسلافنا الاماجد اسوة حسنة ، اذ يحققوا المنهج التجريبي للعلوم حيث لهم فضل استطاعوا بالنظر الثاقب ، والبحث والتقصي ، ان الاسبقية والنبوغ والتبريز فيه بالنسبة لزمنهم . ومن هؤلاء العباقرة الافذاذ الجغرافي البارع (الشريف الادريسي) ، والرحالة الذي اتقن علوم البحار (ابن ماجد) ، وفريد عصره في علم النباتات والعقاقير (ابن البيطار) ، وصاحب المقدمة الرائعة في علم طبقات الارض — الجيولوجيا — (البيروني) ، ومؤلف احسن كتاب عن الحيوان (الجاحظ) ، وكاتب اعظم مقدمة في علم الاجتماع والتاريخ (عبد الرحمان ابن خلدون) وكذلك المؤرخ الاجتماعي الكبير (ابن الازرق) ، والطبيب العالم المشارك في شتى فروع العرفان ، (ابن سينا) ، والبحاثة النابغة في علوم البصريات (ابن الهيثم) ، وفارس الميكانيكا الاول (ابن فرناس) ، والطبيب الجيسوبي مخترع الجبر (ابو بكر الرازي) ، وسواهم من مئات الآلاف من الجهابذة الاعلام الذين يعج بهم تاريخ الاسلام ، والذين يجب أن يكونوا لنا قدوة صالحة في الاخلاص والتفاني والتثقيف والتهذيب ، اذ هم من بين ملايين المشاعل التي انارت درب البشرية ، وبيضت وجه الاسلام والعرفان في العالمين .

ان التربية الاسلامية ذات شاو عظيم ، وغاية مثلى ، فهي تريد للامة المسلمة جيلا بريئا في طفولته ، واعيا في شبابه ، مستقيما متزنا رزينا . والمقصد النبيل للاسلام هو السهر على رعاية شبيبة مؤمنة طاهرة ، تعاف الجمود والتواكل ،

والفراغ والتعقيد ، لا اضطراب ولا ارتباك ولا حيرة فى سلوكها ، تعرف الهدف الذى تسعى اليه ، فتشمر عن ساعد الجد ، وتحدد غايتها فتعمل لها باخلاص وتفان . ان الاسلام يريد أن تكون للشباب رجولة كاملة تتسم بالادب والشجاعة ، والعقل والنضج ، وتتصف بالخلق الرفيع ، البعد عن السفاسف والتوافه ، والقشور ، والتوقعيات . ان التربية الاسلامية ذات المناهج الواضحة ، هي وحدها المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك . فعلينا ان نقدر هذا الكنز الذي بين ايدينا حق قدره ، فهو مصدر قوتنا وثرائنا ، وهو النور الذي يسري فى عقولنا ، ويبث فينا روح الرجولة الفاضلة ، تلك الرجولة التي غرست فى أجدادنا النخوة والشهامة وقيادة العالم ، والتي منها نقتبس اليوم الضوء والدفء ، للخروج من المازق الذي نتخبط فيه ، ولمحو العار ، وازالة الفضيحة التي لن تزول الا باستعادة اولى القبلتين وثالث الحرمين المسجد الاقصى الذي بارك الله حوله ، وبالقضاء على عصابات الفساد والتخريب الصهيونية ، وتحرير فلسطين المسلمة ، ورجوع الحق الاول الى أهله .

فلمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . ولله الامر من قبل ومن بعد.

« لقد اتصف هذا النظام الملكي منذ قرون بالشجاعة الكافية ، تلك الشجاعة التي تعرف الرحمة والرأفة ، تلك الشجاعة التي لا تنبني الا على العدل وعلى العدالة تلك الشجاعة التي يتقدمها الراي الذي هو اساس كل عمل ناجح فى هذا الشأن » .

جلالة الملك الحسن الثاني

الدعوة الاسلامية

للاستاذ محمد بن علي الكتاني

دق احد الاخوة الكرام ناقوس الخطر ، فى مقال نشر على اعمدة هاته المجلة الغراء ، نبه فيه الى الخطر المحدق ، الذي يواجه الدعوة الى الله ، والى الاهوال التى توشك ان تلم بالمسلمين اذا هم لم يوحدوا صفوفهم ويعمل قادتهم لمواجهة هذا السيل العارم من العراقيل التى توضع فى طريق الايمان والعقيدة ، وانه ما لم يعمل المفكرون عملا جديا ، لمواجهة الحقائق بالدرس والعلم والنظر ، فسيأتي وقت تستفحل فيه المصائب ، وتتكرر النكبات .

وانه فى سبيل هاته المواجهة يجب الا ننسى انفسنا ، وان ندرس احوالنا دراسة وافية وواعية ، وان نتعرف على مواطن الضعف ونحاول اصلاح الاعوجاج بكل وسيلة ممكنة ، حتى تكون انطلاقتنا انطلاقة مستمرة وهادفة ، تصل بنا — فى نهاية المطاف — الى النتيجة المطلوبة . وان طريق الدعوة طريق شاق ومتعب ، يتطلب جهدا مستمرا ، ودراسة متقنة ، وتقييما دقيقا لكل الخطوات ، واخيرا التنسيق والتنظيم والعمل الجماعى ، والصبر والبعد عن الشقاق ، وكل ما من شأنه ان يفتت القوى ويحطم البنيان .

وهذه صرخة يجب أن نأخذها مأخذ الجد ، وان نعى غاياتها واهدافها ، وان نتبصر عواقبها وما تفضي اليه ، فقد اعتدنا ان تعتبر مثل هاته التحذيرات مجرد نداء عابر ، او صيحة روتينية سرعان ما تتلاشى فى خضم الاحداث ، ويطويها النسيان ، فلا نتحرك الا اذا داهمتنا الخطوب او وقع عطب ما .

ان موضوع الدعوة الاسلامية موضوع مهم وخطير ، لا يكفي ان نجعله فى التخطيط ، او نستهين بقيمته اعتمادا على الحاسة الدينية المتوفرة ، او نتفاءل كثيرا بوجود حركة انتعاش اسلامية ، تتجلى فى بعض الاوساط ، وضمن بعض الهيئات ، وفى نطاقات متسعة فى أرجاء العالم الاسلامى . . .

ان خصومنا لنا بالمرصاد ، يتتبعون التحركات ، ويرصدون الانتفاضات ، ويترقبون الانتكاسات ، ويدفعون فى التنظيمات ، ويبحثون عن الثغرات غير متوانين ولا متكاسلين ، مسفرين أحيانا عن نواياهم ومتسترين فى غالب الاحوال ، فاذا لم نأخذ الامور بحزم ، وظللنا كل واحد منا يغنى على ليلاه ، وكل حركة او تنظيم يسير فى الاتجاه الذي يرضيه ، وربما فى اتجاه معاكس للآخر ، فسيأتى وقت نصبح فيه غرباء الوجه واليد واللسان !

واود ان انبه فى البداية — لكى تتضح الرؤية وتنجلى الامور — الى الدور الذى تقوم به المجموعة العلمية التى وكل اليها أمر الاشراف على الدين ونشر الدعوة ، والدفاع عن العقيدة ، وتنوير الافكار فيما يرجع الى السلوك والاخلاق ، وكل ما من شأنه ان يجعل امور الناس تسير سيرا حسنا ومستقيما ، فان هذا الدور — رغم اهميته — يستصغره الكثير من الناس ، ويهملون آثاره ونتائجه ، ويستنقصون من قدر القائمين به والمتحملين لمسؤوليته ، مع انه — بالاضافة الى غيره — أمر حيوي وضروري لنجاح كل دعوة .

ورغم انه لا توجد رهبانية فى الاسلام ، ولا نظام طقوس يشبه الذي يوجد عند غيرنا من معتنقى الديانات الاخرى ، أو المؤمنين بايدلوجيات وتنظيمات عقدية ، حيث ان كل معتنق للعقيدة الاسلامية مطالب بأن يصفى دينه وعقيدته ، ويتجنب كل ما يفسد هاته العقيدة شكلا ومضمونا ، لان الحلال بين والحرام بين ، لكن من الضروري أن يختلف الناس فى مفهوم الاشياء

وان توجد مجالات تتيه فيها العقول ، وتضطرب فيها الافهام ، ولابد من وجود حصانة علمية ، ووعى قانونى يزيل الاوهام وينير الطريق ، ويبرز الحقائق دون غموض او اضطـــراب .

من هنا كان وجود العلماء ضروريا لفهم الدين وتوضيحه ، وابراز معالمه والدب عن حياضه ، وانارة الطريق امـــام معتنقيه والمتشبثين به ، كـــى يزدادوا ايمانا بقيمه ومبادئه ، ويطمئنوا الى اهدافه وتشريعاته خصوصا وان هناك قواعد شرعية مضبوطة ، نسمع عنها كثيرا ، لكن عند التطبيق يقع ما يقع ، بـــل يستغلها البعض استغلالا سيئا ، تنفيذا لمصالحهم ، وتدعيما لآرائهم ، كالقولة المشهورة « الاسلام صالح لكل زمان ومكان » وكالقاعدة المعروفة : « الضرورات تبيح المحظورات » .

ورغم صدق هذه المقولات وانضباطها مع احكام الاسلام وتعاليمه ، الا اننا فى حاجة الى جهد جماعى لاستغلال ذلك استغلالا مناسبا ومفيدا ، لصالـــح المجموعات الاسلامية المنتشرة فى كل صقع من اصقاع الدنيا ، بحيث لا نخرج القولة الاولى عن مضمونها ، ونخالف — اعتمادا عليها — تعاليم الاسلام التى لا لبس فيها ولا غموض ، بدعوى مسايرة العصر والتكييف مع الزمان ! ولا نستغل الثانية للتحلل من المحرومات والابتعاد عن الواجبات بدعوى الضرورة العارضة ! وعلينا ان نكون متيقظين فنقف فى وجه المتحلل الذى لا يراعى اي شىء ، والمتشدد الذي قد ينحرف عـــن القصـــد .

من هنا كان من الضروري أن نفهم انفسنا اولا ، وان نصلح اوضاعنا قبل ان نتوجه لاصلاح اوضاع الآخرين ، وان نفهم ديننا الفهم الدقيق والواعـــى ، كى نتخذ العدة لمواجهة الانحراف ونقاوم الشر باسلحة مناسبة ، ونزيل الزيف والبهتان ، بوسائل معقولة ، ونقف امام التحديات بصمود ، وقد اعددنا للمعركة كل ما تتطلبه من خبرة ومعرفة وتجربة ، ووســـائل النجـــاح .

صحيح ان بعض العلماء والمفكرين والمومنين فى جل الاقطار الاسلامية ، يقومون بجهود مكثفة من اجل الدعوة ، ويتحركون تحركات نشيطة فى كل المجالات ويحاولون التوفيق بين العلم والدين ، ويبذلون كل ما فى طاقاتهم لتحرير العقل من اوهامه ، والانســـان من نزواته ، والحد من جموح الشباب الثائر الذي اغوته الدعايات الباطلة والايدلوجيات المسيطـــرة ، والمغريات المادية الطاغية ، والافكار المستـــوردة الضـــالة ، لكن هذه الجهود — وان كانت مثمرة — الا انها مبعثرة وغير منظمة ، بل احيانا تكون غير هادفة او تقوم بحملات وقتية حين يكثر الخطر او يدق ناقوس الفتنة ، او يدعو داع لاسباب معينة ، حتى اذا مرت الازمة وخبا اللهب ، عاد الكل الى طروسه وبروجه ، وسكنت كل نامة وخمد كل شعور .

وصحيح ان العالم الاسلامى يتوفر على طاقات فكرية خلاقة ، وان اصحاب هاته الطاقات مؤهلون للقيادة والتوجيه وبامكانهم تعميق الرؤية وتوضيـــح الصورة بكل ابعادها وظلالها ، وفرض الحقائق بطريقة معقولة وباساليب مقنعة . . . وصحيح انه توجد هيئات ومؤسسات تحمل مشعل الاصلاح وتسطر فى اهدافها بنودا وتضع فى مخططاتها فصولا ، وتعمل جادة لتوسيع نطاقها وتنويع نشاطها ، لكن — مع الاسف — عنـــد التنفيذ لا يظهر اي اثر ، وسيبقى المجال مفتوحـــا امام الانحراف والشذوذ والحقد والتطلعات ، ويظل الباب مغلقا امام التحركات الهادفة والخدمة الجماهيرية . . . لا اريد هنا ان استصغر من قيمة العمل الذي يحصل ، ولا ان احتقر من قيمة العاملين المخلصين ، لكنى اريد أن اشير الى ان العمل الفردي مهما كانـــت نتائجه ومهما اعطى من مردود ، فلن يصل الى حصيلة العمل الجماعى المنظم والمحكـــم .

الى متى تظل الهيئات الاسلامية والمجموعـــات المثقفة والعلماء وسائر المنظمات تعيش هذه العزلة والعالم يتحرك والدنيا تتفز والحضارات تدفع كـــل يوم بجديد ، بل تصدر الينا كل ساعة ما يذيب الجليد، ويقلقل المزازين وحطم المثل والمبادىء .

الى متى واصحاب الفكر — عندنا بالخصوص — تحركاتهم تحركات روتينية محضة وبحسب المناسبات ، كأن لم يكن المغرب السباق الى كل المجالات ، المجلى فى كل الميادين ، الواعى بمسؤوليته عبر العصور ، المقدم لكثير من عباقرة الفكر وجهابذة المعرفة .

نحن نومن الا خلاص لهذا المجتمع الانسانـــى من الضياع والضلال ، الا بالالتزام بما اوجبه اللـــه وفرضـــه ، وان رسالة الاسلام هى فى نفس الوقـــت هدف ووسيلة ، وان الحرص على البحث والدرس فيما شرع الله ، وسن رسوله ضرورة لازمة لبناء مجتمع فاضل ومثالى ، واننا برجوعنا الى جذور الفكر الاسلامى

نستوعب ونستنبط ، نستطيع ان نمكن امة الاسلام من مكانتها اللائقة بها ، وان نجعلها رائدة للحضارة الحقيقية ، لا مقادة وتابعة ، ولا يتم هذا الا بتطوير الهيكل العلمى وازالة النشور التى تطغى عليه ، وباحياء الفكر الاسلامى بنشر كتب اعلامه ودعاته ، وباحياء الاصالـة الاسلاميـة .

نريـد ان تهتـم الكليات والمجامع الاسلامية بدراسة النظم الاسلامية عامة ونظام الحكم فى العقيدة الاسلامية ، والاقتصاد والادارة والمعاملات والسياسة وكل مجالات القوة التى دفعت المسلمين الى مصاف العظمة فى عهود الخلفاء والسلف الصالح .

نريد ان نعيد عهد الفقهاء الاكاديميين الذين كانوا يبحثون وينقبون ويستنبطون دون تحجر او تعصب او ميوعة بطبيعة الحال ، ورغم ان دعوة الاجتهاد والرجوع الى احياء هذا العنصر فيها مقال ومقال قد لا يتسع له المقام هنا ، لكن استعمال الراي فى نطاق التشريعات والقوانين ، وفى اطار النصوص الصحيحة والمقبولة مما لا يجادل فيه احد ، خصوصا اذا توفر الفكر الممتاز والعقلية الخصبة والملكة الخلاقة .

جهود العلماء والمفكرين لا تخضع لمقاييس محددة وما انفكت الحجب تستر كثيرا من المشاكل التى تعترض سير العالم الاسلامى ، لا اريد ان اتعرض لكثير من الامثلة ، والامثلة حقا لا تعد ولا تحصى ، لكنى استعرض بعض النقط ، هناك — مثلا — مشكل الربا الذي يجب ان يحدد تحديدا دقيقا ، وان توضـح فى شأنه الحقيقة الاسلامية دون التواء ، وان يعالج على ضوء العقيدة لا على ضوء الواقع ، وعلينا ان نبحث عن الحلول الجذرية لتلافى اخطاره ومشاكله ، اما ان يظل التعامل به على هذا الشكل الخطير ، ويظـل الناس يعيشون فى متاهات لا نهاية لها ، بين من يحلل عناصر منه ، وبين من يحرم ، فتلك هى الطامة التي يتحمل وزرها علماء الاسلام قاطبة ، يجب ان يعقد مؤتمر على الصعيد العام ، وتدرس فيه المشكلة دراسة وافية وموضوعية ويتخذ القرار الحاسم الذي لا يصـادم العقيدة ويتمشى مع روح الاسلام واهدافه .

هناك التقويم الهجري والفوضى التى تنشأ اثناء التطبيق ، وكيف تتضح كيفية الاعتماد على الرؤية وما يتعلق بالمسألة من كل جوانبها الفقهية والفلكية . اما ان نرى قطرا اسلاميا يصوم يوم كذا والآخر يصوم بعده بيومين او يفطر بيومين ، فهذا ما يدعو الى البلبلة ، اذ ليس اختلاف المطالع يستوجب كل هذا الفـرق الواسـع ! !

هناك مشكل تطبيق الشريعة الاسلامية تطبيقـا كاملا ، استنادا الى الدساتير الاسلامية التى تنص أول ما تنص على ان دين الدولة الرسمى هو الاسلام ، فكيف نوفق بين ذلك والواقع ، وكيف نحارب القوانين الوضعية التى سدت علينا المسالك ، واستحوذت على كل التشريعـات !

هناك مشكل الاختلافات الفقهية وكثرة الاقوال والآراء التى تجعل الخلاف احيانا بين المذاهب يكاد يكون جوهريا ، مع ان الاصول واحدة والاساس الذي اعتمد عليه لا يخرج عن مصادر التشريع المعروفة ، ويكون احيانا الحديث النبوي صريحا كل الصراحـة ، ومع تقديرنا لاجتهادات العلماء والاعلام ، وايماننـا بقيمتهم العلمية ويقينهم الصادق وحرصهم على خدمة الدين ونشره ، فان وجود هاته الاقوال وعلى الاخص بالنسبة لتلاميذ هؤلاء المجتهدين الكبار ، يبعث نوعا من الاضطراب ، وعلى الاخص فى وقت نحن احوج ما تكون فيه الى وحدة الصف ووحدة الراي ، فلا اقل من أن يتفق علماء الاسلام على موسوعة فقهية منتقاة ، ويعمل على تنفيذها ، وبذلك نتلافى — شيئا مـا — هاته العراقيل التى تقف فى وجه الباحث المعاصر الذي لم يتعود على هذه المنهجية !

فى الحقيقة لا اريد ان اتابع تعداد المشاكل التى تعترض طريق الصفاء الروحى ، وتضيع وقتا كان يجب ان يصرف فى توسيع الدعوة وتوضيح اهدافها ، لان توحيد الجهود وتنظيم القواعد امر ضروري للنجاح ، فاذا كنا حقا نريد القيام بهذه المهام الملقاة علـى عاتقنا ، واذا كنا نريد القيام بها على الوجه الاكمل ، فيجب ان نعد انفسنا اعدادا كاملا ، وعلينا أن نتجنب الصعوبات والعراقيل التى ظهرت اثناء التطبيق ، وان نكون عمليين ومنطقيين فى كل تصرفاتنا ، حتى لا يجد الاعداء وسيلة للنيل منا ، وحتى تكون دعوتنا فى مستوى الغاية التى نستهدفها ، وهى اعلاء كلمة الله وتحقيق الطمأنينة والفضيلة ، ونشر الاخاء والمحبة بين الجميع ، وليس ذلك علينا بعزيز اذا عرفنا كيف نستغل الظرف الذي نعيشه ونستفيد من الخيرات والتطـور والامكانيات لمحاربة كل زيف ونسف كل مخطط يريد محو وجودنا وابعادنا عن الساحة .

فاس : محمد بن على الكتاني الحسنى

خير الدّين الزّركلي

المجاهد الأديب الدّبلوماسي

للأستاذ محمد بن أحمد الشاعو

لن يبتعث فينا اليأس والقنوط ما نراه في يومنا — نحن الامة الاسلامية — من تخبط وانحراف وانزلاق ... فالزيغ ليس قاعدة في سلوكنا وانما هو شذوذ ، ليس من صميم حقيقتنا وانما هي قشور ، على هذا ، قد يكون من بين المتخبطين والمنحرفين والمنزلقين اليوم ، أهل رشاد واستقامة وهداية غدا ، فان لم يكن ذلك منهم فسيكون من ابنائهم ، والا فمن احفادهم ، أو احفاد احفادهم !

ان امتنا الاسلامية قامت على اسس ثابتة من العقيدة والسلوك القويمين ، فالنبي صلوات الله وسلامه عليه أدى رسالته الخالدة كاملة وافية بعيدة الاثر ، والخلفاء الراشدون والتابعون — رضى الله عنهم — ادوا دورهم بكل ما يستطيعون من وفاء وتفان واخلاص ، وأولو الامر — بعد ذلك — قاموا بدورهم ايضا بكل ما في مكنة بشريتهم من الجهد والاجتهاد والاباء والصمود .

وحالت الامور بعد ذلك عن حالها ، ووقع بالامة الاسلامية ما قدر لها من العجز والخلل والضعف والانكماش ، لكن الاصالة بقيت ثابتة متحدية ، حتى اننا لم نعدم في أي عصر — حتى في العصور التى تسمي عصور الانحطاط — اميرا شهما ، أو مصلحا غيورا ، أو عالما مجتهدا جريئا ، أو اديبا ملتزما جهير الصوت . على هذا كان العجز والخلل والضعف والانكماش ، ولم يكن الانهيار ولا الذوبان ولا الفناء .

نحن نعلم أن عدة حضارات وامبراطوريات انقرضت : الفرعونية منها والفنيقية واليونانية والرومانية ، وصارت أيامها واخبارها تروى من قبيل الاساطير ، في حين ان الامبراطورية الاسلامية لم تضمحل ، لم تذب ، لم تندمج ، بل انها صمدت ، ثم اخذت تتجدد آدابا وعلوما وفنونا وعمرانا وتحضرا ...

ان اتصال حلقات المجد الاسلامي منذ عهد النبوة وحتى الآن لسر من أسرار الوجود ، وخفية من الخفايا التاريخية الكبرى . ان الايام — ولا شك — لتذخر منه لعهد آت ، ربما تطغى فيه الموجات الالحادية الجاحدة الكافرة بكل القيم ، الا بقيمها المادية الجانحة الحقود ، وربما تسود فيه الاساليب الراسمالية بخططها المسيطرة ، المطبوعة بالانانية ، والتى تهيمن بفرديتها العاتية ، فتستغل كل الجهود ، وكل المواهب ، وكل القدرات ، وكل القوى لمصلحتها الخاصة ... وعندئذ لا يبقى من علاج سوى الاسلام ومبادئه .

ان الطاقات النورانية التى ابقت هذه الامجاد متصلة يمثلها افراد ماجدون وجماعات فاضلة ، كل فيها يتسم بالفضل والاريحية ونكران الذات ، والتضحية باصدق معانيها ... فجدير بنا أن نذكرهم بما هم أهل له من الخير ، وان نترحم بنبضات قلوبنا وحرارة مشاعرنا على الكثرة الكاثرة التى انتهت من الدنيا ، وانتقلت الى جوار ربها الكريم ،

وندعو للقلة القليلة بمثل ذلك ، ليمد فى أجلهـا ، ويهبها العون والسلامة .

احد هؤلاء الماجدين غادرنا منذ شهور ، وترك حسرة عميقة فى النفوس ، ذلكم هو الراحل المرحوم الاستاذ الفاضل السيد خير الدين الزركلي ، المناضل ، المؤرخ ، حافظ الامجاد ... لا تقول عنه انه كان « دوليا » بسبب ان اصله من قطر عربي ، وانه نشأ وتعلم فى آخر ، وغامر وناضل فى ثالث ، ونال مكانة سامية فى رابع ، واستطاب المقام فى خامس ، هذا الخامس الذى هو قطرنا السعيد المغرب ، المغرب الذى أمضى فيه عدة سنوات برتبة سفير ، سفير سياسى ، وسفير ادبى ، وسفير انساني رقيق الشمائل ، طيب العشرة ، كبير المقام ... لن نعطيه الصفة « الدولية » لان رابطة الديانة الاسلامية والرابطة القومية أمتن من كل الروابط الاخرى واعمق واصدق .

ثلاث وثمانون سنة هى عمر الفقيد ، وكانت عامرة ، نافعة ، آخذة من الخلود بأسباب متينة :

- جهاد فى سبيل الامة العربية ومقاومة للاستبداد والاستعمار .
- مهام سياسية وادارية مع البيت الهاشمى ، الذى كان يمثل فى فترة من الفترات اماني الامة العربية .
- نشاط صحافى متواصل ، تمثل فى اصدار عدة صحف ، الواحدة بعد الاخرى .
- فيض من الشعر العذب الرصين ، تغنت به الاجيال .
- مهام سامية فى التمثيل الديبلوماسى لدى الجامعة العربية ولدى الامم المتحدة ، ولدى بعض الدول ، آخرها تمثيل السعودية الشقيقة بالمغرب .
- صقل الموسوعة الخالدة « الاعلام » ، واعدادها نهائيا فى ثلاثة عشر جزءا لتوضع فى سجل الخلود للامة العربية الماجدة .
- تدعيم الفن القصصى بقصة شعرية تحت عنوان « ماجدولين والشاعر » وملحمة قصصية شعرية « العذراء » فى مائة وتسعة عشر بيتا ثم قصة تمثيلية تحت عنوان « وفاء العرب » .

ألم نقل انها حياة حافلة مزدهرة ثرة ، متنوعة المواهب خيرة العطاءات ، يقل نظيرها ....؟ لقد جرت العادة ان بعض العلماء والباحثين يعتذرون بشؤونهم عن الخوض فى المعامع الاخرى ، وان رجال الجهاد والانغمار السياسى يقضون أيامهم فى الترصد والمقارعة والجدل ، وقلما يتيسر لهم الابداع والبروز فى الميادين الاخرى ، وان رجال الديبلوماسية يستغرقهم العمل الديبلوماسى ، وان كان لهم من انتاج فكري فانه قليل ومحدود ، ما اشبهه بزهر البرتقال البديع الفواح ، الذى لا نراه الا اسابيع معدودة كل حول ... بينما رجلنا الفذ انكب ــ رغم اعبائه ــ على قرض الشعر ، وتحبير النثر ، خصوصا اسفار كتاب « الاعلام » التى اخذ من الشاعر اربعين سنة !

وانى لاتصور المعاناة الكبيرة التى عاناها الكاتب وهو المؤرخ الباحث المحقق فيما يتعلق بالمراجع والتى تعد بالمآت « انظروا لائحتها فى الجزء العاشر من الكتاب المذكور » ان مصاحبتها أو ملازمة القرب منها ــ وهو الديبلوماسي الكثير التنقل ــ امر عسير ، وتركها بعيدا امر اعسر واكثر مضايقة ... ولكانى بالكاتب الماجد متحمل كل صعب وعسير فى سبيل موسوعته ، بل موسوعة الامة العربية .

وان شئنا الحقيقة فهي ليست موسوعة الامة العربية بل هى موسوعة الامة الاسلامية الصامدة ، وموسوعة كل من له صلة بهذه الامة من قريب او من بعيد ... لقد وجد ان آثار هذا المجد مبعثرة بين الكتب والفهارس ، أو موضوعة بين ايدي مستشرقين واشباه مستشرقين يجيدون البحث والاستقصاء ، ولكنهم لا ينسجمون روحيا ونفسيا وعقليا مع تلك الامجاد ، فهم ان كتبوا فانما يكتبون ما يعن لهم ، يكتبون وكفى ، مجتهدين فى ان يتغلبوا على عواطفهم وميولاتهم ... فكيف لا يتقدم غيور نبيل مثله ، ومناضل أهدر دمه مرتين ، عندما حكم عليه الفرنسيون بالاعدام ... كيف لا يتقدم للقيام بهذه المهمة ؟ بلى ، لقد تقدم ، وتحمل العبء ، وكان الله فى عونه ، والتوفيق فى ركابه .

ويذكر الناس الاستاذ الزركلي مقرونا أسمه بكتاب (الاعلام) وينسون فيه الشاعر الذى هز المحافل والمجامع بأشعاره ، والهب المشاعر وحرك الغيرات الوطنية ، وترك أبياته ومقاطعه ومقطوعاته تسير على كل لسان . اقرأوا هذه المقطوعة :

يـــا زمـــان

متى ترى تبسم لى ، يـا زمـان !
الاحـــنـان ؟

اسلمتنى ، لا انس لى ، لا امان !
للحـدثـان .

عيـناي ـ لمـا تبرحا ـ تجريـان
نضـاحتـان

ابكى ربوعـا ، لا تطيـق الهـوان
رهن امتهان !

* * *

ابكـى ديـارا ، خلقـت للجمـال
ابهـى مثـال

ابكى تـراث العز ، والعـز غـال
صعب المنال !

ابكى نفوسـا ، تعـدت بالرجـال
عن النضال !

ابكى جـلال الملـك كيـف استحال
الى خيـال !

* * *

مـالرحـابى ، وجـنـان الرحـاب
آضت يباب ؟

مـا لبنيهـا ؟ كلهم فى اكـتـئـاب
اسرى عذاب ؟

ايـن اولـو طعانهـا ؟ والضـراب
اين الحـراب ؟

ما بـال شيب عربهـا والشبـاب
غير غضاب ؟

* * *

ضاعت بلادى ، يـا زمـان الصغار
والانـدثـار !

النـاس يـبنـون ، وما فى الديـار
غير البـوار !

اما تـرى الغـرب تعلـى وطـار
فوق البحـار ؟

وامـتـى هـاويـة فى انـحـدار
بئـس القـرار

* * *

ايـن بـنـو هاشـم الاولـون ؟
اين البنـون ؟

ايـن بـنـو اميـة الفاتحـون ؟
ينـتـقمون !

اين بنـو العباس ، اهل الفنـون ؟
يحتـكمـون !

ايـن بنـو فاطمـة الغـابـرون ؟
هل يـبعثون ؟

* * *

يـا زمن الشؤم سقيـت الشـآم !
كاس الحمـام

القبـلـتـان اشتكتـا والسـقـام
معـا نـسـام

الى متـى نـبقى أسرى انقسـام ؟
ونـسـتضـام ؟

* * *

المقطوعة ــ كما راينا ــ ذات روي شعري حديث ، ولكن الموضوع طافح بالغيرة والحماس واستنهاض الهمم ، ولا عجب ولا استغراب فالشاعر ليس ــ في كل حين ــ من الخياليين التجريديين المحلقين في الاجواء ، ولا هو من المناضلين بالاقوال ... خذوا هذه ايضا :

وطني ، طال بكائي   والأسى مما عراكا
اترى تصفو سمائي   وكما اهوى اراكا ؟
حاولوا مسك بالسـ   ـوء ، وهموا باذاكا
ابعد العز والمنعـ   ـعة يبغون (حماكا) !
انا لا اعشق ، مما عشـ   ـق الناس ، سواكا !
فيك محياي ، ومثوى   اعظمي تحت ثراكا

وقدم رجال القضية العربية الاحرار ارواحهم فداء لأوطانهم ، لما علقوا على المشانق ، أو وجهت فوهات البنادق الى صدورهم الفتية ... انهم معه على نفس الخط ، والاحكام التى نزلت عليهم قاسية نزلت عليه كذلك انما الاجل تراخى عليه ، وفاضت منه الحسرات على الزملاء الهالكين :

نعى نادب العرب شبانها
فجدد بالنعي احزانها !

بكى كل ذى عزة تربه
فهاج نزارا وعدنانها

وهل لوم الحر ان لا يثور
ويدفع للحرب فرسانها ؟

فجائع ، هن حديث القلوب
وهيهات تستطيع سلوانها

والشاعر ، ككل ذى ضمير حي ، يشارك الانسانية آلامها واحزانها ونكباتها ، ولذلك كتب هذه القصيدة الخالدة ، التى تداولتها الاجيال ، كهولا وشبانا ، وحتى الاطفال اخذوها محفوظة فى مدارسهم :

لم تف يا قمر !

لم تبق يد الحادثات ولم تذر
فعلى م تضحك فى سمائك يا قمر ؟

أرأيت تائهة على اترابها ؟
فتانة بسفورها وحجابها
خلابة بدلالها وعتابها
غلابة بحديثها وخطابها
ذهب الزمان بمالها وشبابها
وتفردت بانينها ومصابها
فاجتك شاكية تصاريف القدر
وظللت تضحك فى سمائك يا قمر !

ارأيت بين مسارح الاقلام ؟
مترسلا او مستجاد نظام
ما كاد يعرف بهجة الايام
حتى رماه من الفوادح رامي
نهدت اليه قوارع الآلام
فبكى اليراع مودعا بسلام
عهد النبوغ وصوغ آيات العبر
ونعمت تؤنسك الكواكب يا قمر !

اشهدت من غسق الظلام غريبا ؟
ملأ الفضاء تفجعا ونحيبا
نادى احبته ، وعاش كئيبا
قلق الجنان على الزمان غضوبا
والدمع يجرح مقلتيه صبيبا
يرعاك مضطرب الجوانح والفكر
وتتيه فى خيلاء كبوك يا قمر !

ومعاقرا خمر الصبا يترنح
كالظبي يسكن فى الرياض ويسرح
يلهو بزورقه الصغير ، ويسبح
فى سلسل كالنور ، أو هو اوضح
قذفت به هوج العواصف تطرح
فهوى ... ووجه الموت اكدر اكلح
وله على صفحات جدوله اثر
وخلوت ، تزهى فى نجومك يا قمر !

اسمعت، انات الجريح ممددا ؟
يطوى الليالي ، لا يقر مسهدا
لا العيش طالب له ولاالشتاق الردى
يمسي ويصبح شاكيا متنهدا!
ضعفت قواه ، فما يطيق تجلدا!
وتعامت الزفرات ان تتصعدا

غض الجفون وقال : حسبك يا غير !
وسهرت تبسم للكوارث يا قمر !

اشهدت من كثرة الشقاء كتائبا ؟
واسنة وهاجة وقواضبا
جيشان ، كل هب يحمي جانبا
يتطاحنان ، تباعدا وتقاربا
هذا يئن ، وذاك يقضي صاحبا !
ويح المطامع ، كم تجر معاطبا

تفنى النفوس ، وانت تهزا بالبشر
ويغرك الالق المذب يا قمر !

ارعاك مبتئس شكا الم الطوى ؟
ومروع ضل السبيل ، وما غوى
وموج ، عنت الجباه ، له هوى ...
عن عرشه ، لا الملك دام ، ولا الثوى
ومودع مستسلم لهوى النوى
ومعذب لفراقه بادى الجوى

وتسوت ، هل قدت ضلوعك من حجر ؟
لم تحتجب ، لم ترث ، لم تف يا قمر ! !

نفثات حرى من صدر عامر بالشعور الانساني الدافق ، وهو شيء معهود في المثقف العربي الاسلامي ، الذى لا يعرف اي معنى للتحجر والجمود العاطفى والتفكير الاقليمى الضيق ... فمذ كان وهو المتجاوب مع الثقافات الاخرى الفارسية منها والهندية واليونانية في القديم ، ومع الثقافات الفرنسية والانكليزية والاسبانية وغيرها من العصر الحديث ... هذا مع الاجانب ، اما التبادل الثقافي في انحاء العالم العربي فشيء فريد من نوعه في انحاء الدنيا كلها ، حتى ان البحراني يكتب فيجد لكتاباته صداها عند المغربي ، ويكتب التونسي فيقرا له العراقي على بعد الديار ، انها الاخوة الفكرية والوجدانية الثابتة ، رغم تقلب مظاهر الاخوة الاخرى !

في هذا النطاق رويت لشاعرنا الأبي المخلص هذه الابيات من قصيدة طويلة ، تضمنت عواطف غالية نحو بلادنا واهلنا ، وما غلاء هذه العواطف الا كونها صادرة عن شخصية عزيزة غالية :

أحب بلاد الناس ، للناس ، موطن
كصلق زلال الماء ، يجدى ولا يكدى

وآثرها عندى حمى يقظ النهى
ببيت على رشده ويصحو على رشد

سماء « رباط الفتح » في كل منتأى
سمائى ، ولو اوغلت في السند والهند

ومن نسيم « الرقراق » نشوى ولا طلى
وفي شاطئيه نفحة الرند من النجد

ولي في « سلا » اخوان صدق ، وحولها
الى « شالة » ، صانوا وصنت لهم عهدي

ومن كان ودى منهم ما عرفته
فهل انا مخلص لهم ودى ؟

وان الذى عند الاحبة منهم
نعمت بلقياهم ، من الشوق ، ما عندى

شكرا ايها الماجد ، انك رايت فينا اكثر مما نرى في انفسنا ، واننا لنعتز بكلماتك الطيبة ، لانها نابعة عن ضمير صادق .

ايها الراحل الكريم :

ان هذه الربوع من وطنك الاسلامي — العربي الذى وهبته جهادك وراحتك ، علمك وادبك ، قلمك ولسانك ، لباقتك ومروءتك ، سموك وتواضعك ... ان هذه الربوع لتحفظ ذكراك ، وترسل — على بعد الديار — ابتهالات الرحمة والرضوان الى ضريحك الطاهر ، سائلة الله واهب الثواب والغفران ان يجزيك خير الجزاء ، وان يسكنك فسيح الجنان ، مع النبيئين والصديقين .

محمد بن أحمد اشماعو

مأساة الخنفسة ببلادنا

للأستاذ عبد الحق المريني

« مرت مطاحن الحروب فى العقد الاول من القرن العشرين تسحق البشرية وتدمر مدنيتها وظهرت آلات الدمار والإبادة الجماعية تلتهم الاخضر واليابس » . وعندما وضعت هذه الحروب أوزارها غدا الانسان متذمرا من تبعاتها فارتمى — « لكي يتخلص من شيطان الحرب الذي جثم على صدره » — فى خضم حضارة آلية مادية بمعزل عن كل فضيلة ودين وقيم ومثل واخلاق . فوقع هـذا الانسان فريسة لانحرافات جارفة وفلسفات جامدة اضلته الطريق السوي وزحزحته عن فطرته وواقعه الاصيلين وأسقطته فى حضيض البهائم فاصطدم بالمادة والوجودية والالحاد والحيوانية فلصقت به ونفذت الى روحه فأعدمتها ، وتركته مضطربا حائرا قلقا يهيم فى كل واد ، وصيرته آلة مصخرة بدون ارادة او وازع أو ايمان . فكان مولد « الخنفسة » وكان ميلاد « الخنافس » !

فما هي الخنفسة اذا ؟ هي موجة من الالحاد والتمرد واللامبالاة والانحلال الخلقي والاباحية فى الجنس والخنوثة والتنكر لمبادىء التربية والقيم الاخلاقية — زاحفة — تلتهم الشباب التهاما . ومن هم الخنافس ؟ انهم المتمردون على كل فلسفة ودين وخلق ومجتمع ، انهم العاصون المتسكعون المدللون، انهم المنطلقون نحو السراب ، التائهون على وجه البسيطة ، السابحون فى خيالها ، انهم « أبطال مأساة » بشرية تنكروا لاسس المجتمع الانساني وهزؤوا بمؤسساته واخلاقه وارادوا العودة الى الحياة البدائية استخفافا بالنظم والمجتمعات والطبيعة الانسانية المتحضرة » . انهم الجبناء المتخاذلون الذين ركنوا الى الفراغ والسكينة وفروا من مواجهة الواقع ولجأوا الى المخدرات والافيون ليبعدهم عن التفكير فى مشاكل الحياة القايمة ويصعد بهم الى جو الاحلام الواهية .

فما بال بعض شبابنا المغربي ينمو هذا النمو المعوج و « يتخنفس » « وقد أطلق شعره ومارس الاباحية وعبر عن يأسه بالقيثار الكهربائي » . وهو ليس وليد حضارة مادية مجردة أو فريسة قلق مستمر من شبح الحرب والفتنة او ضحية مأساة خانقة ؟ .. انه التقليد الاعمى لكل وارد من الخارج قد سهل لجرثومة « الخنفسة » التسرب الى بعض البيوتات فحطمت اصالتها ، وافسدت اخلاقها ، وهدمت كيانها ؛ انها التربية المنحرفة فى البيت والشارع ، انه التوجيه المتنكر لشخصية الامة وتاريخها ومقوماتها وحضارتها ؛ انه تناسي واغفال كل فضل لهذه الامة على ابنائها ؛ انها دعوة الانسان — الغير الموجه الوجهة الصالحة — الى ما يثير غرائزه ويشبع رغباته الحيوانية فى الثورة على كل قانون ، فى الثورة على كل تاريخ وقديم ، فى الثورة على كل فلسفة ودين ...

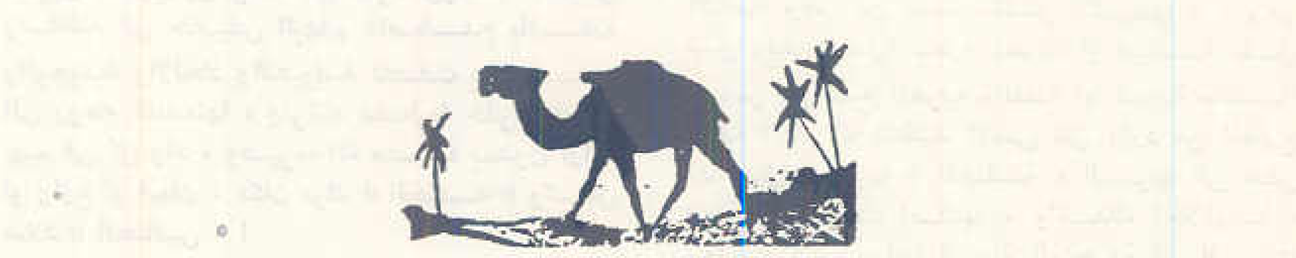
ان هذا السيل الجارف من الانحلال الديني والخلقي لا يمكن صده الا بتخطيط بعيد المدى

لتربية وطنية رصينة من أجل التمسك بقواعد الاخلاق والدين ، والايمان بعظمة الماضي وأصالة الحاضر ، ونبذ كل تافه رديء لا يقوم على المنطق السليم ، وابعاد شبح المذاهب « الرخيصة » المستوردة من الخارج ، ورفض الانجراف مع « الهاربين الحيارى المضطربين اللامنتمين المائعين في حياة بوهيمية سافلة » ، المستهترين بكل نعمة وفضيلة .

ان حضارتنا وقيمنا ومقدساتنا وتقاليدنا تأبى أن تحتضن مثل هؤلاء « الخوارج » عن سنن الطبيعة وناموس الحياة وقوانين التطور الحضاري والفطرة التي فطر الله الناس عليها . بل انها تحتم خلق جيل مغربي مؤمن ثابت ، مفكر واقعي ، ثائر على التخلف الفكري ، داع الى الخير والمحبة ومخطط للمستقبل الجميل ، مناد الى العمل المثمر البناء السليم .

ان الدواء لهذا الداء هو العودة الى افياء الايمان : « الايمان بوجود قوة الله كمصدر للحياة » ، والايمان « بالدستور الخلقي الالاهي الذي سنه الله في كتبه المتعاقبة » ، والايمان بالحضارة الانسانية والاطمئنان الاجتماعي والسعادة الاسروية . ولله در أحد المفكرين حيث قال : « ان أقسى أشكال الضياع ، ضياع عن طريق الله ، وأجمل صورة العودة ، عودة الانسان الى رحاب الله ، وما أروع العودة الى الايمان بعد الضياع في مسارب الالحاد ومتاهات الضلال » ولكن ، انك لا تهدي من أحببت ... ولكن الله يهدي من يشاء !

الرباط : عبد الحق المريني



قصة فكاهية :



للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

تحت عنوان (شاطىء الغيب) يضع الكاتب قصصا سمعها من رواة موثوق بهم ، تدور أحداثها فيما يسميه علماء الغيب (بمنطقة الفسق) أي المنطقة الواقعة بين الحقيقة الملموسة ، وعالم الغيب ، أو عالم الروح والماورائيات .

ورغم أن هذه القصة يطغى عليها الطابع الفكاهي ، فالحدث الرئيسي فيها واقعي يحكيه ويؤكده عدد من أهل مراكش الذين عاشوه ، وخصوصا أصحاب الحرف من الصناع التقليديين .

لن ادعي ان هذه القصة واقعية .. فهي من النوع الذي تقول عنه انه أغرب من الخيال .. ومع ذلك فالسي « العربي الخليفي » يقسم براس أمه انها وقعت في ايام شبابه وهو مستعد للحلف في محراب الجامع الكبير ، وتكحيل عينه بنقارتبا ..

لن تستطيع تكذيب رجل يفعل كل هذا ..

التقيت بالسي « العربي الخليفي » على شاطىء البحر . كان الوقت مساء صيفيا جميلا ، وكنت عائدا من مشيتي اليومية الى كهوف الجنوب حين لمحت دخانا كثيفا وراء صخرة قرب الماء نسميها « حجرة مرزوق » .

ومنذ طفولتي وأنا معجب بالنار .. تجذبني اليها كما كانت تجذب الانسان الحجري الاول ، ويفتنني منظر لهبها والسنته تتراقص دافئة باهرة ..

وصعدت الصخرة ، وأشرفت من فوقها على مكان الدخان ، فاذا السي « العربي الخليفي » متكئا في جلسة شاعرية يدخن « السبسي » وينظر الى الافق الاحمر في نشوة صوفية خاثرة ..

وتنحنحت لاشعره بوجودي ، ثم قلت :

— السلام عليكم ..

والتفت الي ، فاظهرت المفاجأة لرؤيته :

— آ السي العربي ؟ كيف حالك ؟

ونظر الي بعينين شبه مقفلتين نظرة بعيدة ، ورد بابتسامة مسخخة :

— سلام .. وتي الله .. وبركاته .. أشخ — بارك ، أودي ، أش — شريف ؟

— الحمد لله .. هذا منظر جميل ..

— حقيقة .. الم تسمع قول الشاعر : شمس الاصيل .. يالالان ، يالالان .. ؟

وبدا يترنم بمقطوعة من الآلة .. وفى هـذه اللحظة انضم الينا صديقي « السي حماد » الذي كان هائما بين المروج يبحث عن « المراين » والاخطبوط، ولم يصادف حظا ..

نزل بساقيه العاريتين دون ان يسلم .. كان يحمل عصا غليظة فى يده فوقف ينظـر الى السي « العربي » نظرة من يحاول البحـث عن شتيمـة مناسبة ، ثم قال لي ، وهو يشير اليه بعصاه :

— مذا تفعل مع هذا ؟

قلـت :

— الله ياودي .. السي العربي .

وقاطعني قائلا :

— كنت اظن انك فاتحا « ماكينة غناء » قديمة فاذا بهذا يغني لك « الالة » ..

وبدا يشير نحوه بالعصا كأنه يريد ادخالها فى بطنه ، والآخر يرفع يده على مهل ويقول :

— انعل الشيطان اسي حماد .. ان .. ان .. انعل الشيطان اودي ..

واخيرا توقف .. السي حماد عن المناوشة ، وقال لـه :

— احك للاستاذ ما كنت تحكيه لابي بالامس ..

فقـــال :

— مــاذا حكيـت لـه ؟

والتفت الى « السي حماد » وقال :

— هؤلاء الحشاشون ينسون اسماءهم .

والتفـت اليـه :

— كنت تحكي له عن الحلم الذي رايته ليلـة امـــس .

ورفع السى « العربي » راسه وقد تذكر :

— ايه الحلم . انت لم تصدقني على اية حال ، لماذا اذن احكيه لك ثانيا ؟

— ستحكيـه للشريـف ..

ونظر « السى العربي » الي ثم الـى البحـر وسكت . فنخسه « السى حماد » فى ضلوعه بيده ، فصاح هذا بصوت خافت مكبوت :

— الله — ضلوعـي .

والتفت يقول ويشير الى « السى حماد » :

— اشهد عليه ا الشريف .. امش فى حالـك الله يهديك .. ابعد عني .

ونظر اليه « السى حماد » ثم اختطف عمامته وهدده برميها فى البحر وهذا واقف يمد يديه ليتلقف العمامة ويستعطفه الا يرميهـا :

— ا انعل الشيطان « السى حمـاد » انعـل الشيطـان أودي .

واخذت العمامة من « السى حماد » فارجعتها الى صاحبها ، وودعنا « السى حماد » مهددا انـه ذاهب الى « الفرسة » وعائد بعد لحظة .

— وجلس « السى العربي الخليفي » ينظر الى البحر ويتمتم بكلام لا اسمعه .. واخيرا انحنيت عليه انصت وقلـت :

— اه ؟ هل تخاطبني « السي العربي » ؟

والتفت الي قائـلا :

— كنت اقول لك عن « منامة » الامس ..

— ايه .. اريد ان اسمعهـا ..

— « منامة » عجيبة .. لقد بعثني الله هنا فوق هذه الصخرة ، والبحر صامت كأنـه لين ساكن ، وفى لحظة هدوء وتأمل بعث لي الله انسانا على فرس ابيض ، لابسا حلة بيضاء وقد اشرق وجهه نورا حتى اضـاء ما حولـه ..

قلت انا : يا ترى من كان ذلك ؟

قال : والله لا ادري .. الله أعلم .

قلت : سيدي احمد المرزوق ، تعتقد ، هـذه صخرتـه ..

قال : لا ، لا ، لا .. هذه صخـرة مـرزوق الحوات .. صانع الاوتار ، اوتار « الجمبري » مـن مصارين القطط وليس « الولي الصالـح » الـذي تعـرف ..

قلت : اذن هو سيدي احمـد المنصـور .. ضريحه هناك خلف السور .

قال : لا ابـدا .

قلت : اذن مولاي عبد القادر الجيلالي .. انت من اتباعه ، اليس كذلك ؟

قال : « شاى الله » امولاي عبد القادر . ولمس بيده جبينه وفمه وصدره — ولكنه ليس هو ..

قلت : وكيف عرفت انه ليس هو ؟

قال : هل يخفى علي وجه مولاي عبد القـادر الجيلالي ؟ وانا اراه كل صباح فى دكـان « سـى المختار الحجام » ؟ .

قلت : مولاي عبد القادر فى دكان السي المختار الحجـام ؟

قال : اعني صورته ، الصورة التي هو فيهـا بلحيته السوداء راكبا على فرس اسود وهو يفلق راس السبع بسيفه المسلول .

قلت : كنت أظنه سيدنا علي ..

فنفى ذلك براسـه قائلا :

— سيدنا علي يرشق راس الغول ، بسيفـه المرشوق . وفى صورة اخرى يجلس وعلى يمينـه سيدنا الحسن وعلى يساره سيدنا الحسين .

قلت : ا .. كيف اذن يخفى علك ؟

قال : هذا الذي بعث الله لي فى المنام له لحية بيضاء كالحرير ..

قلت : اذا لم يكن مولاي عبد القادر الجيلالـي ولا سيدي العربي غيلان ولا ، ولا .. اذن لم يبق الا سيدنا « دكدعة ابن الاكبغ » .

وملت بوجهي حتى لا يلاحظ قرب انفجاري .

قال : مستغربا ومشمئزا : من هو هذا ؟

قلت : سيدنا « دكدعة ابن الاكبغ » ؟

قال : وماذا كان ؟ الكمكمة او ما اسمه ؟

قلت : لا ادري .. لعله كان رجلا طويلا بلحية بيضاء يظهر للناس فى المنام ..

قال : لا .. لا .. لال ..

قلت بجد : « السى العربـي » لم يبـق الا الحبيب صلى الله عليه وسلم .

فقال : صلى الله عليه وسلم .. ولكني اعرف وجه الحبيب من احاديث السيرة ..

فقلت متحديا : اذن لم يبق الا الحق سبحانه .

فرفع عينيه نحو السماء قائلا : ما اجله ، واعظم شانـــه .

ونظر الي طامعا فى ان اصدقه وقال :

— لا ادري اوالله الشريف ، من كان ذلك الذي بعث الله الي .. والذي انا منه على يقين هو انـه صاحب مقـام رفيـع ..

قلت : الحاصل .. ماذا فعل لك ؟

قال : رايته آتيا يركض فرسـه الابيض على سحابة بيضاء من جهة الشرق .. وحينما اقترب مني وانا كما بعثني الله جالسا على هذه الصخرة ، ناداني بصوت جهوري عظيم : « يا فلان » قلت : « نعـم يامولاي » قال : « اقترب منـي .. » .. قلـت : « حاضر يا مولاي » قال : « مد لي يدك » قلـت : « ها هي يا مولاي » ومددت يدي اليه مبسوطة هكذا .

كان « السي العربي » يحكي وعيناه مغمضتان وهو باسط كفيه الى السماء .. وفى نفس اللحظـة خرج « السى حماد » الذي كان مختفيا خلف الصخرة ينصت الى حديثنا ، فوضع أصبعه الوسطى فى كف

السي العربي قائلا :

ــ هــذا ما اعطــاك .

وافاق السي العربي من نشوته الربانيـــة على حركات السي حماد الشيطانية .. وما كاد يفتح فمه بالاحتجاج حتى نزلت على كفيه ضربة شديدة مــن عصا السي حماد ، الذي قال :

ــ هذا جزاء من يكذب على الله .

فصاح السي العربي بصوت خافت مكبوت :

ــ ايما يمــا يمــا .. ايدي يــدي يــدي .. اولد الحــرام .

وحاول ان ينهض من مجلسه لينتقم لكرامته فارجعه السي حماد الى مكانه بدفعة على رأســـه ، ورفع العصا يهدده بالضرب اذا حاول القيام ..

وهنا تدخلت فانتزعت العصا من يد السي حماد، ودافعته فى محاولة لرد الاعتبار للسي العربي الذي كان يحاول الخروج من ضباب السبسي بطريقـــة (ضون ــ كيشوتية) مضحكة ..

ووقفت بينهما ، وكلاهما يحاول ، غير جاهد ، الانقضاض على الاخر ..

وفى النهاية نفض السي العربي الخليفي جلبابه الصوفي ، واعاد عمامته التي كانت حول عنقـــه الى مكانها من رأسه ، ووقف يمد يده الى السي حمـــاد ليراها بجميع ما طبع عليها عمر كامل من الخرازة من نتوء وتصلبات ، مباهيا ومهددا :

ــ لا تستهن ياولد « السي العربيي » بهـــذه اليد .. ففي امكانها صنع قنبلة ذرية !

فاستشاط السي حماد مرة اخرى وصاح :

ــ ها هو يعود مرة اخرى الى اضاليله !

ثم رفع عصاه ونادى ، وكأنه يخاطب جمهورا من امواج البحـــر :

ــ اجهـــزوا عليــه .

ورفع طرف جلبابه ، فعض عليــه ، وحـــاول الارتماء على السي العربي فدخلت بينهما مرة اخرى، وقلت للســي حمــاد :

ــ دعنا نسمع اولا قصة القنبلة الذرية .

فوافق السي حماد مشترطا :

ــ وبعدها مباشرة ادق رأسه بهذه !

وتوجهت الى السي العربي الخليفي الذي كان يراقب تطور الوضع من خلف ضبابه الكثيف ، وقلت:

ــ ماذا تعني بامكانك صنع القنبلة الذرية ؟ هذا ادعاء خطيـــر .

فقال متحديـــا :

ــ ورغـــم ذلك فهو الواقـــع .

قلـــت : وكيـــف ذلـــك ؟

فقال مشيرا الى السي حماد :

ــ اذا امنتني من شر هذا الصعلوك حكيت لك .

فالتفتت الى السي حماد واخذت منه العصا ، وقلـــت :

ــ لا خوف عليك منه الآن .

فعاد الى جلسته الاولى ، والتمس عدة تدخينه من قرابه الجلدي ، فملأ السبسي بالكيف ، واشعله وقبدة ، واخذ بدك حبات الكيف داخل الشقــف بعلبة الوقيد ويتكلم فى آن واحد ونحن نستمع اليه مبهورين بطقوس اشغال السبسي الدقيقة .

قال : منذ أزيد من ثلاثين سنة .. وكنت يومئذ صانعا شابا ماهرا فى خرازة البلغة هنا فى مدينـــة اصيلة ، قدم على دكاننا رجل يلبس ملابس غريبة .. ملابس مغربية ، ولكنها غريبة وسلم علينا ، وكلمنـــا بلهجة مغربية غريبة كذلك .. وسألناه من اين هو ، فقال من مراكش . فدعوناه للجلوس معنا ، وشرب الشاي ، فجلس مسرورا ، واخذ يحكي لنا عن بلده الذي لم يكن احد منا قد زاره فى ذلك العهد .. وقال لنا انه هو نفسه خراز كبير هناك ، لذلك يهمه معرفة اهل حرفته فى المدن الاخرى ..

وكان رجلا لبقا ، وسريع البديهة ، مليح النكتة، خفيف الظل ، فاستحلينا مجلسه ، ودعوته للعشاء والمبيت عندي ، فقد كنت اعيش وحدي مع الوالدة . واستطاب هو صحبتي وكلامي ، فقد كنت اجيب على نكاته وفكاهاته المراكشية بنكاتنا الاصيلية العريقة .. الى جانب انه استلذ (تذريحة) الكيف على طريقتنا (الكتامية) !

وضحكت انا ، فتمطى السي حماد لتناول العصا من يدي ، قائلا :

— انه يربح الوقت فقط وليس له ما يقول !

فاستعجلته انا ليدخل فى الموضوع ويترك الاستطراد ، فقال :

— الحاصل به .. يا سيدي .. بات الرجل عندي تلك الليلة ، وفى الصباح كنت انهيأ لاشد الرحال معه الى بلده مراكش . فقد قال لي عن مراكش ، وجمال مراكش ، وحلاوة اهل مراكش ، وكيف سيتذوقون نكتي ، ويعجبون بصنعتي ، وكيف ساصبح غنيا فى أقرب وقت ووسوس لي ، يا ولدي يا الشريف ، كالشيطان ..

وتنهد ، ومص من السبسي طويلا ، ثم قال :

— الحاصل به ، يا سيدي ، اتممت اجراءات السفر فى يومين .. واخذت جواز السفر ، وصحبت الرجل الى بلاده مراكش ، على متن القطار ..

« وكانت مراكش فعلا كما وصفها جنة خضراء يانعة ، وسط وادي من النخيل والزيتون والاسوار الحمراء ، والصهاريج والغدران » .

« واجمل من ذلك كان مجتمع مراكش المنظم ، واسواقها العامرة بالسلع المغربية الجيدة الصنع .. وكان الصناع يتعمون ببحبوحة من الرفاهية والرخاء .. بضاعتهم رائجة رابحة كل الناس يلبسون الجلباب والبلغة ، والقفطان والدملج والخلخال وغير ذلك مما تنتجه اليد المغربية الماهرة .. ولم تكن بعد قد تفشت موضة الملابس الافرنجية واحذيتهم المقفلة ..

المهم انني وجدت نفسي فى احد دكاكين الخراز المراكشي الذي كنت ادعوه مولاي ابراهيم ، اعمل بجد ، واتمتع بصداقة الزملاء الجدد الذين وجدت نفسي بينهم وكانني عشت معهم طول حياتي ..

« وذات يوم من ايام الله ، اقبل على السوق جماعة من السواح .. ولم اكن قط قد رايت مثلهم .. فلم يكونوا اوروبيين .. بل من بلاد (اليابان) .. اى ما وراء بلاد الصين وسد ياجوج وماجوج .. فقد كانوا صفر الوجوه من غير مرض ، منحرفي العيون، قصار القامة ، غريبي الكلام حين يتحدثون فيما بينهم . وجاء منهم من قعد معنا فى الدكان يصورنا بالالة السينمائية ونحن عاكفون على العمل ، ويسأل عن المواد التي نستعملها ، ومنهم من يتذوقها بلسانه .. وفى النهاية اشتروا عينات كثيرة من كل ما نصنع ، وذهبوا ..

« ومرت شهور على تلك الزيارة .. وذات يوم راجت اشاعة قوية بين اهل مراكش ، وخصوصا بيننا نحن الصناع ، وهي ان مركبا ضخما قد رسا على ميناء الدار البيضاء يحمل على متنه مئات الآلاف من ازواج البلغة المغربية المصنوعة فى اليابان ، يعرضونها للبيع بأقل من نصف الثمن فى الاسواق المغربية ..

« وفزع الناس .. فقد كان رخاء مراكش ، بل وحياتها كلها مبنية على اكتاف صناعها فاذا انهارت الصناعة زالت مراكش ، وجاع الناس ، وتشتتوا بحثا عن ارزاقهم فى ميادين اخرى لا علم لهم بها ..

« ودار نقباء الصناعات الاخرى على الدكاكين والحوانيت يدعون الناس للتجمع بالجامع الكبير لقراءة اللطيف لدرء هذا الخطر الاصفر المريع .

« واقفل الصناع دكاكينهم ، وتبعهم التجار والباعة ، والخضارون والجزارون والعلماء وحتى المتسولون .. وامتلات ارجاء الجامع الكبير وازدحمت بآلاف البشر ، وارتفعت اصواتهم باللطيف والابتهال والدعاء ، وآيات القرآن ..

« وحين انتهوا من قراءة اللطف وقف فقيه جبلي مسن ، فطلب من الجميع ان يرفعوا اكفهم للسماء ، واخذ يدعو على ياجوج وماجوج الذين يريدون افقار المسلمين بدعوات تقشعر لها الابدان .. واخذ يكرر رافعا يديه ووجهه الى السماء مغمض العينين فى خشوع :

اللهم لا تذر على الارض من الكافرين ديارا .. اللهم انزل عليهم الصواعق ! اللهم ارسل عليهم طيرا

ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فتجعلهم كعصف ماكول ! اللهم احرقهم بنار غضبك ! « ان الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما انما ياكلون فى بطونهم نارا .. ! »

« وكنت انا رافعا يدي هاتين الى السماء ، وقد تشوك لحمي ، ووقف شعري ، وانا اقول « آمين » .

« وخرجنا من المسجد ونحن مطمئنون الى ان الله لا بد مستجيب دعواتنا .. فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .. وكان الفرنسيون قد انزعجوا من هذه المظاهرة الضخمة فارسلوا الجنود والسينغاليين لحصار المسجد .. ولكنهم فكوا الحصار حين راوا ان المظاهرة كانت سليمة ..

« ومرت ايام قلائل على ذلك ، وسمعنا ان باخرة اليابان قد منعت من انزال بضاعتها المزورة بميناء الدار البيضاء ..

« ومرت ايام اخرى ، فسمعنا على امواج الاذاعة الخبر المريع .. خبر سقوط القنبلة الذرية على اليابان واحتراق مئات الآلاف من اليابانيين بالاشعاع الذري الجهنمي .. وذهبت ذلك المساء الى الجامع الاعظم ، فوجدته مزدحما بعدد هائل من الصناع يصلون صلاة الشكر لله على ان استجاب لدعائهم .. جاؤوا من تلقاء انفسهم ، ودون ان يدعوهم احد لذلك .. »

وسكت السي العربي الخليفي لحظة لينظر الى مفعول قصته على وجوهنا ، ثم قال رافعا كفيه لنراهما :

— ومنذ ذلك الحين وانا انظر الى هذين اليدين نظرة اخرى .. فقد عرفت بالتجربة ان فى امكانهما ، لو توفر الايمان ، صنع القنبلة الذرية ، وارسالها الى اعدائنا ، ولو كانوا فى اقصى الارض ..

ويظهر ان القصة كان لها مفعول مهدىء على السي حماد الذي كان قابلا جدا للايحاء .. فاستغرق فى التامل ونسى عصاه وطبعه العدواني ..

وكانت الشمس قد غربت ، ولم يبق من آثارها الا شفق دامي كلوحة هائلة تطبق سائر الافق الغربي.

، واخرجت السي حماد من خدره بقولي :

— اعتقد ان الوقت حان لنلقي بهذه العصا فى البحر ..

وحين لم يمانع طوحت بها نحو الامواج التي كانت تتحرك ببطء ورشاقة ورتابة ازلية ..

وافترقنا ذلك المساء ، وانا موقن من ان (السي حماد) لن يتجرا بعد اليوم على ادانة السي العربي الخليفي ، صانع القنابل ، ومخرب الحضارات.

ولكن حدسي خاب .. ففي تلك الليلة بالذات، وانا خارج من السينما ، وجدت جوقة من المتفرجين، وفى وسطهم السي حماد قابضا على السي العربي الخليفي من الخلف ، مطوقا لذراعيه حتى لا يتحرك ، وهو يعضه من اكتافه وظهره ، والآخر يتلوى ويصيح بصوت واهن :

— الله .! الله .! الله ظهري ! الله اكتافي ! اشهدوا عليه ، آعباد الله . اشهدوا عليه ..

والسي حماد يقول بين العضة والعضة :

— الا تخجل ايها المتأخر من الدعاء على بلد عظيم كاليابان ؟

ويعضه بحنق ثم يعود :

— تبا لك ! لو لم تكن متخلفا لدعوت الله ان يعطيك العقل ، بدل ان تدعوه ليخرب بلدا جميلا كاليابان !

ثم يغرز ذقنه فى ظهره ، وهذا يحاول التملص دون جدوى ..

ووقف شرطي من اهل المدينة يوسع الحلقة ، ويحافظ على النظام ، ويتفرج على المباراة الازلية بين السي العربي الخليفي والسي حماد دون ان يتدخل .. فهما فى نظره ، فوق القانون !

أحمد عبد السلام البقالي

• قصة قصيرة :

نغمة الموسيقار

بقلم الأستاذ محمد أحمد اشماعو

جماعة من الناس على وشك الرحيل ، والفلك على اتم استعداد لبدء الرحلة ... وهنا يقف الفنان على شاطىء البحر ... ان الوقت ليس وقت استلهام الطبيعة ، ولا لحظة تصيد لحن شارد ، وانما هو موقف اقدام على مجاهيل ، مجهول وراء مجهول .

كاد ان يقول للبحارة اصحاب السفينة ، وهو يرى السحب تتلاحق في السماء ، من جهة الغرب الى جهة الشرق ... كاد أن يقول لهم :

— الا يمكن ان تؤجلوا الرحلة ، الى ان يكون الجو اكثر صفاء والبحر اتم هدوءا ؟

ولكنهم كانوا جادين في عملهم ينقلون الامتعة ، ويساعدون المتنقلين من العدوة الجنوبية (المغرب) الى العدوة الشمالية (الاندلس) ، آخذين بأيديهم ، او مساعديهم على تحويل الاثقال او حاملين العاجزين منهم على اكتافهم . وهم في حركاتهم الجدية تلك — والابتسامة مطبوعة على شفاههم — يعمرون القلوب بالثقة وطول الامل . وانطلقت الفلك باسم الله مجراها ومرساها ...

وتجمد كل مسافر حيث هو ، مستسلم للنوم وما هو بنائم ، مستأنسا بترديد البحارة للتبركات المنغمة بجاه النبي ، وجاهرين بأهازيجهم بأصوات قوية رنانة ، متناوبين على ذلك فيما بينهم ، هؤلاء من الامام وأولئك من الخلف ، في نغمة قوية عامرة بالرجولة والاقدام والثبات . وغلبت على الفنان حرفته فوضع النغمة في طبقتها الموسيقية الملائمة ، واخذ يرهف السمع ليدرك معاني الالفاظ ، ولكنه لم يستطع ذلك لان الالفاظ كانت عامية ، وفجاة ، ودفعا للملل غير الهاتفون المتنغمون اهزوجتهم ، ودخلوا في اخرى بنغمة احلى واخف حركة والطف ايقاعا . وعاد الفنان فصنفها من جديد ، مرضيا نزعة متأصلة . لا فكاك له من تحكمها ! وانتظر ان تعلو اصوات المسافرين بالغناء ابتهاجا بالرحلة وتيمنا بها ، ولكنهم احسوا انهم ضعاف كأشد ما يكون الضعف ، أمام جبروت البحر الزاخر وعظمته ، وتوهموا انه من نوع تلك المخلوقات التي تتربص بمن يجابه قوتها ، بالحيلة او بالمهارة والاعتداد بالنفس ، وذلك بأن ترميهم على حين غرة ، وتنزل بهم الضربات القاسية العاتية ... وكأن البحر عرف فيهم هذا الذي اظهروه من الاستسلام والانقياد ، فاكتفى بمعابثة السفينة ، يميلها ذات اليمين وذات اليسار ، ولكنها — مع ذلك — ادارت الرؤوس وازاغت العيون ، وزعزعت الاعماق البعيدة من الافئدة .

قبل أن يركب الفنان هذه السفينة قطع خلال رحلته من الشرق الجبال والوديان والسهول والانهار والمروج والصحاري ، وتحمل فيها ما تحمل ، غير انه لم يتحمل مثل هذا الذي يلاقيه اليوم عند اجتياز البوغاز ، خوفه كان شديدا على افراد أسرته ، ولكنه ينصرف بفكره عن الجميع ، ناسيا مسؤوليته الحالية ،

مفوضا أمره فيها الى الله ، المغيث عند الشدائد .. معلقا نفسه وافكاره فقط بالآتي ، وهو المقبل على خليفة غير خليفته الذي تركه ، وبمملكة غير مملكته التي هجرها ، وبأقوام غير أقوامه الذين الفهم وعرفهم وادرك أساليب معاملتهم . انه مهاجر ، وقادم لتلبية دعوة كريمة سامية ، فالامير (الحكم) حفيد عبد الرحمن الداخل ، استدعاه من القيروان ، وطلب ان يوافيه معجلا — ما استطاع — الى قرطبة عاصمة الامارة الاندلسية الزاهرة .

وصعد المسافر الفنان النظر فى وجوه بعض من هم راكبون معه ، قاصدين الاندلس ، راغبا فى الوقوف على جانب من المجهول الذي هو مقدم عليه ... لاحظ — اولا — ان هناك رصانة ووقارا ، وتحكما فى النظرات والالتفات . فالشيخ من بينهم خفيض البصر ، مشغول اللسان بالتلاوة والذكر والدعاء ، والكهل حريص على افراد اسرته ، يتتبع حركات صغاره وصغيراته ، ويشملهم برعايته ، ومن بين الحين والحين يخفض رأسه متصنتا الى همس السيدة المصون الجالسة بجواره ، ثم يهز راسه موافقا ، او يرد الجواب بصوت لا تسمع منه الا النبرة الخافتة ، دون تمييز لما يقال ، وذلك دليل على الموافقة وحسن المعاشرة ... اما الفتيان والفتيات — لكمال أدبهم — فيرون وهم يلمحون ولا يحدقون ، وان تلاقت النظرات ، وما احلاها من نظرات ، فالوجوه من الجانبين يكسوها الخجل الرقيق . ثم ان الوجوه جميعها عامرة بالصحة والبشر ، اذ الخدود موردة والشفاه حمراء قانية ، والعيون صافية رائعة فى احورارها أو زرقتها ... واللباس ، ولو انه لباس السفر ، نظيف ، حسن التفصيل ، غامق اللون .

وانقشع السحاب شيئا فشيئا فبرزت الشمس دافئة ، شأنها دائما فى أواخر أيام الربيع ، واستسلم الموج مستعذبا دفئها ، متلذذا ميالا للسكون ... وأهاج سكونه عواطف البحارة فانطلقوا يغنون ، وهي اول مرة يسمع فيها الموسيقي المشرقي الالحان العربية المغربية ، الا انه لم يستطع ادراك معاني الالفاظ . فهم فقط ، وعلى وجه الاجمال ان الترنم انما هو اذكار وتسبيحات للاله الكريم . ومن غير هؤلاء البحارة يدرك عظمة الاله ، وهم وسط البحر دائما ، بين الماء والسماء ؟ !

لاحت من بعيد شواطىء الاراضي الاندلسية فتحرك المسافرون ، وتطلعوا ، وان لم يقدروا على الوقوف ولا على الحركة ، فانتظروا الوصول انتظارا غير قصير . وككل قادم على المجهول ، تطلع (أبو حازم زرياب) الى هناك ، وتمنى بشدة ان يرى الديار والاقوام وانواع الحياة كلها ، حينا ودفعة واحدة ، ليرى كل شيء امام عينيه ، وبذلك يتمكن من ان يقف وقفة عاجلة على الاحوال ، فيدخل — عندئذ — دخول الرغبة والشوق والحنين والمودة ، او يقفل راجعا من حيث أتى فيريح ويستريح ، لكن الظاهر من الاراضي لم يكن الا وهادا وتلالا وسهولا الهبتها اشعة الشمس ، شمس مايو الساخنة ، وبذلك ذهبت بالكثير من خضرتها ... ومن بين التلال برزت مدينة بيضاء المباني ، غير واسعة العمران ، قال عنها مرافقون : انها اولى ديار الاندلس ، انها ارض (الجزيرة الخضراء) .

نزلوا جميعا ، فاذا بموكب عامر يتقدمه سيد مهيب الطلعة ، يسأل عن مسافر قادم من الشرق ، يسمى السيد (زرياب علي بن نافع) موسيقار الشرق الشهير ...

تناهى الى سمع الفنان هتاف هذا المتحدث باسمه ، فاستبشر ايما استبشار ، ان الرجل هو حاكم البلدة ، وقد جاء مرحبا باسم الامير (عبد الرحمن بن الحكم) . وادرك العامل ان القادم استغرب من تبدل الاسم ، ولذلك بادر واعلمه أن الامير (الحكم) ، الذي سبق ان أرسل فى طلبه ، قد انتقل الى رحمة الله فى الايام الاخيرة ، وانه جاء اليوم يستقبله باسم الامير الجديد (عبد الرحمن) .

وتوهم الفنان الرهيف الشعور الرقيق الاحساس ان قدومه ربما يعتبر شؤما ، ومرة اخرى تفطن الحاكم ، وشرع يدخل الاطمئنان فى نفس الرجل ، فجدد الترحيب ، وطلب منه ملحا ان يشد الرحال فورا الى (قرطبة) ، واعلمه أيضا ان عمال الامير سيكونون فى انتظاره ، عند مدخل كل مدينة يمر بها .

اية بشارة يا رب ! ايكون فى الدنيا اقوام يكرمون الضيف بهذه الحرارة ، ويرفعون من قيمة الغريب قبل ان يعرفوه أو يختبروه ... هل الموسيقى والادب والذوق الاجتماعي ، كل هذه الاشياء تعطي قيمة ومكانة عند خليفة من اعظم خلفاء الاسلام ، فيما

وراء البحار والصحاري والبراري ؟ ان الامر لكذلك !

ومضى (زرياب علي بن نافع) ينزل عدة مدن وعدة قرى ، وينعم بصداقة عمال الامير وحسن استقبالهم وجميل رعايتهم ، انه ولو لم يكن قاصدا (قرطبة) لنزل (اشبيلية) نهائيا . لقد وجد فيها بغيته ، وهو الفنان الموسيقار الاديب ، الذي تجمعت له خبرات واسعة ... وجد فيها خيرة الادباء ، وخيرة الموسيقيين وخيرة الاديبات وخيرة الموسيقيات ... انصتوا له بشغف ، وتوجهوا بكل جوارحهم وهو يحدثهم عن الادباء والاديبات ببلاد الشرق ، واخذوا عنه من محفوظاته التي نقلها نقل الحضور ... واخيرا ويا للبراعة ، هزهم بجميل الالحان وجميل العزف .

وانتهت جلسة الادب وأدوار الغناء ، وبقي في نفوسهم الكثير من حذاقة (زرياب) واناقته وشخصيته العجيبة النادرة ... انه لولا احترام مكين للامير بقرطبة لما سلموا مطلقا في ضيفهم المحبوب ، ولو قامت من أجل ذلك حرب بين قرطبة واشبيلية ! لكن اللبق لم ينس لباقته : لقد وعدهم صادقا بانه سياتي مدينتهم الساحرة بين الحين والحين ، مرتين او ثلاثا في السنة ، فمدينة اشبيلية الفيحاء تشد اليها المقيمين الى الابد ، لما وهبها الله من هواء سعيد وعيش باذخ وهدوء وسلام ... واولى من هذا واحسن ، الجمال ، الجمال الذي كاد يكون خاصية من خاصيات اهل اشبيلية ، كلهم موصوفون بالجمال ولطائف الخلال !

وكان يوم الرحيل عن اشبيلية يوما مؤثرا ، ولو ان الوداع الى لقاء غير بعيد .

وسار الركب مسافات بعيدة ، مصحوبا بخيرة من الرجال ، وعند نقطة معينة تجدد الوداع ، ثم امعن الركب في السير جادا نحو قرطبة ، وكانت الطريق غير صعبة ، فلأن اشبيلية ابت الا ان تمدد اكتافها ومجالي محاسنها ومناظرها الى ابعد المسافات ، وهكذا لم تغب عن انظار المسافرين مناظر الجمال الا بعد قطع عدة فراسخ .

وبعد سفر منهك تراءت معالم قرطبة : صوامعها وقبابها وأسوارها وابوابها ومبانيها ، كما تراءى للقادمين عند أرباض المدينة افواج من الناس ينتظرون ، لقد سبق أصحاب البريد بالخبر الى عاصمة قرطبة .

اهتز (علي زرياب) طربا وفخرا وهو يرى كل هذا الاحتفال بقدومه ، أي تقدير يعلو هذا التقدير يا الهي ! ؟ ان الامير نفسه موجود في الانتظار !!

وهكذا بخطوات وئيدة تقدم الفنان باحترام الى خباء الامير الجليل ، وتقدم الى مجلسه الكريم ومال عليه مسلما ، ولم يشعر الا والامير يضمه الى صدره، ويتركه يقبل أكتافه وجبينه ، ويقول له امام الحاضرين :

— « يا علي ، يا ضيفنا العزيز ، هذه ارضك فيها مقامك انت وذريتك ما دام بنو امية جالسين على عرش الاندلس ، ثق انك ستكون معززا مكرما ، فلن تحتاج ولن تتعسر ... حاجبي الخاص سيخبرك بمخصصاتي الشخصية ، ومخصصات صندوق الدولة لكم جميعا لتعيشوا مطمئنين ، ستجد عندنا ان شاء الله ما لم تجده عند غيرنا ... وانت أهل لكل تكريم !

شد الضيف المكرم على يد الامير ، مصرا على ان يضع قبلة حارة صادقة على يده ، واغتنمها الامير فرصة فاسر له ، بعد ان اجلسه بين يديه :

— « انت تعلم يا علي ان جدي عبد الرحمن الداخل ارسى ملك بني امية في هذه الديار ، ومحا الاستبداد والطغيان والتمرد ... وتابع والدي رسالته من بعده ، وقد كانت سنوات حكمه الطويلة كافية لاستقرار الاحوال ... وآن الاوان للاندلس سيدة البلدان ان تتطور وتزدهر ، وتصبح مقرا للعلوم والفنون والصناعات ومبتكرات الذوق السامي. وانت الذي بلغني ما بلغني من رقة احساسك ورقافة ذوقك ومنتهى براعتك وحذاقتك — اعتبرك فيما عن شؤون الفن والتحضر الاجتماعي ، كلنا سنعمل برايك، وانت مطلق الحرية في التصرف ، لن تعاكس ، ولن تجادل ، ولن تضايق ابدا ... ثم انني لن ابخل عليك بتشجيعي وتاييدي لك ، ولو تطلب ذلك مني ما تطلب، والله شهيد !

وهنا خفض الموسيقار راسه طاعة وتاييدا ، معبرا عن حسن الاستعداد . وقال :

— كرمكم الزائد — يا مولاي — اخرس لساني، واذهب حسن بياني ، ولكني ساكون عند حسن ظنكم، فترقبوا الاسابيع والشهور المقبلة ، ان انعم الله علي بالصحة والعافية ، وأمتعني دائما بظلكم الوارف السعيد .

واقامت محافل (قرطبة) الزاهرة الموسيقية حفلات استقبال للموسيقار الشرقي الشهير ، تلميذ ابراهيم واسحق آل الموصلي . وراع الحاضرين والمشاركين فى الحفل من اهل الادب والفن ان القادم الجديد خرج عليهم بزي فريد : لباس ابيض ناصع ، يتلاءم وحرارة الصيف الوافد ، ووجدوا شعره السبط قد رجل ، وسوى على الجهة اليمنى من الراس ، وانه قد تطيب بطيب نادر ، حضر عبيره بنفسه ، وذلك ما تنتعش به النفوس وتطيب ، كما ان اللحية كانت مرجلة باناقة ، والاسنان لامعة صقيلة من شدة الاعتناء والمعالجة بمختلف المعاجين التي يهيئها الرجل بيديه ، وكلما لوح بيده اليسرى الا وخطف الابصار بريق اللؤلؤة النادرة التي جعل منها فصا لخاتمه الفضي الصقيل ، وهكذا اقبل عليهم رصينا رزينا ، قريبا لا مجافيا ، متوددا لا متعاليا ، وقابل الترحاب برائع الابتسام ، ورد بصادق التشكرات على المدائح التي اجزيت له .

طاب الجلوس ، وعندئذ اسمعوه وهو الشاعر من اشعارهم ، وشنفوا سمعه وهو الموسيقار من الحانهم، وفى كل الاحوال كان يبدي اعجابه ، ويبرز مواطن الجمال والروعة بالاشادة والتنويه .

وردا على الهدية النفيسة بمثلها اخرج من جيبه بكامل الاناة قطعة من رق الغزلان ، والقى ما اثبت عليها من اشعار ... واخيرا تناول عوده الخاص ، النادر فى صناعته ونقوشه والذي هو ايضا من صنع يده ، وشرع يعزف ويلون فى عزفه ، مستعملا الوتر الخامس الذي هو مبتكراته ، فاهتز القوم طربا وتجاوب البهو الفخم مع العزف البديع ، واسمعهم من الالحان ما امتعهم وادهشهم ، اسمعهم الحانه الخاصة والحان اساتذته آل الموصلي ... وبذلك هفت كل القلوب ، واهتزت كل الضلوع ، ودمعت العيون واطلقت الآهات ... لقد ملك على القوم اعجابهم ، وامعانا فى امتلاك هذا الاعجاب نادى على جاريته الفارسية كما استدعى ابنتيه ، فغنين وعزفن ، وبذلك اعطى للفن الموسيقي قيمة ومكانة ووقارا .

وبينما الفنان فى هذا الوسط الكريم من المحبين والمعجبين اذا برسول خاص من الامير يحضر ، ويطلب من الموسيقار الحاذق (زرياب) الى ان يستجيب لدعوة الامير ، فى جلسة انفرادية . وهنا ، قام واختلى بنفسه من حيث اغتسل وتعطر ورجل شعره الترجيلية (الزريابية) ، وارتدى من الملابس الجميل الانيق ... وامتطى البغلة المسرجة وانطلق الى القصر الاميري ، تحف به المهابة والتكريم .

ولا يدري احد ما دار فى تلك الجلسة من اسرار ، ولعل السر الخفي هو ان الامير الاموي طلب تفاصيل عن حياة الخلفاء العباسيين : الهادي والمهدي والرشيد الذين خدمهم الفنان (علي) عن قرب ، واطلع بتعمق على احوالهم ... ان عبد الرحمن الاوسط الامير الاندلسي لم يعد يقيم وزنا للعداوات السابقة ، فأحقاد الاجداد ذهبت بذهاب الاجداد ، ولم يبق لها سوى اثر ضعيف فى النفوس ، ولا فائدة من تجديد ذكر المنغصات ، المهم ان يعرف اهل المغرب كيف هي احوال اهل المشرق : كيف بلاط الرشيد حاليا ؟ كيف تنظيماته ؟ كيف هي احوال رعيته ؟ ما ذا ينقص بلاط قرطبة عن بلاط بغداد ؟ وماذا تزيد قصور هذه الامارة على قصور تلك الخلافة ؟ كم عدد الشعراء الواقفين بباب الخليفة العباسي فى كل مناسبة ؟ كم عدد الموسيقيين الساهرين مع الخليفة كل ليلة ؟

... ... صرح القادم الجديد ، ولم يكتم اي شيء وهو الخبير المطلع من كل الخفايا التي يعرفها ... استفاد عبد الرحمن وسر بما سمع ، وجعل سهرته مع ضيفه سهرة اخوية ، من حيث تكاشفا فيها بصفاء .

وطلع النهار واضحى ، وعندئذ جاء عامل المدينة، مدينة قرطبة ، بامر من الامير ، وصحب الفنان فى جولة عبر العصمة ، حول معالمها وآثارها وقصورها ورياضها ودروبها ، بقصد ايقافه على الحالة كما هي وعن قرب ... كان الزائر يتفرج ، وينصت — فى نفس الوقت — الى شروح العرفاء ، ولا يخفي اعجابه بكل جميل ، او ما هو على وجه التقريب جميل ، وذلك كان يرفع من ثقة مرافقه بأنفسهم ، ويبعث الاطمئنان فى ضمائرهم بما انجزوه من اعمال ومنجزات ، والحق ان المسجد القرطبي الاعظم سلب لب الخبير الفنان الاريب ... لقد هزه اقبال الناس على حلقات الدروس العامرة ، الحافلة بالمناقشات الحية المهذبة ، كما هزه اهتمام كل طبقات المجتمع بطلب العلم ... اعجب بهذا وسر به. اما مقترحاته فقد ابقاها فى داخليته ، ليقدمها فى الوقت المناسب الى المسؤولين الاندلسيين

المختصين ، دون ادعاء ولا ترفع ولا تعالم .

زادت هذه الزيارة وتصرفات الفنان اثناءها ولباقته وحذقه وفطنته فى مقامه ، وصار حديثه على كل لسان ... وهكذا وثق الرجل بالدنيا مجددا ، واطمان نفسيا الى الناس ، وتيقن ان الحياة ستسعده بعد شقاء ، وستسالمه بعد معاكسة ، وانه من الآن يمكنه ان يخصص من اوقاته لفنه الموسيقي ، ليبدع فيه ويتفنن ، ويوجد فى تراثه ما يبقى خالدا على مر الازمان والدهور .

وفعلا تحققت الاماني وكانت لحظات للتجلي والالهام ، عند السحر والفجر والشروق ، وعند الضحى والزوال ، وعند الاصيل والغروب والشفق ، وفى هداة الليل الشاملة ... لا شغل له الا مداعبة الاوتار واحتضان العود بحنان ، وحك الرباب ، والانصات الى دق جنبات الدفوف ، والتلذذ بكل ذلك والتنغم به والتملي معه ، ثم الغيبوبة عن كل احساس بالوجود ... وكانت النتيجة الباهرة ابتداع الحان شجية ، بعضها خاص بأوقات من النهار ، وبعضها خاص بأوقات من الليل ، وفق الطبائع والخوالج والميول والاستجابات والانسجامات مع النفس والناس والاحوال والطقس ومشاهد الكون المتبدلة فى كل وقت وحين .

ذاعت الحان (زرياب) وشاعت ، وتناقلها المولعون بفن الغناء تادية واستماعا ، حتى ان الامير لم يعد يسلو الا بجلسات المطرب المتفنن (زرياب) يتسجم معها ، ويطرب لها ، ويهتز وينفعل بها .

ذات مساء اختفى (زرياب) وبقي مكانه شاغرا فى مجلس الامير والتفتت الانظار لهذا الغياب ، وتبودل الهمس ، ولم يكتم الامير تساءله عن سبب غياب الفنان الاثير اديه ولدى الجميع ، غير ان احدا لم يكن عنده جواب ... وبادر فبعث الرسل من اتباعه الى مسكن الفنان (زرياب) .

وجدوا — وللعجب لما وجدوا — الموسيقار منحرف المزاج ، مكدر الخاطر هائج النفس ، حتى ان لونه الاسمر مال للصفرة ، والشفة السفلى ترتعش لا تكاد تفصح ، ان الضمير المعذب كان يحبسها عن القول :

« لقد سدت منافذ الامل فى العيش الهنيء ، رغم ان الحادثة ليست خطيرة ، » انها تنبيء عن عيش قد يضطرب بين يوم وآخر ، ان الحقد الصغير قد يصبح بعد فترة طويلة او قصيرة حقدا كبيرا ، وعندئذ تتعسر الحياة وتتعقد امورها ، ويكسوها الظلام شيئا فشيئا ، الى ان تصير شبيهة بالمقام فى كهف سحيق الاغوار شديد الظلمات ! والفنان ما هرب من (بغداد) الا بسبب الحقد ، وما هجر (القيروان) الا تنصلا من الحقد ... فهل كتب عليه ان يلاحقه الحقد حتى فى (قرطبة) الفيحاء ، مقر الامارة الوارف ، حيث الامير يشمله بالرعاية التامة ؟ !

ورغم تمنع الفنان زرياب ، فقد حمل حملا الى مجلس الامير الجليل ، ولكن فى أسوا حال . هذه الغضبة الشديدة ، التي لم تزعج الفنان وحده ، وكتم سره رغم الحاح الامير فى أن يعرف سبب وانما اقلقت خواطر كل المعجبين والمحبين والانصار . ولما أصر الامير على ان يعرف رفع (زرياب) الجريح الفؤاد بصره الى سيد قرطبة وقال :

— السبب هو هذا يا سيدي الامير ، انه شاعركم المقرب (يحيى الغزال) . ليت قلبه نقي لامع وجميل مثل وجهه !

اهتز الشاعر يحيى الغزال وعلاه الاصفرار . لقد علم ان سموم لسانه اللاذع قد ذاعت ، حتى وصلت الى الفنان الرقيق الشعور ... وتدخل ليكذب الفنان الغضبان (ابا حازم زرياب) ... غير ان الفنان سبقه الى القول وقال :

— اسمعوا — يا مولاي — هذه الابيات التي قالها فى حقي واحكموا ، وحكمكم الاعلى والاسمى :

سألت فى النوم ابى آدما
فقلت : والقلب به وامق

ابنك — بالله — ابو حازم ؟
صلى عليك الاله الخالق

فقال : ان كان مني ومن
نسلي، فحوا — أمكم — طالق !

اطرق الشاعر الغزال ساكتا ، وما زال مشوبا باصفرار ، واخذ يلتفت حواليه ، كانه يبحث عن مخبا او عن مهرب له ... وكان ذلك اعترافا منه بغيبته الشنيعة .

وتكلم الامير ، وقد صوب نظرات صارمة الى المتهم بطول لسانه ، وقال :

— يا يحيى ، أانت الذي قلت هذا في حق القادم الكريم علينا ؟

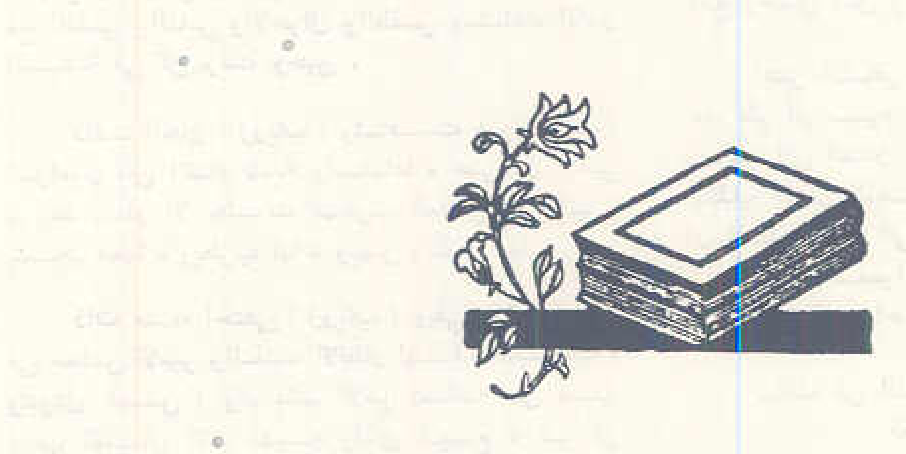
سكت (يحيى الغزال) وعرق الخجل يتصبب منه ، بينما ابو حازم (زرياب) متألما من اجل كرامته .

وهنا أصدر الامير أمره الخطير :

— يحيى ، من الآن عليك ان تغادر قرطبة ، وامنعك من الرجوع اليها ، قم عن مجلسي يا قليل المروءة ، يا منتهك اعراض اصفيائي ، يا خبيث اللسان ، قم عني لا ردك الله ... هيا يا حراس خذوا هذا الوقوح ، من الآن ، ودون أن تسمحوا له بان يعرج على أي مكان ، وضعوه خارج أسوار البلاد ... لا أريد أن أرى وجهه .

وهنا ، تنفس الموسيقار تنفسا عميقا ، ورجع الهدوء شاملا الى انحاء نفسه ، وتبخرت غضبته الكبرى ، وعادت البسمة الساطعة الى الشفتين ، وافترت عن الاسنان الساطعة ، وانطلق اللسان يرتل آيات الحمد والشكر .

محمد بن احمد اشماعو



الإسلام يرفض الشيوعية

تأليف : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

عرض وتقديم : الأستاذ بكر موسى
كلية اللغة العربية - اسيوط . مصر .

فى الوقت الذى تطل فيه الشيوعية بوجهها الكالح على الصومال المسلم ، وتكشر عن أنيابها المتوحشة فى أندونسيا المسلمة ، وتنفث سموم أحقادها بين البلاد العربية تفرق وتمزق ، وتدمر بأعاصيرها الهوج منجزات الكفاح المرير ، وتحاول أن تطوى الوية رفعها الحق ، ورايات أرستها القيم حتى تلحقها باخواتها فيما وراء النهر وبخارى وسمرقند والقوقاز والصرب والبانيا وغيرها من بلاد الاسلام الشاسعة التى اكلتها نار الشيوعية فى زحفها الاحمر . . ! !

فى هذا الوقت العصيب يطلع علينا الاستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى بكتابه الجديد « الاسلام يرفض الشيوعية » ليكون شجى فى حلوق الماديين ، وقذى فى عيون الملحدين ، ويكشف عن زيف الماركسية ، ويجردها من الدعايات التى تحيط بها ، لتظهر على حقيقتها ، وقد اسقط الدكتور المؤلف اقنعتها ، واذا بها « سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » .

وفى الوقت الذى ينقض فيه المؤلف بنيان الشيوعية القائم على الرمال يوضح عظمة المبادىء الاسلامية ، فيعطى البديل لطلاب الحلول الجذرية ويؤكد بالدليل القاطع صلاحية الاسلام لمختلف الازمنة والامكنة . فجاء كتابه على قدر ، ملأ فراغا ، وارسى عقيدة ، ورد سهاما طائشة ، واجاب عن استفسارات عديدة ، ولبى مطالب الجماهير المسلمة التى تتلفت يمنة ويسرة باحثة عن الحق تدمغ به الباطل وعن النور تقشع به الظلمات وعن الكلمة المخلصة تسكت بها المـراء والريـاء ، وتخرس الدعاوى الجوفاء .

وللدكتور المؤلف منهج واضح فى عرض موضوعات الكتاب اشار الى بعض ملامحه فى فاتحة الكتاب قائلا « لا يمكن لباحث منصف ان يوازن بين مبادىء الاسلام والشيوعية ، بين شريعة الهية ونظم وضعية بين اصلاح خالص وثورة متطرفة ، ومع ذلك فسنحاول البحث وشرح موقف الاسلام من هذه المبادىء الوافدة ، وبيان رايه فى جميع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، ونفصل منهجه فى الاصلاح » ... الى أن قال فضيلته : « ومن البديهى اننا هنا حين نتحدث عن الاسلام ننظر الى مبادئه نفسها ، بصرف النظر عن مدى تطبيقها اليوم فى العالم الاسلامى وعلى هذا المنهج نسير الآن فى البحث والموازنة » .

والدارس للكتاب يجده يمتاز بالايجاز والتركيز، فصفحاته التى لم تتجاوز المائة الا قليلا اثارت عديدا من الموضوعات ، وناقشت قضايا كثيرة من اهمها :

الحضارة بين المادية والروحية ، المادية حرب على الاديان ، الحرية الدينية ، والسلام الاجتماعى ، والسلام العالمى فى الاسلام والشيوعية، السر فى قيام الاسلام ودور مبادئه فى انتشاره ، الديمقراطية وحقوق الانسان ، والحرية والاخاء والمساواة ، والفوارق بين الاشتراكية والشيوعية ، والتكافل الاجتماعى ومحاربته للفقر ، وحاجة الانسان للدين ، وموقف الاسلام من الاسرة ورعايته المراة ، والاسرة والمراة فى المجتمع الشيوعى ...

ومع الايجاز والتركيز فى عرض أبواب الكتاب نشهد الدراسة الموضوعية فى أسلوب علمى تقوم — فى نظرى — على الاسس الآتية :

— 1 —

عرض الموضوع من وجهة النظر الشيوعية عرضا محايدا ، وتدعيم الفكرة بأقوال الزعماء الماركسيين مثل انجلز ، وكارل ماركس ولينين وستالين وغيرهم .. فحينما يتحدث عن الحضارة بين المادية والروحية يقول « للشيوعية رأيها في أسس الحياة والوجود والحضارة يتجمع في فلسفة مادية عجيبة ، لا تؤمن بالمثل ولا بالروحيات والمعنويات فهى ترى أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق الفكر مستقلة عنه ، والمادة أولا ثم يتلوها العقل » ... يقول انجلز « ان العالم المادى الذى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه هو الحقيقة الوحيدة وليست المادة من انتاج العقل بل ان العقل ما هو الا اسمى انتاج المادة » .

— 2 —

طرح وجهة النظر الاسلامية ، والتدليل على صحتها بالكتاب والسنة واقوال الفقهاء والعلماء والفلاسفة من المسلمين وغيرهم . نترى فضيلة المؤلف بعد ان بين وجهة نظر البلاشفة في الدين يقول « والاسلام يدعو الى الدين والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والثقة بالمثل العليا والاعتزاز بالفضائل الانسانية وبالقيم الروحية ، واساس الحياة عنده هى الروح والمادة تبع لها ، والروح هى التى ناجت الله فى الازل وعاهدته على الايمان كما يقرره القرآن الكريم ... والاسلام يدعو الى بناء الحياة على الروح « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وفى صفحة 18 يذكر اقوالا مأثورة عن ماركس وهوبز وانجلز ، ويرد عليها فى صفحة 19 بآثار عن تولستوى وشوبنهور وكريس موريسون والدكتور راين ويختم الفصل بقول الله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد » .

— 3 —

بيان ما فى الفكر الشيوعى من خطر داهم يهدد البشرية ، والاستدلال على ذلك من واقع المجتمعات التى اوقعها سوء حظها فى حبائل البلشفة فالماركسية « مذهب يصطنع العداء بين الناس ويعتمد على التفاوت بين الطبقات ليثير الحقد والبغضاء فى نفوس بنى البشر ، وليقول لهذا أنت غنى ، ولذاك انت فقير والغنى شر ، والفقر موت ، وليدفع الفقير الى أن يقاتل بالسيف اخاه الغنى ليستحوز على ماله وثروته يدلك على ذلك التاريخ ... أن الشيوعية لم تكن لتقوم لها قائمة فى بلادها لولا هذه المجازر الهائلة وعدد الضحايا الضخمة ، ولولا سجون الاعتقال والنفى الى مجاهل سيبريا ، والبطش بخصومها فى الرأى ، والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة ثم لولا الدعاية والاموال الضخمة التى تبذل لنشرها » .

وفى الحديث عن الحرية وموقف الماركسية منها يقول الدكتور الخفاجى « الشيوعية تلغى حرية الانسان فهى لكى تطعم الفرد تسلبه حريته ، وحرية الفكر معدومة فالناس يفكرون على النمط الذى يعجب الحزب الشيوعى ... والحرية السياسية مفقودة اذ ليس هناك الا حزب واحد ، وحاكم واحد ، وانتخابات صورية لا تنافس فيها !! والحرية الدينية معطلة ، والحرية الاقتصادية لا وجود لها ... ومرافق الثروة ملك للدولة والفرد أجير عندها نظير اطعامه .. والحرية الشخصية محجور عليها لان الحزب الشيوعى مهيمن على حريات الناس ، وسلطان البوليس السرى لا حد له ... والرحلة خارج البلاد ممنوعة » « والشيوعية لا تؤمن بشىء اسمه الحق » كما يقول اندريه جيد

— 4 —

الكشف عن حقائق الاسلام ، وسمو قيمه ، وعدالة احكامه مع ضرب الامثلة من تاريخ المسلمين ، تجد ذلك منثورا فى صفحات الكتاب وبخاصة فى الحديث عن الحرية والاخاء والمساواة « أن الاسلام ليحمى حق الانسان فى الحياة والحرية والعدالة والانصاف والمساواة والامن وحقه فى التعليم وحقه فى الحكم الدستورى وفى كل جانب عادل من جوانب الحياة ... والعدالة تطبيق على الجميع بلا محسوبية ولا استثناء ... والغى الاسلام الامتيازات الفردية والطائفية ومحى ما بين الطبقات من الفروق والحقوق والواجبات » .

ويذكر الدكتور المؤلف قصة لها مدلولها الخلقى واهميتها القضائية يقول : « لما ولى عمر بن عبد

العزيز الخلافة قدم مصرى عليه يطالبه برد أرضه التى أخذها ابوه منه ظلما فى حلوان فقال عمر : تعال نحتكم الى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما انزل الله ... وتكلم الخليفة بحجته ... وتكلم المصرى فقضى القاضى للمصرى على الخليفة ... فقال عمر بن عبد العزيز قد انفقنا عليها الف الف درهم . فقال القاضى : لقد اكلتم من غلتها بقدر هذا ، فاطمانت نفس عمر وقال : وهل القضاء الا هذا ، والله لو قضيت لى ما وليت لى عملا » « ان الاسلام لا يبيح اثراء افراد بافتقار امة ، ولا اسراف طائفة فى التملك باشقاء مجتمع بأسره ، بل يجيز الحجر على الاقوياء حتى لا يسرفوا فى تملك الارض » .

— 5 —

الموازنة العادلة بين شريعة الاسلام وآراء البشر سواء اكانوا شيوعيين أم غير شيوعيين فحينما تحدث عن الاسرة فى ظل النظام الماركسى بين الوحدة السحيقة التى ترددت فيها والشقاء الذى لحق بالمرأة والتشرد الذى اذبل زهرة الطفولة بينما نرى الاسلام « دعم الاسرة واعتبرها الوحدة الاجتماعية الاولى فى الامة وربطها برباط مقدس شريف وبعث فيها الحب والتعاون والمودة والاخلاص ... فاذا وجد للاسرة بنون او بنات فعلى الزوجين تعهدهم ورعايتهم وتأديبهم ... ونهى الاسلام عن الوصية لوارث ... ، كما نهى عن الوصية لغير الوارث باكثر من الثلث وذلك لينتفع اكبر عدد من الاقارب بالميراث ، ولتتوزع الثروات الكبيرة فتقل الفروق الاجتماعية بين الناس ، فاين هذا من تشريعات اوربا التى تجيز ان تنقل ثروة الميت الى الابن الاكبر وحده ، ويترك اخوات هذا الابن عالة على المجتمع .. وتجيز للرجل ان يوصى بماله كيفما شاء ولمن شاء » .

— 6 —

ومن ابرز ملامح منهج المؤلف الحكم الشجاع والقول الفصل فيما يعرض من قضايا فهو يقول فى الحديث عن الآراء الالحادية « والذين يؤمنون بمثل هذه المبادىء هم فى راى الاسلام مرتدون ، ويقاتلون حتى يفيئوا الى دين الله ، لانهم يعملون على مسخ الفطرة الانسانية ومحاربة فكرة التقدم والحضارة ويهدمون الاسس التى بنتها البشرية على مر الاجيال منارا رفيعا للفكر والمدنية » . وفى التكافل الاجتماعى يقول « اننا نطالب الحكومة ان تفرض الزكاة فرضا ، وان تجمعها من الاغنياء بقوة القانون ، وان تصرفها فى مصارفها التى امر الله بها ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فالزكاة ركن كبير من اركان الاسلام وفيه علاج حاسم لامراض المجتمع ، وتقريب كبير بين طبقات الامة ، وتعاون مثمر بين الاغنياء والفقراء ، ورفع لمستوى الامة الاجتماعى ، ودواء لاهم مشكلة من مشاكلنا العامة الا وهى الفقر » .

ويطارد الفكر الماركسى ويكشف زيفه فيقول « الشيوعية تحارب حرية الانسان بافناء شخصيته فى شخصية الدولة ، وجعله آلة مسخرة للحكومة مما يستدعى اشاعة الاضطراب الاجتماعى ، وقيام الحروب والخصومات بين الطبقات والطوائف والقضاء على الامن الداخلى للامة » ثم يعقب قائلا : « وكل هذه الامور يحرمها الاسلام ، ويحاربها بكل ما يستطيع » .

* * *

ويؤكد الدكتور الخفاجى فى ثقة المؤمن بان المستقبل للاسلام وهو الذى ستتحطم على صخرته امواج الشيوعية لان مبادئه هى السد المنيع امام تيارات الماركسية العاتية ، هذا مع اسلوب سلس ، وفكر واضح ، واعتماد على الحقائق ، وغيرة ازهرية لها خلفية مؤمنة ، وروح اسلامية تفيض من قلم المؤلف فتنساب الى القلوب بردا وسلاما ، وتنطلق بها الالسنة دعوات خالصة له ليظل درعا الحق وحصنا للقيم ، وداعية الى الخير..

ومهما اسهبنا فى العرض ، وضربنا الامثلة ، فلن يغنى شىء عن قراءة الكتاب قراءة واعية ، بل دراسته دراسة متأنية .

الوجادات (723 - 734)

للأستاذ عبد القادر زمامة

723 — مستديـرة . وسائـرة ... !

وجدت فى المقالة الثانية من كتاب « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » الذي الفه رفاعة الطهطاوي (1801 م — 1873 م)

« وممن قال من علمـاء المغـرب بأن الارض مستديرة وانها سائرة . العلامة الشيـخ مختـار الكنتاوي بأرض ازوات بقرب بلاد تمبكتو .. !! وهو مؤلف مختصر فى فقه مالك . ضاهى به متن خليل . وضاهى ايضا الفية ابن مالك فى النحو . وله غيـر ذلك من المصنفات فى العلوم الظاهرية والباطنيـة كأوراد واحزاب كحزب الشاذلي . وقد الف كتابـا وسماه النزهة جمع فيه جملة علوم فذكر بالمناسبة علم الهيئة . فتكلم على كروية الارض . وعلى سيرها ووضح ذلك . فتلخص من كلامه أن الارض كـرة . ولا يضر اعتقاد تحركها او سكونها .. ! مات هـذا الشيخ سنة الف ومائتين وست وعشرين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم وخلفه حفيده المسمى باسمه .. ! »

724 — الشيـخ الكنتـي ...

وجدت فى كتاب « جامع كرامات الاوليـاء » ج 2 ص 247

« الشيخ المختار بن احمد بن ابي بكر الكنتي القادري . من ذرية عقبة بن نافع ...

والكنتي نسبة الى كنت . اسم أرض من أقصى بـلاد الصحـراء ....

ولد سنة 1142 هـ وتوفي سنة 1226 هـ » .

725 — صنعـة العلـم كاسـدة ... !

وجدت فى كتاب نزهة الحادي عند الكلام على سيرة المنصور الذهبي :

« ... وقد وفد عليه مرة (القاضـي عبـد الواحد الحميدي) مع بعض الطلبة فى بعض المواسم . فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأربـاب الموسيقى واصحاب الاغاني من أهل فاس وقد كانوا وفدوا ايضا معهم على سبيل العادة . فأخرج بعضهم شبابة من الابريز مرصعة . اعطاها له المنصور .. ! وبعضهم قال : اعطاني كذا .. ! وقال الآخر : اجازني بكذا ... !! مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته مـن الطلبـة ... !! فقال القاضي :

ــ ان بلغت فاسا لاردن أولادي لصنعة الموسيقى .. ! فان صنعة العلم كاسدة .. ! ولولا ان الموسيقى هو العلم العزيز ما رجعنا مخففين .. ! ورجع الآلي بشبابة الابريز ... !!! »

776 ــ حروف الكيمياء ... !

وجدت فى (نزهة الحادي) ط. حجرية . ص. 43

« ... فان الذي ينقل عن الشيخ سيدي احمد ابن موسى ان رجلا جاءه وطلب منه ان يعلمه صنعة الكيمياء .. ! فقال له الشيخ :

ــ حروف الكيمياء خمسة ... !

هي عدد أصابع اليد ... !

فان أردتها يا اخي ، فعليك بالحراثة ... والفلاحة ... فتلك كيمياء الناس ... لا كيمياء النحاس والرصاص ... ! »

727 ــ العالم النحرير على النجارين ... !

وجدت فى (نزهة الحادي) ط. حجرية ص22 اثناء كلام حول المد النبوي . وما كان يصنعه منه النجارون فى مدينة فاس ...

« وقد جعلوا العالم النحرير على النجارين فلا يبيعون صاعا ولا مدا حتى ينزل طابعه فيه بعد امتحانه ... !! »

728 ــ النظام شاعر اندلسي ... !

وجدت فى القاموس المحيط للفيروزاباذي فى مادة « نظم »

« وكشداد . لقب ابراهيم بن سيار المتكلم ... ومحمد بن عبد الجبار الشاعر الاندلسي .. !! »

729 ــ البلينة شاعر اندلسي .. !

وجدت فى كتاب (جذوة المقتبس) للحميدي ترجمة لشاعر المنصور بن ابي عامر المسمى :

« سعيد بن عثمان بن مروان القرشي المعروف بالبلينة ... !!! »

730 ــ تيس الجن . شاعر اندلسي .. !

وجدت فى كتاب (جذوة المقتبس) للحميدي ترجمة للشاعر الاندلسي الخليع :

« احمد بن محمد الجياني المعروف بتيس الجن .. ! »

731 ــ بوملوطة ... !

وجدت فى كتاب « تاريخ الدولة السعدية » المطبوع بالرباط سنة 1934 فى كلامه على محمد الشيخ :

« محمد الشيخ : دخل فاسا وعليه ملوطة ملف سماوي . وطوقها من ملف أحمر . وكان بنو مرين يسمونه ببوملوطة .. !! »

732 ــ الطرقون ... !

وجدت فى كتاب الاحاطة . ج. 2 . ط. عنان. القاهرة . فى ترجمة محمد بن سعيد ابن مردنيش حكاية موثرة عن جور عماله وفتكهم بالناس جاء فيها:

« ... وضربنا دفا . فلما كان عند الصباح . واذا بنقر عنيف بالباب فقلت من انت .. ؟ فقال : انا الطرقون الذي بيده قبالة اللهو . وهي متقفة بيدي وانتم ضربتم البارحة الدف فأعطنا حق العرس الذي عملت ... !!! »

733 ــ اذا عشنا متنا ... !

وجدت فى ترجمة القاضي عبد الوهاب المالكي البغدادي من وفيات الاعيان لابن خلكان :

« واجتاز فى طريقه بمعرة النعمان . وكان قاصدا مصر . وبالمعرة يومئذ ابو العلاء المعري . فاضافه . وفى ذلك يقول من جملة ابيات :

والمالكي ابن نصر زار فى سفر
بلادنا فحمدنا النأي والسفرا

اذا نفقه احيا مالكا جـدلا
وينشر الملك الضليل ان شعرا

ثم توجه الى مصر . فحمل لواءها . وملا ارضها وسماءها . واستتبع سادتها وكبراءها . وتناهت اليه الغرائب . وانثالت فى يديه الرغائب . فمات لاول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها .. ! وزعموا انه قال وهو يتقلب . ونفسه يتصعد ويتصوب :

لا اله الا الله ... اذا عشنا متنا ... !!! »

734 — فكرفسوه ... !

وجدت فى كتاب « حديقة الازاهر » لابن عاصم الفرناطي . ط. حجرية .

« ان معلما اغرى تلاميذه بواحد منهم ... فقال لهم :

— يا صبيان كرفسوه ... !!

فكرفسوه بالبزاق حتى صار أبلق .. !! »



ديوان المجلة

- دعوة للهدى
- وثبتنا الكبرى
- جئنا نحيي همة
- جلال الذكرى



دعوة للهدى

للاستاذ عمر بهاء الدين الاميري

برايا ، ولله فى خلقه
شؤون ، يقدر احوالها
ودولاب دهر ... ورب يداول
بين البرية آجالها
نواميس تجرى على العالمين
ادار لها الحق منوالها
فبالحق تمنح اعزازها
وبالحق تكتب اذلالها
هدى بذل الله خيراته
فمن يتبع نهجه نالها
ومن عق ، شق عصا عقله
فولد للروح اوجالها
فلا ... لا يلومن سوى نفسه
اذا مسها الضر او غالها

* * *

(*) نظمت فى اكادير : 17 جمادى الاولى 1397 — 7 ماى 1977 ، والقيت فى حفل افتتاح المؤتمر السادس لرابطة علماء المغرب بأكادير فى 18 جمادى الاولى 1397 .

« اكادير » جئتك اسعى وقد
تركت الرباط و « اكدالها »
وجئت قلبى لا ابتغى
محاسن أوتيت اشكالها
ولكنها دعوة للهدى
تولى الاخ البر (1) ارسالها
ورابطة اجمعت امرها
فجئت أؤكد اجلالها
احيى شيوخ التقى الاكرمين
وادعو الى العزم اشبالها
واذكر بالرحمة الراحلين
اخص « جوادا » (2) و « علالها » (3)
وادعو لها بسداد الجهاد
وان ينجح الله اعمالها
وان يحفظ الله « كنونها » (4)
وان يشفى الله « رحالها » (5)

* * *

ايا صحب انى وجهت قلبى
وعقلى ونفسى وتجوالها
انشد آفاق هدى الحضارة
عدلا ، وادرس اطوالها
امحص احوال انسانها

---

(1) و (4) الامين العام لرابطة علماء المغرب الاستاذ عبد الله كنون .

(2) الاستاذ الجواد الصقلى عميد كلية الشريعة بفاس رحمه الله .

(3) الاستاذ علال الفاسى رحمه الله .

(5) الاستاذ الرحال الفاروقى عميد كلية اللغة العربية بمراكش وقد تخلف عن المؤتمر لمرضه عافاه الله .

ومن مدحوها ، وعذالها :
تنمى العلوم ... ترود النجوم
اجل ، واجل الذى طالها
ولكن اعود الى بغيها
وتقلبدها الامر ختالها
وابصر فتك جراثيمها
ومكر يهودي احتالها
ليستلب الناس اقواتهم
وحتى الفقيرة ... اسمالها
وكيف تسوق الدنى للفنا
وكيف تكرم قتالها
فاحكم فى رشد « انها
شقاء » اذا رمت اجمالها
ويمهلها الله حتى نثوب
فاهمالنا زاد امهالها
وان الدنى من عصي الضنى
بنا قدر الله ابلالها
امانة اسلامنا فانفروا
ايا صحب نرفع احمالها

* * *

امؤتمر الخير شمر وقد
لأمة « احمد » أجيالها
وخض غمرات عناد الكبار
وسق المهمات عمالها
فأمتنا فى بكاء وشكوى
وقد رفض الكون اعوالها
وتلد سيطرة العالمين
عداة تقطع أوصالها
فذى « قدسنا » فى اسار اليهود

ولبنانـنا زاد اشكالهـا

وابن الغيارى من المسلمين

يسوقون للحرب ارتالهـا

« فلسطين » عز « الفدا » النقى ،

يكر فيهزم صوالهـا

ويهتف « اللـه » يبغى الشهادة

قد شام فى الزحف اطلالهـا

ولا يتنكب قصد الرسول

ونهج الفتوح وأرسالهـا

فلا « لليسار » ولا « لليمين »

سويا مع اللـه قد صالهـا

لقد جحد البعض درب الهدى

ولن ينصر اللـه ميالهـا . . .

مؤامرة نحن فى صلبهـا

بجهل نعمق اهوالهـا

❊ ❊ ❊

امؤتمر الخير من ذا يفك

لامة « احمد » اغلالهـا

تبدلت الحال من سؤدد

الى وهن زاد اذلالهـا

فقد غيرت بالدنى دينهـا

وقد ضرب اللـه امثالهـا

هو الدين اين الالى جنده ؟

هو الدين يملك ابدالهـا

ويملك تسديد انسانهـا

ويملك فى المجد احلالهـا

هم العلماء الدعاة الهداة

يمدون بالراي اقيالهـا

ويكتب رب البرايا بهم

لهـا ، بعدما كان ، اقبالهـا

فيا معقل الدين والعلم والمزايا
ايا « سوس » يا آلهيا
جزيتم عن المكرمات الثناء
ودمتم تضمون احفالها

* * *

امؤتمر الخير لا التوصيات ستجدى
ولو خال من خالها
ولا دعوات التقى الصحات ،
ولسنا لننكر افضالها
ولاكن رب البرايا قضى
وقال : اعملوا ... هو قد قالها
اذا نحن لم ننقدح للحياة
فهيهات نملك اهلالها
فكم اسلمت للفحول ذمام
علالها ، ولم تعط قوالها
عقال بعير ، فراح عقيما
يغنى على الضعف موالها

* * *

ايا صحب انى لأسأل نفسى
ونفسى تعرف امحالها
اذا فى غد حم يوم الحساب
و « زلزلت الارض زلزالها »
ونادى الى الحشر والنشر داع
« واخرجت الارض اثقالها »
وكان السؤال ولات المحيص
وواجهت النفس اعمالها
وقدم من ورثوا الانبياء (6)

(6) كان احد شعارى المؤتمر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الانبياء » .

ولم تبخس النفس مثقالها
ويسألها الله عما حبا
حبا علمها وحبا مالها
فماذا يكون الجواب الصواب ؟
وكيف نوازن مكيالها ؟

* * *

غداة أعدت صواريخها
وصالت وجالت وما هالها ...
فدنيا العروبة والمسلمين
تواجه بالرقص خيالها
بشدو القيان وحشد الحسان
تهز الصدور واكفالها
يهودية وصليبية
و « مركس » يلبس سربالها
الا وثبة يا حماة الحمى
نرد الى العقل جهالها
فان رفضوا العدل واستكبروا
نكر عليها لنغتالها
ونظهر دعوة قرآننا
حقائق نمحو بها آلها

* * *

أرابطة عقدت جمعها الكريم
يمحص اشغالها
الا اننا الجند ، أن جد جد
يترجم بالفعل آمالها
الى علماء البلاد ملاذ
العباد ، اذا حققوا فالها

وعاهلها راس اقطابها
يحث ويدعم ابدالها

* * *

تواص بحق وصبر ، وما
ابرىء نفسي واعمالها
الا شهد الله باسفتها
اهز القلوب واقفالها
وما هي نجواي في جمعكم
اذا رضي القلب اغفالها
واقسم بالله ، في لمحة
اذا ما ملكنا لها مالها
سنرقى السنام نشيع السلام
وننفي عن الارض اوحالها
اذا صدق العزم دالت لنا
العوالم فالله اوحى لها

عمر بهاء الدين الاميري



وثبتنا الكبرى

للأستاذ الشاعر وجيه فهمي صلاح

بلدي يا أغلى من ولدي
أفديك بروحي والجسد
وأعيذك من شر الحسد
بالله الحافظ والصمد

لتظل منيرا بالحسن

من خطط وثبتنا الكبرى
بمسيرة فتح للصحرا
من أحرز للمغرب نصرا
وأفاض على الرمل البشرى

سيف القانون أبي السنن

آفاق العلم تطالعنا
وتحيي قائدنا الحسنا
من شاد معالمها وبنا
أمجادا تذكي نهضتنا

لنظل مصابيح الزمن

من اشرق فى الافق المغربي
شمسا تختال على الشهب
بسديد الرأى وبالحسب
وبطول الباع وبالنسب

واضاء على هذا الوطن

مولاي أيا عالي الهمه
ومحقق آمال الامه
ومنير لقاءات القمه
بالعزم الصادق والبسمه

فى السر هواك وفى العلن

الله يبارك وحدتنا
ويسدد دوما خطوتنا
ما دام العاهل قدوتنا
وهداه ينير بصيرتنا

سنحقق آمال الحسن

بسماك والعشب الاخضر
يا وطني والزهر الانضر
وصباحك بالعرش منور
ومليك يغدق كالكوثر

البشر يلون وادينا

فى عيدك يا ملكي الغالي
يا أول حب لا ثاني
بلساني انشد الحاني
وامجد عهدك بجناني

يا حامي المجد وحامينا

انا بمسيرتك الخضرا
حررنا الساقية الحمرا

واعدنا امجاد الصحرا
لنتمم وحدتنا الكبرى

ونحقق حلو امانينا

بهداك تعم ثقافتنا
وترود الافق شبيبتنا
وتعز بجهدك امتنا
فتهز الكون حضارتنا

في حاضرنا او ماضينا

يا ربي اطل عمر الغالي
وامدده بنصر متوال
يا ربي وفي كل مجال
كي تبلغ حلو الآمال

بالحسن الثاني راعينا

الرباط : وجيه فهمي صلاح

بنا نحيي همة

للشاعر الحاج أحمد بن شقرون .

(تحية المؤتمر السادس لرابطة العلماء المنعقد (1) بمدينة اكادير)

العلم في سوس تدفق نافعا ... والمجد في سوس توهج ، ساطعا
والنبل ، والتقوى ، وكل فضيلة ... تهدى اليك مباهجا ، ومرابعا
والناس في هذى البلاد تسارعوا ... لمناهج العليا ، فنالوا الفارعا
فمتالف مهجورة ، ومساجد ... معمورة ، تؤوى المطيع الضارعا
ومدارس فياضة بمعارف ... منذ القديم (2) تروق زهرا ، يانعا
وأجد في سوس ، تراه طبيعة ... تنأى بهم عما يعد بلاقعا
والدين أصل جذره في أنفس ... شرفت بهم فحموا حماه مصانعا

❊ ❊ ❊

عاشرتهم زمنا ، فأبصرت الهدى ... متألقا ، غمر التقي ، الراكعا
وخبرتهم ، فخبرت أمجادا ، نمت ... في سادة ، ورثوا الخلال بوارعا
الحسن يغمر عهدهم ، فصديقهم ... أنى يكن ، يلق احتراما ، رائعا
إيمانهم يقضي بهم ، لتعاطف ... وبهم يسير الى الودود مسارعا
سل عنهم مختارهم (3) ينبئك في ... « معسوله » عما يسر السامعا
بل انه مختارنا ، الطف به ... ذلقا نبيلا ، واطلاعا واسعا
كنا اذا زرناه ، نقبس حكمة ... من عالم ، فحل ، يبيت مطالعا

---

(1) 18 — 19 جمادى الاولى 1397 . 7 — 8 ماى 1977 .
(2) اشارة الى المدارس العتيقة المنبثة منذ القدم في اقليم سوس العالمة
(3) هو العلامة المرحوم بكرم الله السيد الحاج المختار السوسي .

خاض النضال ، ولم يهب مستعمرا ومضى عن الوطن السليب مدافعا
دس المساق ، عزمه ، بشجاعة كانت اجل مطامحا ، ومنازعا
حتى مضى نير ، وشع بمغرب نور ، ازاح مخاطرا ، ومطامعا

* * *

جئنا نحيي همة ، سوسية تهدى اليها « فاس » ودا ، ساطعا
وجدد العهد القديم ونهتدى بسنا الاحبة فى الضمائر لامعا
ونوثق الربط الذى ازهى به قيم الشريعة مستمرا ناصعا
فالسادة العلماء منذ كانوا وهم مجرى الفضائل حكمة ، وتواضعا
يعنون « بالضاد » الرفيع مقامنا وشريعة ، حملت لواء رادعا
ورثوا عن الهادى النبي محمد ميراثهم علما ، منيرا ، ناجعا
وعلى المنابر ، لم يزالوا سادة يهدون بالحسنى الخليع الخانعا
مازال ديدنهم دراسة نافع من سنة ، زخرت ، نلذ منابعا
والله اعلم حيث يجعل سره فى خلقه ، علما ، وفضلا ، واقعا
سيفوز ، بالذكر الجميل ، اخو الحجى من عاش للخلق المحبب زارعا

* * *

رودانة ان شئت سل عن معهد فيها ، تجد ادبا ، وفهما ناصعا
اوشئت سل « ايفرى » بقلب تكيسة تجد المروج اليانعات مراتعا
وعن الروابط ، سل رجالا ، واصلوا عهدا ، مع الخلاق ، يلمع ، وادعا
سل ارض سوس ، كلما عن نزهة جبلية ، تلق اخضرارا يانعا
وتجد نوكه دانيات ، لم تزل للزائرين ، السائحين ، منافعا

* * *

بخريدة فى الطب جادت « درعة » (4) واتت تشنف بالمفيد مسامعا
والالغيات طرائف ، منثورة نثر الجمان ، عن الالى متابعا

* * *

---

(4) اشارة الى منظومة الفقيه السيد احمد الدرعى التى نظمها فى الطب وابتدا فيها بأدوية الراس وختمها بادوية الاسافل وسماها : الهدية المقبولة .

يـا أهل سوس ، قد توطد ودكـم يلقـاه عبد (5) الله ودا ساطعـا

انـا لا ارشـح للامـانـة غـيره فلقـد تمـرس بالامانـة بـارعـا

واقـام يخـدم سـادة بلـيـاقـة ويضم اخوانـا ، وصقعـا شاسعا

ويدير فى حدب ، ويـداب صـابـرا ويعيـش للاخوان ، خـلا ، نافعـا

* * *

ومليكنا : الحسن المعظم لم يـزل لفخـار هذا الشعب ، يحيا صانعـا

ويعلم اهـل العلم ، يعنـى دائمـا تاجـا على عرش القـلوب مبايعـا

ويـرون فـيـه ضمانـة ابـديـة راس المعارف ، للمعارف ، رافعـا

فالله يحفـظـه لنـا ، ولشعـبـه ملـكـا ، اثيـلا للمكـارم جامعـا

نـدعـو لـه ، ولأسرة ميمـونـة وولـى عهـد فى المجـرة ، طالعـا

(5) هو العلامة البحاثة المطلع سيدى عبد اللهكنون الامين العام لرابطة العلماء





جلال الذكرى

للأستاذ الشاعر محمد بن محمد العلمي

جلال ذكراك فوق الشعر والنغم ، — وفوق ما يصف الوصاف بالقلم

(ليت الكواكب تدنو لى فانظمها — عقود مدح ، فما ارضى لكم كلمى)

ان الغرام الذى فى القلب جذوته — هو الذى جعل المحبوب شدو فمي

فالدفء فى عصبي ، والعشق فى كبدي — والحمد فى عيدك الميمون ملء دمي

مفاخر (الحسن الثانى) وهمته — تزهو بأمجادها فى موكب الامم

من سيد الخلق طه عنده قبس ، — والجوهر الفرد كل غير منقسم

قد وحد الوطن الغالي والهمه — ملاحم البعث والتشييد للهرم

فعرشنا العلوي الله ناصره ، — نظامه ثابت من احسن النظم

مناره قد هدى منا العقول الى — نيل المكارم والآلاء والنعم

احبه الشعب ، والرحمان ايده ، — وصانه دائما من اجمع النقم

وفى معية رب العالمين له — نور به تتنحى وحشة الظلم

من يعرف الله كان الله حافظه — من الشدائد والزلات والغمم

يا باني المجد ، يا نور اليقين لنا ، — ابشر بما نلت فى العلياء من شيم

صحراؤنا انت من تحيي اصالتها — فعاد تاريخها نارا على علم

مسيرة السلم عنوان انتصارك فى — ركب الى وحدة الاوطان مزدحم

مواكب الفتح للقرآن حاملة — وصوت تكبيرها كالرعد فى الاكم

تزهو وترتفع الرايات فى يدها ، — وطبعها هيبة كالاسد فى الاجم

يا قائد الزحف ، والامجاد تبعثها ، — والشعب لباك ، لم يحجم ولم يجم

جددت للمغرب المحبوب عزته ،   فكنت قمته تسمو على الامم
انوار جدك فوق التاج ساطعة   سطوع صبح من الآمال مبتسم
(حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه ،   او يرجع الجار منه غير محترم)
هو الربيع جديد فى نضارته   منك استمد شبابا خالد القيم
حققت اروع ما يهفو الكرام له   وكنت فى فكرك الخلاق ذا شمم
وفى مسيرتك الخضراء مدمة   قد خاضها الشعب طوعا راسخ القدم
(لاهاى) قد نطقت بالحق جاهرة ،   ولم تدع حجة اخرى لمختصم
فلا مجال لاطماع يبيتها   كيد الحسود ، ولا جدوى لمتهم
مهما تطل حولة الطاغى وسطوته ،   فان دولته بالبغى لم تدم
(زايير) انت لها ، قد صنت وحدتها   ضد الغزاة ، فما هانت ، ولم تضم
ان الشعوب بغير الحق ما رضيت ؛   يكفى الدخيل وجود منه لم يقم
ردت بضاعتنا فى العز كاملة ،   وشوقها ظاهر للاصل فى القدم
والشعب اعظم عملاق بصولته   يسنه الحلم المقنوت للقزم
كان (التحدي) وما ينفك مكرمة   دلت على بطل بالنبل متسم
ابهى المسيرات فيها نستمر ، فقد   كنا مدى الدهر شعب البأس والكرم
من لم يصن حرمة الجيران نمقته ،   فجند ربك جند غير منهزم
على الضامن اقسمنا اليمين ، فلم   نهن ، ولم يحنث الاحرار فى القسم
فى القرض تلنا وساما اذ نتيه به ؛   وركننا العرش ركن غير منهدم
وعهدنا عهد رب العالمين ، فلم   يكن بمنثلم يوما ومنفصم
ان التطوع للخيرات شيمتنا   والعرش اضمن للتوفيق فى الهمم
شعارنا الله ، والاوطان نحفظها ،   والعرش نحن له من اخلص الخدم
وحوله انسجم الصف العظيم على   حب البلاد ، فلم يغفل ولم ينم
كم ضاعف الجهد فى خوض الجهاد ، فلم   يفتر عن السعى فى تصميم ملتزم
سل السدود ، ففيها الخير مدخر ،   والماء منه حياة الكون والنعم
ان الكفاية عنوان الثراء لنا ،   وفى الخصاصة اصل الداء والالم
سل المعاهد فيها النشء منفتح   على الوجود بجهد منه منسجم
سل المساجد ، والقرآن يعمرها   بمصحف حسني باهر الحكم
سل الجنود ، ففي (الجولان) نجدتها ،   وعند (سيناء) اقناع لمحتكم
انا لقوم اباة ، اذ نغار على   حفظ المحارم والاوطان والذمم
من المحيط الى اقصى الخليج لنا   حب وثيق وعهد غير منصرم

والقائد (الحسن) المغوار تطبعه   حرارة الملتقى فى الحل والحرم :
ايمان مرتقب لله ، منتقم   لله ، منتصر بالله معتصم
سل (الرياض) ففي (لبنان) قد عكست   ظل السلام ، واحيته من العدم
(روح الرباط) على الاكوان قد بسطت   امنا ، فلم تبق من جرح ومن سقم
اكرم بعاهلنا المنصور من بطل ،   اعظم به فى احتدام الهول من حكم !
(روح الجماعة) فى مسعاه قد وضحت ،   فانظر الى حكمة المستوعب النهم
سل العروبة والاسلام ، انهما   فى قلبه اسرة موصولة الرحم
سل المشاريع فى بدو ، وفى حضر :   تلك الحقائق فوق الوهم والحلم
سل الصحافة ، والاكوان مصغية   الى خضم عميق الغور ملتطم
سل الفصاحة والآداب ، فهي له   اسمى المزايا ، فلم تدرك ولم ترم
قد تحدت مقلة الاعمى على نظر ،   واسمعت كل من يشكو من الصمم
سل العوالم عن سر تبوح به   محاسن (الحسن الثاني) مع النسم
غرامه قد رضعنا من كوائره ،   وقلبنا فى هواه غير منفطم
ونحن لا نرتوي ، بل كلما عطشت   اكبادنا ، نابها لفح من الضرم
اقر رب البرايا عينه ابدا   بجوهر من بنيه الغر منتظم
فانه اول الابطال اجمعهم ،   وقدوة لملوك الارض كلهم
فهو المشرف شعرى عند مبتدئي ،   وهو الثريا لفنى عند مختتمي !





للاستاذ الشاعر محمد البوعناني

« عريس القلاع ...
معيد الشواطىء ...
امير الثار :
مولاى اسماعيل العلوى »

* * *

ثريا الليل ...
وشمس الموعد الصيفي تحترقان فى المدنع
وتنفجران فى الشاطىء !
وأسماك الثغور تصيح
يا نيران عزرائيل
على محتلها الفاجر !

* * *

ينام الاطلس الوردي ...
يخجل ان يرى نجمة !
ويخجل أن يجمله بياض التاج ...
او ارز على قمة !

* * *

يموت الصبح ! ... او يطلع ...
وليس بارضنا غادر !
بهذا صاح اسماعيل ؛
بهذا غنت الامة !
ويوم الزحف ...
لم تفسخ عمائمها على الامواج ،
ولكن طوقت فى حلق ساحلنا ...
دخيلا ينشر الارهاب والحسرات
بأرض لم يزر ابوابها قابيل !
ولا خضعت لسفاح ...
ولم تدبر امام الموت والاهوال !
وكانت حرة السكنات ...
كانت حرة الحركات !

* * *

وظن الغاصب المسعور
ان النار تحرقنا ،
وان السور ... والابراج ...
والامواج ...
تحبسنا !
وان الدار قد نسيت اهاليها
ولا تهفو لبانيها !
وان الصخرة الصماء
لا تغضب !
وانا فى مخابئنا ،
وانا فى مقابرنا ،
الى ما شاء الاستعمار !
وليس لنا شباب طامع فى الثأر ! ...
ولكن —
تام فينا من اعاد الامر والعزمات ،

اعاد الفجر للاشواق ! ...
اعاد النهر للاحداق ! ...
اعاد البحر للآفاق ! ...
ويفسخ موجه حتى يضم النخل والاسوار ،
وينفخ جذوة الايمان فى المغرب ...
بأبواق ،
تهز الارض هزا تحت اسرافيل !

* * *

زغاريد تبارت فى أماسينا ،
صلاة تملأ البيدا ،
وموال يسير بقارب الاسرار ،
والف يد تنمق لؤلؤ الاكليل ،
وانسمة حجازية ...
تفوح على نوادبنا ،
تدغدغ ، ينبع النخل ، المعلق فى مآقينا !
كما أحيت موات الامس فى اقصى روابينا ...
نقد حشرت مواعيدا ...
واسيادا من الاحرار
اعادوا الصبح للاطفال ،
اعادوا الحب والايمان للاجيال !
نعاشوا قبلنا ابطال
وداموا بعدنا ابطال
وكانوا جيش اسماعيل !

محمد البوعنانى

صوت الأمانة

للشاعر المدني الحمراوي

تراءت ــ على بغتة ــ غرتان   لعيني ، كأنهما دميتان
رأيتهما تمشيان فما   شككت بأنهما اثنتيان
لباسهما واحد مثلما   تتوج رأسيهما وفرتان
ومنظر شكلهما واحد ،   كذلك وجهاهما مشرقان
ولا فرق يلحظ بينهما   اذا نظرت ــ فجأة ــ مقلتان
فقلت ــ بلا حرج ــ معجبا   كهاتين حقا تكون الحسان
كأنهما طبيتا واحة   فكل بحسنهما ذو افتتان
ولما تأملت صدريهما   عرفت اليقين بحس العيان
فأرهفت سمعى لعل الذي   رأيت تحققه الاذنان
سمعت كلامهما فاذا   بصوتين فى الجرس يختلفان
فصوت قوى له غلظة   وصوت رفيق كلحن القيان
فقلت فتى وفتاة هما   وليسا كما أوهم المظهران
تملكنى عجب مدهش   وكادت تزل بي القدمان
وقلت لنفسى : ألم تنظرى   الى خسة تبعث الغثيان ؟

* * *

أحقا شبيبتنا افلست   فصارت الى مثل هذا الهوان ؟
وضحت بأخلاقها بعد ما   عصت وجفت دينها من زمان
وصارت تدين بمحض الهوى   فضلت سبيل الهدى والامان
وأفلت منها الزمام الذى   أضاعته فى غمرات الرهان
فليس لها منهج سالم   أصيل قويم يصون الكيان

ومنهجها انها اصبحت   تقلد كل خسيس مهان
ترى انها ادركت سؤلها   وما هو الا هوى وامتهان
وكيف يليق بها منهج   اصالتها فيه ليست تصان ؟
سراب به خدعت اعين   ترى انه سلسبيل الجنان
وليس هنالك غير الردى   تطل سعاليه من كل حان
تساق ضحاياه فى موكب   تخدره نغمات الحنان

* * *

هربت الى العيش من موكب   رهيب ، ومن نهشة الافعوان
اريد الحياة ؛ فان شئتها   فهيا ، ودع موكب الموتان
هلم الى ساحة فوقها   يطيب الزمان لنا والمكان
الى قبلة الحق فى منهج   به من خراب ومسخ نصان
تضمنه مصحف طاهر   فكيف بمنهجه يستهان ؟

* * *

تري اي شؤم دهى جيلنا   فانكر حقا صريح البيان ؟
وآثر مستنقعات الهوى   وفضل حسو سموم الدنان
فضاع وضيع امته   وكاد يغيبه الذوبان
تعرى ودنس اعراضه   ومال الى حتفه واستكان
تولت غرائزه سوقه   بعنف فطاوعها واستلان
يروح ويغدو الى هيكل   شعائره الفحش والهذيان
ويمسي ويصبح فى غفلة   وغيره حلق فوق العنان
فكيف وتاريخنا يقتضي   صمودا ، وشحذ الحجى والسنان ؟
وصوت الامانة مستصرخ   يطالبنا بالوفا كل آن
وقرآننا لم يزل ناطقا   وقد لاح منه الهدى واستبان
يقرعنا باليم العتاب   مشيرا الى جيلنا بالبنان
انهدر حرمة اخلاقنا   ونامن من فجاة الحدثان ؟
كفى سفها ، وكفى غفلة   وهل نرعوي قبل فوات الاوان ؟
فاما بقاء له قيمة   واما ضياع ، هما خطتان

الرباط — المدني الحمراوي

مؤتمر الجمعيات الاسلامية فى مصر يطالب بتطبيق الشريعـــة

● انعقد مؤخرا فى مصر مؤتمر الجمعيات الاسلامية العاملة داخل التراب المصري ، وقد ترأس الجلسة الافتتاحية الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الازهر وحضره عدد كبير من العلماء والمفكرين والكتاب والصحفيين . وتدارس المؤتمر وضعية الجمعيات الاسلامية وبحث سبل النهوض بمستواها لاداء الدور القيادي المنوط بها .

وقد طالب المؤتمر فى توصياته بوجوب تطبيق الشريعة الاسلامية باعتبارها المخرج الوحيد لجميع الازمات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية .

وقد نقلت الصحف المصرية أصداء هذا المؤتمر واهتمت به وسائل الاعلام من اذاعة وتلفزة .

بناء اكبر مسجد بافريقيـا فى ليبرفيـل

● قرر الحاج عمر بونغو رئيس جمهورية الفابون اقامة مسجد فى ليبرفيل عاصمة الفابون ، بحيث يصبح اضخم واكبر مساجد افريقيا ، ويتكلف بناؤه 20 مليون دولار ، ويكون ايضا اول جامعة أسلامية فى الفابون . الرئيس عمر بونغو ابدى اهتماما بنشر الدين الاسلامي فى بلاده منذ اشهر اسلامه منذ 3 سنوات ، وادى فريضة الحج .

بنـك فيصـل الاسلامـي

● اتفقت اللجنة العليا للتخطيط فى مصر على انشاء « بنك فيصل الاسلامي المصري » للقيام بجميع الاعمال المصرفية والاستثمار والمشاركة فى مشروعات التنمية الاقتصادية والعمرانية والصناعية فى اطار احكام الشريعة الاسلامية .

مؤتمر المـدن العربيـة

● انعقد بالرباط « مؤتمر المدن العربيـة » التاريخية الكبرى وفى مقدمتها مدينة القدس التي بحضور ممثلي عدد كبير من العواصم العربية والمدن



السيد روحي الخطيب

مثلها عميدها الشيخ روحي الخطيب الذي طردته السلطات الصهيونية من القدس المحتلة فى عقاب حرب يونيو 67 .

ندوة علمية فى كشمير حول الشيخ محمد انور شاه

● عقدت مصلحة الاوقاف الاسلامية لولاية كشمير بتوجيه من السيد شيخ محمد عبد الله رئيس وزراء كشمير ندوة علمية عن الامام المحدث الكبير الشيخ محمد أنور شاه الكشميري احد شيوخ دار العلوم ديوبند وعلمائها الافذاذ تقديرا للاعمال التي قام بها الشيخ رحمه الله فى مجالات علمية ودينية عديدة وتخليدا لذكرى شخصيته الفذة ، حيث كان رحمه الله مثالا نادرا للتضلع من العلوم والعبقرية الخارقة للعادة .

وقد شارك فى تلك الندوة المزمع عقدها بكشمير فى شهر يونيو الفارط عدد كبير من الكتاب والباحثين والشخصيات الاسلامية البارزة من العلماء والمثقفين .

مسلمو كامبوديا يستنجدون بالعالم الاسلامي

● ناشد مسلمو كامبوديا اللاجئون العالم الاسلامي للنظر والاهتمام باخوانهم المسلمين فى كامبوديا .

وقد كانت كامبوديا فيما مضى مركزا هاما للدعوة الاسلامية ، منها انطلقت الدعوة فى الشرق الاقصى وجنوب آسيا ، واليوم يعاني المسلمون هناك الموت والابادة .

دولة الامارات العربية المتحدة تدعم الجامعة الاسلامية فى سراييفو بيوغوسلافيا

● قررت دولة الامارات العربية المتحدة المساهمة فى دعم الجامعة الاسلامية فى سراييفو بيوغوسلافيا وذلك بمدها باحتياجاتها من الاجهزة العلمية والدراسية بالاضافة الى دعم الدعوة الاسلامية التي تقوم بها المشيخة الاسلامية اليوغوسلافية بين المسلمين هناك .

وجدير بالذكر انه يوجد اربعة ملايين مسلم فى اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية . وقد استطاعوا بناء مائة مسجد فى عشر سنوات ، كما لدى المسلمين هناك مدارسهم الخاصة المختلفة بجانب الجامعة التي سيتم افتتاحها فى شتنبر القادم .

مليون دولار ونصف لمقاومة تهويد القدس

● قرر المجلس الدائم لصندوق التضامن الاسلامي تخصيص مبلغ مليون ونصف مليون دولار للقدس العربية لمقاومة عمليات التهويد واستيلاء العدو الصهيوني على الاراضي العربية هناك .

كما قرر المجلس رصد مبلغ مليون ونصف مليون دولار لتنشيط ودعم الجمعيات الاسلامية فى مختلف انحاء العالم . وقرر مجلس الصندوق كذلك تخصيص 400 الف دولار لمنكوبي الزلازل بتركيا و 250 الف دولار لتمويل لجنة الهدنة الخاصة بوقف اطلاق النار فى الفلبين و 100 الف دولار لمساعدة مسلمي جزر القمر .



المغـــــرب :

● انتقل الى رحمة الله تعالى الاستاذ البحاثة عبد القادر الخلادي الذي واكب مجلة دعوة الحـق بأبحاثه ومقالاته القيمة فى تاريخ الحضارة المغربيـة منذ سنواتها الاولى .

وشاءت ارادة الله أن يصدر للفقيـد كتـاب « مؤرخو الشرفا » المترجم عن ليفي بروفنصال قبل وفاته بأيام قليلة . وهو الكتـاب الذي كان ينشـر فصوله المسلسلة فى « دعوة الحق » وصدر عن دار المغرب للتاليف والترجمة والنشر .

وقد خلفت وفاة الاستاذ عبد القـادر الخلادي اثرا عميقا فى اوساط المثقفين ورجـال البحـث والعلم الذين يعرفون قدره ويشيدون بجهوده العلمية فى سبيل ازدهار وتطوير الحركة الثقافية فى المغرب.
رحم الله الفقيد والهم ذويه الصبر والسلوان .

● يواصل الاستاذ قدور الورطاسـي اثراءه للمكتبة المغربية بمؤلفات قيمة يصدرها تباعـا .
وآخر ما صدر له كتاب بعنوان « ذكريات الدراسة فى فاس » وهو مذكرات اجتماعية اكثر مما هو ذكريات شخصية ، فمن خلال تسجيله للاحداث والوقايـع التي مر بها المؤلف اثناء دراستـه بالقروييـن فى الثلاثينات يبرز صورا مشرقة لتطور الحركة الفكرية والوطنية فى المغرب فى جوانبها المختلفة . وبذلك جاء الكتاب حافلا باللمحات المركزة التي تكشف لنا اهم مرحلة من مراحل الكفاح الوطني المغربي الذي انطلق اساسا من القروين وارتكز على المفاهيـم الاسلاميـة .

● دخل الاستاذ السيد عبـد اللطيف محمد بمنصور ميدان التاليف والنشر بصدور كتابـه : « مجموع ازجال وتواشيح واشعـار الموسيقـى الاندلسية المغربية المعروف بالحائك » . وهو من الكتب التي تسد فراغا مهما فى المكتبة المغربيـة باعتباره سجلا لاروع ما ابدعته العبقرية المغربية فى هـذا المضمـار .

وقد بذل الاستاذ بنمنصور جهدا علميا شاقا فى اعداد وتنسيق وترتيب وتحقيق هذا الكتاب الـذي يقع فى حوالي 500 صفحة من القطع الكبير .

● صدر عن دار الثقافة ببيروت للدكتور عثمان عثمان اسماعيل كتابان الاول بعنوان « حفائر شالـة الاسلامية » والثاني « دراسات جديدة فى الفنـون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الاقصى » .

وكان قد صدر للمؤلف من قبل مجلد ضخم عن « تاريخ شالة الاسلامية » .

وسيصدر قريبا للمؤلف ايضا عن دار الكتاب بالبيضاء « أصحاب الميمنة » وهـو سيرة ابطـال الاسلام فى المغرب .

● اصدر الاستاذ احمد الشرقاوي اقبال كتابا بعنوان « مكتبة الجلال السيوطـي » وهو سجـل لجميع مؤلفات جلال الدين السيوطي .

● كتب الاستاذ عبد الوهاب بنمنصور مـؤرخ المملكة مقدمة للكتيب الجديد الذي اصدره الاستاذ ادريس الشرادي بعنـوان « المجلس البلـدي : الرئيس ، المساعدون » .

● تجري الآن الاستعدادات اللازمة من طرف رابطة علماء المغرب لتصدر جريـدة (الميثـاق) بانتظام كل اسبوع ..

كما ستعمل الرابطة على اصدار دورية منتظمة لنشر البحوث الاسلامية والمناقشات العلمية .

● وصل الى المغرب كتاب (متن نور الايضاح على مذهب الامام الاعظـم أبي حنيفـة النعمـان) للشر نبلالي الذي اعيد فقط تصويـره بالاوفسـط ويقع فى 80 صفحة .

تـونس :

● التطور المذهبي بالمغرب ودراسة قصة (حي بن يقظان) رسالة جامعية بقلم الاستاذ محي الدين عزوز التونسي .

طبع الكتاب بتونس في الحجم المتوسط ، يقع في اكثر من 130 صفحة .

مصـر : (رسالة خاصة لدعوة الحق)

● ابرز القضايا التي تشغل حياة مصر الفكرية الآن ؛ قضية طه حسين . فقد اعيدت قضيته على صفحات المجلات والصحف المصرية مرة ثانية بعد صدور كتاب الاستاذ انور الجندي [طه حسين — حياته وادبه في ميزان الاسلام] . هذا الكتاب تقديم آخر في صورة اخرى لطه حسين ، ويكشف الكتاب بالوثايق واقوال الشهود الاحياء موقف طه حسين من عدة موضوعات ابرزها : قضية فلسطين — الاسلام — مجلة الكاتب المصري — التبشير — الشعر والشعراء — الخ . وقد قامت قيامة الذين يحبون طه حسين ويناصرونه في مصر ، وبدات مناقشات طويلة اتسمت بالعنف والحدة في بعض جوانبها . ففي مجلة « الهلال » ملأ الاستاذ « رجاء النقاش » — الذي يشرف على تحرير الهلال مؤقتا — صفحات طوالا يحاول فيها ان يرد على ما جاء في كتاب الاستاذ انور الجندي ، وان يلتمس المعاذير لبعض سقطات طه حسين ، وسمى ما كتبه بمذحة طه حسين — وفي مجلة « صباح الخير » كتب علاء الدين كلاما لا يتسم بالموضوعية ، وكان الاتهام لشخص المؤلف ، دون ان يحاول الرد الموضوعي على ما جاء في كتابه . وكذلك شاركت « الجمهورية » بمقال قصير كتبه كامل زهيري .

ويبدو أن القضية سيستمر تناولها الى وقت غير قصير ، حيث أن أجهزة الاعلام والنشر قد صورت دائما « طه حسين » في صورة مثالية لا تشوبها شائبة ، فجاء كتاب « انور الجندي » في هذه الآونة التي اتسمت بقدر غير قليل من الحرية ، ليعطي صورة اخرى ستعيد « طه حسين » الى حجمه الحقيقي ، وتحدد مكانته الفكرية والادبية تحديدا موضوعيا .

ومن الجدير بالذكر ان الاستاذ الجندي قد اصدر في الآونة الاخيرة عددا من الكتب الهامة حول « الفكر الاسلامي » منها « المؤامرة على الاسلام » وفيه يعرض بايجاز لتاريخ حركات التآمر على الاسلام والفكر الاسلامي منذ صدر الاسلام حتى العصر الحديث ، ويناقش فيه ايضا ما حاوله البعض من فرض تصور معين لتجديد الفكر العربي يخالف التصور الاسلامي . ومن الكتب الهامة الجديدة للاستاذ الجندي كتاب « مقدمات المناهج » وفيه عرض لتصورات الاسلام عن نواحي الحياة والفكر المختلفة بأسلوب مبسط وواضح . وهذا الكتاب من منشورات « دار الاعتصام » بالقاهرة .

● « موسيقى من السر » أحدث ديوان للشاعر الراحل محمود حسن اسماعيل تصدره مكتبة مدبولي بالقاهرة هذا الشهر . يضم هذا الديوان قصائد تتسم بالتأملات العميقة . وقد تناولت حياة الشاعر وشعره العديد من الصحف والمجلات المتخصصة ، وكتب الدكتور عبده بدوي عن «النور» في شعر محمود حسن اسماعيل مقالا مركزا أوضح فيه أهمية النور لفظا ومدلولا في حياة الشاعر وشعره ، وقال : نصل الى أن في شعر محمود حسن اسماعيل نوعا من « السطوع » و « البريق » ، ففي كل قصائده نجد أنواعا معينة من النور تترجرج أو تثبت في ترسل الخيوط هنا وهناك ، ولعلنا لا نذهب بعيدا اذا قلنا انها تؤثر في ادواته الشعرية ، فما اكثر ما نجد أمواجا غزيرة من الموسيقى الاثرية ، وبريقا في الايقاع وفي القافية ، وقد نجد في بعض الاحيان الشرر المتطاير ، ولعل الاتجاه المسمى الآن في الفن التشكيلي باسم « الكريستالية » يقرب ما اردنا ان نقوله في هذا المجال .

واخيرا فاذا كان الاساس القرآني لمذهب الاشراق هو الآية 35 من سورة النور ، فان الاساس الذي نعتمد عليه في القول بوجود مذهب للاشراق في

الشعر هو شعر محمود حسن اسماعيل .. كل شعر محمود حسن اسماعيل .

وقد اقيم في التاسع من يونيه 77 مهرجان ادبي وثقافي في قرية « النجيلة » مسقط راس محمود حسن اسماعيل حضره عدد كبير من الادباء والشعراء المصريين ، تكريما للشاعر الراحل .

● انعقدت الجمعية العمومية لاتحاد الكتاب في مصر مساء 4 يونيه 11977 للنظر في ميزانية 76 ومشروع ميزانية 77 والتصديق على اللائحة الداخلية ، وقد راس اللجنة يوسف السباعي نائب رئيس الاتحاد ، وحضر معه ثروت أباظة سكرتير الاتحاد ، وسعد الدين وهبة أمين الصندوق ، وقد بدأت الجلسة بالوقوف حدادا على أرواح الذين توفاهم الله من اعضاء الاتحاد وهم عشرة اعضاء . من بينهم : صالح جودت ، عبد الفتاح شبلى ، وعبد الله شمس الدين .

● « الاسلام دين الجماعة » كتاب جديد صدر في القاهرة . الفه الرئيس الغيني احمد سيكوتوري وترجمه محمد التجاري ، وفيه يتحدث عن الاسلام قولا وعملا وروحا وسلوكا ، وهو يرى الاسلام « تلك الشعلة المتأججة في أعماق المسلم ، وعلى ضوبها يرى الكون والاشياء ، وعلى هديها يسير في كل خطوة وينطلق من كل سلوك » . ان سيكوتوري يركز في كتابه على ضرورة العمل في الاسلام واصرار الاسلام على الدعوة الى العمل . وفي ثنايا الكتاب يشير سيكوتوري الى انشاء المجلس الاسلامي الوطني لغينيا ويتحدث عن المهام التي انشىء من اجلها .

● صدرت للدكتور مصطفى الشكعة عميد كلية الآداب « عين شمس » الطبعة الخامسة من كتابه « اسلام بلا مذاهب » ويناقش عددا من الموضوعات مثل : « الاسلام دين الفطرة ، وسماحة الشريعة الاسلامية ، والشورى ، والمرأة في الاسلام » .

● نوقشت في « دار العلوم » جامعة القاهرة رسالة دكتوراه مقدمة من سوسن محمد نصر الى قسم التاريخ موضوعها « الملوك الثلاثة اولاد العادل الايوبي » .

● « حصاد العقل في اتجاهات المصير الانساني » كتاب جديد للمستشار محمد سعيد العشماوي ، صدر عن دار الكتاب اللبناني في بيروت ، ويتحدث فيه عن القضايا الانسانية المعاصرة وموقف الاسلام ازاءها ، وينتهي الى عدوية الفكر الشيوعي ، والوضعي عموما .

● انتخب المذيع المصري احمد فرج أمينا عاما لمنظمة اذاعات الدول الاسلامية ، وقد وصل الى جدة في المملكة العربية السعودية بعد انتخابه بالاجماع لهذا المنصب في اجتماع الجمعية العمومية في ابي ظبي . والمعروف أن المنظمة تضم 42 دولة اسلامية وتعمل على التنسيق بين الاذاعات الاسلامية وتبادل وانتاج البرامج ، ومن مشروعاتها اطلاق قمر صناعي ينقل برامج هذه الدول . أشتهر احمد فراج بين المصريين ببرنامجه المختار « نور على نور » الذي كان يقدمه في التلفزيون المصري .

● تنشر مجلة « اكتوبر » المصرية في حلقات كتابا قديما ولكنه هام عن اليهود في قواعد التلمود وقد صدر منذ ثمانين عاما ، وترجمه عن الفرنسية يوسف نصر الله . ويضم الكتاب كتابين أولهما مختارات من كتاب التلمود اليهودي الذي يتحدث عن جوهر الديانة اليهودية واحتقارها لكل الناس وكل الاديان . وثانيهما حكاية القصة المروعة التي قتل فيها اليهود احد رجال الدين المسيحيين في سورية وصنعوا من دمه خبزا ، وهي عادة يهودية قديمة ، ارتكبوها في سورية وفي مصر وفي كل البلاد التي عاشوا فيها .

● « الفصول والغايات » لابي العلاء المعري صدر عن هيئة الكتاب بالقاهرة في سلسلة جديدة باسم « كتاب التراث » . والكتاب من تحقيق محمود زناتي .

● « بيوت الله » كتاب جديد لمأمون غريب يتناول فيه تاريخ مصر سياسيا واجتماعيا واقتصاديا منذ الفتح الاسلامي الى العصور الحديثة وذلك من خلال استعراضه لبيوت الله العظيمة .

● حصل الشاعر علي علي الفلال على جائزة مجمع اللغة العربية لهذا العام عن « سعد زغلول خطيبا وكاتبا واثره فى البيان العربي » .

● (حضارة الاسلام وحضارة أوربا فى افريقيا) كتاب صدر للاستاذ نعيم خدام السوري ، وهو من الخبراء فى الشؤون الافريقية .

جاء فى الكتاب ما يلي :

« ... ان الاسلام قد استطاع كحضارة راقية ان يثبت وجود المدنية الافريقية وان يطورها ... »

ويبحث ايضا فى الطرق الدينية فى غرب افريقية ، التجانية والعمرية والمريدية

● صدر عن (دار الاسلام) بالقاهرة كتاب : (ابراهيم بن ادهم شيخ الصوفية) للدكتور عبد الحليم محمود شيخ الازهر

الكتاب فى اخراج جميل يقع فى 154 صفحة.

● « أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين قاهر الصليبيين فى الغرب وموحد المغرب والاندلس » كتاب جديد صدر فى مصر للاستاذ ابراهيم محمد حسن لجمل ضمن سلسلة ، مطبوعات الشعب ،

الكتاب من الحجم ما دون المتوسط يقع فى : 227 صفحة تتناول الحقيقة التاريخية (400 هـ / 500 هـ) .

● صدر للكاتب الاسلامي عبد الرزاق نوفل كتاب جديد بعنوان « يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام) » .

● « خطى مشيناها » آخر أعمال عباس خضر الادبية ، صدر ضمن سلسلة « اقرأ » .

● « ايام العرب قبل الاسلام » سلسلة ثقافية جديدة تضم 14 كتابا فى ادب الاطفال لمؤلفيها وصفي آل وصفي وابراهيم يونس .

السعودية :

● (الغزو الفكري فى العالم العربي) صدر ضمن (المكتبة الصغيرة) عن احدى الدور السعودية ويقع فى حوالي مابة صفحة للاستاذ عبد الله عبد الجبار .

● « على ربا اليمامة » ديوان للشاعر السعودي عبد الله بن خميس عضو المجمع اللغوي فى القاهره.

العراق :

● قدمت الحكومة العراقية عشر منح لطلاب مدينة قرطبة لكي يتمكنوا من دراسة اللغة العربية وادابها فى كلية الآداب التابعة لجامعة بغداد .

وقد اطلعت سفارة العراق بمدريد السلطات الاسبانية على هذا الامر .

اسبانيا :

● يقوم البروفسور « فرناندو ماتيوس باكا » والاستاذ فى الجامعة الوطنية بتيوان — جمهورية الصين الوطنية — بطبع قاموس صيني — اسباني مشكل من 6030 كلمة قديمة وحديثة .

● عاد واحد من فحول الشعراء الاسبان رفائيل البرتي الى بلاده بعد غياب ثلاثة وثلاثين عاما في المنفى ، اولا في الارجنتين واخيرا في روما حيث استقر .

وقد اهتمت اجهزة الاعلام اهتماما بالغا برافايل البرتي وخصصت له تعليقات عديدة ومقالات اذاعية وتلفزيونية . وقد برزت في جميعها شخصية البرتي الشاعرية التي تعتبر من أبرز رجالات جيل 1927 وبينهم شعراء بارزون امثال غرسية لورقة وخورخي غليين والكسندري وسرنودا وخيراردو دياغو وبدره ساليناس .

● بمناسبة مرور 361 سنة على وفاة ميفيل سرفنتس احتفل في جميع انحاء اسبانيا بيوم الكتاب

احتفل بيوم الكتاب لاول مرة عام 1926 ، وقد اعتبر هذا اليوم منذ ذلك الحين وسيلة فعالة للاتصال ما بين الافكار والمشاعر والانتاج الادبي ، وقد تقرر الاحتفال به على الصعيد الاكاديمي والجامعي والمدرسي سواء كان في التعليم الرسمي أو التعليم الخاص ، وفي الثكنات العسكرية كما في قواعد الاسطول البحري . وكانت شوارع مدريد مسرحا للمعروضات من الكتب في ثلاثمائة نقطة للبيع بطريقة رسمية ، وقد بيعت الوف من الكتب على اختلاف انواعها .

